دراسات فلسفية دراسات فلسفية

بليخانوف

ابحاث في تاريخ المادية

تعريب
محمد مستجير مصطفى





دراسات فلسفية دراسات فلسفية دراسات فلسفية

دراسات فلسفية

ابحاث في تاريخ المادية

بليخانوف

ابحاث في تاريخ المادية

تعريب :
محمد مستجر مصطفى

دار الفارابي - بيروت
١٩٧٩

دار الفارابي ـ ص.ب ٣١٨١
بيروت

الطبعة الاولى ـ آب ١٩٧٩

المقدمة

حاولت في الابحاث الثلاثة التي أضعها أمام القاريء الالماني أن أشرح وأعرض فهم كارل ماركس المادي للتاريخ، الذي يعد انجازا من أكبر انجازات الفكر النظري في القرن التاسع عشر ٠

واني لادرك تماما أن عملي هذا ليس سوى اسهام متواضع للغاية : فتقديم الدليل القاطع على كل قيمة هذا الفهم للتاريخ وكل دلالته يتطلب كتابة تاريخ كامل للمادية ، ولما لم أكن في وضع يتيح لي القيام بهذا العمل فقد كان علي أن أقتصر على المقارنة بين مادية القرن الثامن عشر ومادية اليوم في بضع دراسات قصيرة ٠

وقد اخترت هولباخ وهلفيسيوس من بين كل ممثلي المادية الفرنسية لانهما في نظري مفكران بارزان لم يحظيا حتى اليوم بتقديرهما الحق ٠

لقد دحض هلفيسيوس مرارا ، وتعرض للافتراء كثيرا ، لكن قليلين هم الذين كلفوا أنفسهم مئونة محاولة فهمه ٠ وحين بدأت اعرض كتاباته وأقدم نقدا لها وجدتني أحرث أرضا عذراء اذا سمح لي باستخدام التعبير ٠ وكانت الخطوط الوحيدة التي يمكن أن استرشد بها بضع ملاحظات عابرة وجدتها في مؤلفات هيغل وماركس ٠ ولست أنا الذي استطيع ان أقيم الى أي حد أحسنت استخدام ما استعرت من هذين المعلمين العظيمين في حقل الفلسفة ٠

أما هولباخ ـ الذي كان أقل جرأة من هلفيسيوس كمنطقي وأقل ثورية كمفكر ـ فانه حتى في أيامه لم يصدم الاخرين بالقدر الذي صدمهم به مؤلف «عن الروح» ، ولم يكن يثير نفس القدر من الخوف

الذي أثاره هذا الاخير، وكانت الاحكام عنه أقل عداء وأكثر انصافا· غير أنه بدوره لم يفهم الا نصف فهم ·

لقد كان على الفلسفة المادية ـ كأي مذهب فلسفي حديث آخر ـ أن تقدم تفسيرا لنوعين من الظواهر : ظواهر الطبيعة من ناحية ، وظواهر تطور البشرية التاريخي من الناحية الاخرى · وكانت للفلاسفة الماديين في القرن الثامن عشر ـ أو على الاقل لاولئك الذين يقفون على مقربة من لوك ـ فلسفتهم عن التاريخ بقدر ما كانت لهم فلسفتهم عن الطبيعة · وما على المرء كيما يرى ذلك الا أن يقرأ كتاباتهم بقدر من الانتباه · ومن هنا فقد كان على مؤرخي الفلسفة بالتأكيد أن يعرضوا أفكار الماديين الفرنسيين عنالتاريخ ويخضعوها للنقد كما فعلوا بفهمهم للطبيعة · غير ان هذه المهمة لم تنجز، وهكذا مثلا فحين يتحدث مؤرخو الفلسفة عن هولباخ فانهم لا يهتمون عادة الا بكتابه «نظام الطبيعة»، ولا يبحثون في هذا الكتاب الا عما له صلة بفلسفة الطبيعة **والاخلاق** · انهم يجهلون أفكار هولباخ التاريخية المبعثرة بوفرة في كل انحاء « نظام الطبيعة » وغيره من مؤلفاته · ومن هنا فليس مما يثير الدهشة ألا تكون لدى الجمهور عموما أدنى فكرة عن هذه الافكار ، وأن يكون لديه انطباع غير كامل وزائف تماما عن هولباخ · فاذا أخذنا في اعتبارنا كذلك أن أخلاق الماديين الفرنسيين قد أسيء تفسيرها على الدوام، فلا بد أن نعترف بأن كثيرا من تاريخ المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر في حاجة الىتعديل·

وينبغي أن نذكر كذلك أن هذه المعالجة التي أشرنا اليها لا توجد فحسب في الدروس العامة عن تاريخ الفلسفة بل كذلك في الكتابات المتخصصة عن تاريخ المادية (وهي بالمناسبة ما زالت قليلة العدد) · والامثلة على ذلك مؤلف فريدريك البيرت لانج الكلاسيكي، وكتاب الفرنسي جولي ـ اوغوست سوري ·

وأما عن ماركس فيكفي أن نقول انه لا مؤرخي الفلسفة عموما ولا مؤرخي المادية بوجه خاص قد حملوا أنفسهم مؤونة الاشارة الى فهمة المادي للتاريخ ·

واذا التوت عصا ما فان التشويه يمكن أن يصلح بثنيها في الاتجاه المضاد · وتلك هي الطريقة التي أجبرت على أن أعمل بها في هذه «الابحاث» : لقد كان علي في المقام الاول أن أعرض الافكار التاريخية للمفكر الذي أتناوله ·

ومن وجهة نظر المدرسة الفكرية التي أتشرف بالانتماء اليها

«**ليس المثالي سوى العـــالم المادي وقد عكســـه الذهن الانساني ، وترجمه في أشكال الفكر** » · وكل من يود أن ينظر الى تاريخ الافكار من هذه الزاوية لا بد أن يحاول تفسير كيف وبأية طريقة تولدت أفكار أية فترة عن ظروفهـــا الاجتماعية ، أي في النهـــاية عن العلاقات الاقتصادية · وتقديم مثل هذا التفسير مهمـــة واسعة نبيلة سيحول انجازها تاريخ **الايديولوجيات** كلية · وقد حاولت في هذه «الابحاث» أن اقترب من انجاز هذه المهمة · غير أنني لم أتمكن من أن أوليهـــا الاهتمام الكافي ، وذلك لسبب بسيط للغاية : فقبـــل أن نجيب على السؤال القائل **لماذا** سار تطور الافكار في طريق محدد لا بد أن نعرف أولا **كيف** حدث هذا التطور · ويعني هذا ـ فيما يتعلق بموضوع هذه «الابحاث» أن تفسير **لماذا تطورت الفلسفة المـــادية في الطريق** الذي سارت به مع هولباخ وهلفيسيوس في القرن الثامن عشر ، ومـــع ماركس في القرن التاسع عشر ، ليس ممكنا الا بعد أن نبين بوضوح **ماذا كانت هذه الفلسفة في الواقع**، فقد أسيء فهمها كثيرا بل شوهت تماما · **فلا بد من تطهير الارض قبل أن يبدأ البناء ·**

وبضع كلمـــات أخرى · قد يشعـــر القاريء أنني لم اتناول بالاستفاضة الكافية نظرية المعرفـــة لدى هؤلاء المفكرين · وأستطيع أن أعترض على ذلك بأنني بذلت كل ما أستطيع كـــي اعرض أفكارهم في هذا الصدد بدقة· ولكن لم أكن أعد نفسي من بين أنصار مدرسية نظرية المعرفة الرائجة اليوم فانني لم أعتزم أن اتناول بالتفصيل هذه المسألة الثانوية تماما ·

ج· بليخانوف ·

جنيف أول يناير ١٨٩٦·

١ — هولباخ

سنتحدث عن واحد من الماديين ٠٠٠
ولكن أولا : ماذا نعني بالمادية ؟
فلنرجع الى أكبر الماديين المحدثين :

« ان المسألة الرئيسية في كل فلسفة ، وبخاصة الفلسفة الحديثة، هي مسألة العلاقة بين الفكر والوجود » ، هكذا يقول فريدريك انجلز في كتيبه الرائع «لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» (شتوتغارت ١٨٨٨) ٠

« غير ان المسألة لم يكن يمكن أن تطرح بكل حدتها، وأن تكتسب كل دلالتها، الا بعد أن استيقظ المجتمع الاوروبي من مبيته الشتوي الطويل في العصور الوسطى المسيحية ٠ فمسألة وضع الفكر بالنسبة للوجود، وهي ـ بالمناسبة ـ مسألة لعبت دورا كبيرا أيضا في مدرسية العصور الوسطى ، مسألة معرفة أي العنصرين هو الاولي ، الروح أم الطبيعة ـ هذه المسألة قد اتخذت ـ بالنسبة للكنيسة ـ الشكل الحاد : هل خلق الله العالم أم أنه موجود منذ الازل ؟

وينقسم الفلاسفة حسب اجابتهم بهذه الطريقة او تلك على هذا السؤال الى معسكرين كبيرين ، فأولئك الذين يؤكدون الطابع الاولي للروح بالنسبة للطبيعة ، ويفترضون بالتالي ـ في نهاية الامر ـ خلق العالم بشكل أو آخر ٠٠٠ أولئك يشكلون معسكر المثالية ، أما الاخرون الذين يعتبرون الطبيعة العنصر الاول فينتمون الى مختلف مدارس المادية » (١) ٠

---

(١) انجلز « لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » ٠

وقد كان من الممكن لهولباخ أن يتقبل عن طيب خاطر هـــــذا التعريف للمادية ، فهو نفسه لم يقل شيئا آخر · فما نسميه الحيـاة الذهنية للحيوانات ليس لديـــه سوى ظاهرة طبيعية ، وهو يرى أنه ليس ثمة حاجة لان نمضي الى خارج حدود الطبيعة كـي نبحث عن حل للمشكلات التي تطرحها علينا (٢) · وهــذا أمر بسيط للغاية ، وبعيد تماما عن المزاعم الدوغماطيقية التي كثيـرا ما تنسب ــ وعن غير حق ــ الى الماديين · صحيح أن هولباخ لم يكن يرى في الطبيعة الا المادة أو **أنواع المواد** ، والحركة أو **الحركات** (٣) · وكـانت هذه هي النقطة التيحاول فيها النقاد ــ وعلى سبيل المثال ف·داميرون ــ أن يفحموا مادينا · لقد نسبوا اليه تصورهم عن المــادة ، وانطلاقا من هذا التصور حاولوا أن يثبتوا في هيئة المنتصر أن المادة وحدها لا تكفي لتفسير كل ظواهر الطبيعة (٤) ·

انها لعبة سهلة ، لكنها خالية من الاصالة · فالنقاد من هــــذا الطراز لا يفهمون ــ أو يدعون أنهم لا يفهمون ــ أن أحـــدا قد يكون لديه تصورا آخر للمادة غير تصورهم ، يقول هولباخ :

---

(٢) انظر «الحس السليم المستمــــد من الطبيعة» تتبعه وصية الاب ميسلييه ــ باريس ــ العام الاول للجمهورية ــ المجلد الاول ــ ص ١٧٥ ·

(٣) «فالطبيعة بمعناها الاكثر اتساعا هي كـل كبير ينشأ عن تجمع مختلف المواد ، عن مختلف تركيباتها ومختلف حركاتها التي نراها في الوجود » («نظام الطبيعة أو قوانين العالم الفيزيائي والعالم الادبي» ــ لندن ١٧٨١ ــ المجلد الاول ص ٣) · وكـــان هولباخ أيضا يعتـــرف بالعناصر الاساسية الاربعة التي اعترفت بها من قبله الفلسفة القديمة وهي : الهواء والنار والتراب والماء ·

(٤) وهكذا فالمادة عند داميرون لا يمكن أن تمتلـــك ملكة التفكير ــ لماذا ؟ «لان المادة لا تفكر ، ولا تعرف ، ولا تتصـرف» (« مذكرات عن تاريخ الفلسفة في القرن الثامن عشر ــ باريس ١٨٥٨ ــ ص ٤٠٩) ·

أي منطق رائع هذا! وبالمناسبة فقد ارتكب فولتير وروسونفس الخطأ في صراعهما ضد الماديين · فقد أكد فولتير مثلا ان « كـل مادة فعالة تكشف عن ماهيتها غير المادية التي تعمـــل عليها » أما روسو فالمادة لديه «ميتة» وهو لم يكن يستطيع أبدا أن « يتصور جزيئا حيا » ·

« فاذا كنا نعني بالطبيعة ركاما من جواهر ميتــة ، ليست لها أي صفات ، وسلبية تماما ، فسنجد أنفسنا بالطبـع مجبرين على البحث خارج هذه الطبيعة ، عن مبدأ حركاتها٠ أما اذا كنا نعني بالطبيعة ما هي عليه حقا ـ كل ، لاجزائه المختلفة صفاتها المختلفة ، وتعمل وفقـا لهذه الصفات المختلفة ، وتمر بفعل ورد فعل دائم فيما بينها ، ولهــا ثقل ، وتنجذب نحو مركز مشترك في حين تبتعد اجزاء اخــرى نحو الاطراف ، وتتجاذب وتتنافر ، وتتحد وتتفرق ، وتصطدم وتتقارب على الدوام ، وتنتج وتحلل كل الاجسام التي نراها ـ عندئذ فلن يستطيـع شيء أن يدفعنا الى اللجوء الى قوى فوق الطبيعــة لكي نفسر تشكل الاشياء والظواهر التي نراها » (٥) ٠

وكان لوك قد رأى من قبل أن المادة يمكن أن تتسم بملكة التفكير٠ وبالنسبة لهولبــاخ كان هذا احتمــالا أرجح « حتى في الافتراض اللاهوتي ، أي مع افتراض محــرك قادر للمادة » (٦) ٠ والحق أن استخلاص هولباخ بسيط للغاية ومقنع تماما :

« فما دام الانسان ـ الذي هو مادة ، والذي ليست له افكار الا عن المادة ـ يتمتع بملكة التفكير ، فان المادة يمكن ان تفكـر ، او هي قابلة لذلك التحوير الخاص الذي نسميه تفكيرا » (٧) ٠

فعلام يعتمد هذا التحوير؟ هنا يطرح هولباخ افتراضين يبدوان له محتملين ٠

فمن الممكن أن نفترض أن حساسية المادة « هي نتيجة تنظيم ، ترتيب ، متأصل في الحيوان، بحيث أن المادة الميتة الساكنة تكف عن أن تكون ميتة ، وتصبح قــادرة على الحس حين « تتسم بالحيوانية » أي حين تتحد مع الحيوان وتتطابق معه» ٠ أفلا نرى كل يوم أن اللبن والخبز والنبيذ تتحول الى جوهر الانسان ، وهو كائن يتمتع بالحس؟ ان هذه الجواهر الميتة تصبح اذن ذات حس حين تتحــد مع كائن

---

(٥) «نظام الطبيعة» الجزء الاول ـ ص ٢١ ـ والاقتباس مأخوذ عن طبعة ١٧٨١ ٠

(٦) « الادراك السليم » ـ الجزء الاول ـ ص ١٧٦ ٠

(٧) « نظام الطبيعة » الجزء الاول ـ ص ٨١ ـ هامش رقم ٢٦ ٠

يتمتع بالحس . وأما الافتراض الاخر فهو ذلــك الذي عرضه ديدرو في « **حديث مع دالمبيرت** » :

« يرى بعض الفلاسفة أن الحساسية صفة كلية للمادة . وفي هــذه الحالة سيكون من العبث أن نبحث عن مصدر هذه الصفة التي نعرفها بآثارها. فاذا ما سلم المرء بهذه الفرضية فانه بنفس الطريقة التي يميز بها في الطبيعة بين نوعين من الحركة ـ احداهما تعـــرف باسم القوة الحية والاخرى تعـــرف باسم القوة الميتة ـ سيميـــز بين نوعين من الحساسية احداهما فعالة أو حية والاخرى ساكنة أو ميتــة . وعندئذ فان اضفاء الحيوانية على جوهر ما لن يعني سوى ازالة العقبات التي تمنعه من أن يكون فعالا ذا حس » .

وأيا كان الامر ، وأيا كان الافتراض الذي نقبله عن الحساسية فان « ذلك الكيان غيـــر ذي الامتداد ـ الذي يفتـــرض أنه الروح الانساني ـ لا يمكن أن يكون هو فاعلها » (٨) .

وقد يقول القارىء انه لا هذا الفرض ولا ذاك يتسم بالوضوح الكافي ، ونحن نعرف ذلك جيدا ، ولم يكن هولباخ أقل علما به منا . فهذه الخاصية للمـــادة التي نسميها حساسية لغز يصعب حله . ويقول هولباخ « لكن أبسط حركـات أجسادنا هي ـ بالنسبة لكل من يتأملها ـ ألغاز يصعب حلها كالتفكير » (٩) .

وخلال مناقشة مع ليسينج قال جاكوبي ذات مــرة : « انني لا أقلل من شأن اسبينوزا، لكنه خلاص ضئيل ذلك الذي نجده باسمه». فأجابه ليسينج : « نعم ، اذا شئت !... ولكن ... أتعــرف شيئا أفضل ؟ » (١٠) .

---

(٨) « نظام الطبيعة » ـ الجزء الاول ص ٩٠ـ٩١ . وكــان لاميتري أيضا يعتبر كلتا الفرضيتين على نفس القدر من الاحتمال . وقد كان لانج على **خطأ تماما** حين نسب له رأيا مختلفا . ونستطيع أن نرى ذلك اذا قرأنا الفصل السادس من «بحث عن الروح» . بل ان لاميتري يعتقد أن «الفلاسفة في كل القرون» (باستثناء الديكارتيين بالطبع) قـــد «اعترفوا بأن للمادة ملكة الحس» (انظر « المؤلفـــات » ـ امستردام ١٧٦٤ ـ الجزء الاول من ص ٩٧ـ١٠٠) .

(٩) « الحس السليم » ـ الجزء الاول ـ ص ١٧٧ .

(١٠) «مؤلفات جاكوبي» ـ الجزء الرابع ـ ص ٥٤ .

ويستطيع الماديون أن يجيبوا على كل مآخذ خصومهم بنفس الطريقة : « أتعرفون شيئا أفضل ؟ » ٠ فأين يمكن البحث عن شيء أفضل ؟ أفي مثالية بيركلي الذاتية ؟ أم في مثالية هيجل المطلقة ؟ أم في اللاأدرية أو الكانطية الجديدة المعاصرة ؟

ويؤكد لانج أن «المادية تأخذ بعناد عالم المظاهر الحسية على أنه العالم الواقعي » (١١) ٠

ولقد قال هذه الملاحظة بشأن جدال هولباخ ضد بيركلي ، وهي توحي بأن هولباخ كان يجهل كثيرا من الاشياء البسيطة للغاية ٠ ولقد كان بوسع فيلسوفنا أن يرد على ذلك بنفسه قائلا :

« اننا لا نعرف عناصر الجسم ، لكننا نعرف بعض صفاتها أو الطبيعة الخاصة به ، فنحن لا نعرف المادة الا من خلال الادراكات ، الاحساسات ، والافكار التي تولدها لدينا ،وبعد هذا فحسب نحكم على ما اذا كانت حسنة أو سيئة بما يتفق مع تركيب أجهزتنا » (١٢) ٠

« ونحن لا نعرف ماهية المادة ولا طبيعتها الحقة ، وان كان في وسعنا ان نعرف بعض خواصها وصفاتها حسب الطريقة التي تؤثر بها علينا » (١٣) ٠

« اننا لا نعرف عناصر الجسم ، لكننا نعرف بعض صفاتها أو خواصها ، ونميز بين مختلف جواهرها حسب التأثيرات أو التغييرات التي تحدثها في حواسنا ، أي عن طريق مختلف التغييرات التي تولدها لدينا » (١٤) ٠

غريب ٠٠٠ أليس كذلك ؟ ان عجوزنا هولباخ يتحدث هنا وكأنه أحد انصار نظرية المعرفة المعاصرين ٠ فكيف لم يستطع لانج ان يتعرف فيه على زميل في الفلسفة ؟

---

(١١) « تاريخ المادية » الطبعة الثانية ـ ايزيرلوهن ـ ١٨٧٣ ـ المجلد الاول ـ ص ٣٧٨ ٠

(١٢) « نظام الطبيعة » ـ المجلد الثاني ـ ص ٩١ـ٩٢ ٠

(١٣) المصدر السابق ـ ص ١١٦ ٠

(١٤) المصدر السابق ـ ص ١٢٨ ٠

ان لانج يرجع الى كانط كل المذاهب الفلسفية ، تماما كما كان مالبرانش يرى كل شيء في الله · وهو لم يستطع أن يتصور أنه قبل صدور «**نقد العقل الخالص**» وجد أناس ـ وحتى بين الماديين ـ يعرفون حقائق معينة ، هي في واقع الامر ضئيلة عقيمة لكنها تبدو له أعظم اكتشافات الفلسفة المعاصرة · لقد قرأ هولباخ بعين متحيزة ·

لكن هذا ليس كل شيء · فثمة فارق هائل بين هولباخ ولانج · « **فالشيء في ذاته** » عند لانج ـ كما هو عند الكانطيين ـ غير قابل للمعرفة تماما ، أما عند هولباخ ـ كما هو عند كل الماديين ـ فان عقلنا ، أي علمنا ، قادر تماما على ان يكتشف **على الاقل بعض صفات** «الشيء في ذاته» وفي هذه النقطة أيضا لم يكن مؤلف «**نظام الطبيعة**» على خطأ ·

فلنطرح المثال التالي : اننا نبني خطا للسكك الحديدية، ويعني هذا ـ باللغة الكانطية ـ أننا نخلق **ظاهرة ما** · ولكن ما هي الظاهرة؟ انها نتاج لتأثير يمارسه « الشيء في ذاته » **علينا** · وهكذا فنحن حين نبني خطا للسكك الحديدية نجبر « الشيء في ذاته » على أن يؤثر علينا بطريقة معينة نريدها **نحن**·ولكن ما الذي يوفر لنا الوسيلة لان نتصرف بهذه الطريقة على« الشيء في ذاته» ؟ معرفة صفاته··· ولا شيء آخر غير هذه المعرفة·ولقد كان من حسن حظنا أننا نستطيع أن نكتسب معرفة دقيقة الى حد كاف عن « الشيء في ذاته » والا لما استطعنا أن نوجد في هذا العالم ، ولحرمنا على الارجح من متعة الانغماس في الميتافيزيقا ·

ويؤكد الكانطيون بقوة أن «الشيء في ذاته» غير قابل للمعرفة· وعدم امكانية المعرفة هذه ـ في رأيهم ـ توفر للامب ولكل السوقيين الطيبين الحق المقدس في أن يكون لهم الههم «الشاعري» أو «المثالي» بدرجة أو بأخرى (١٥) · أما هولباخ فانه يفكر بطريقة مختلفة · انه يقول :

---

(١٥) الاشارة الى لامب خادم كانط · وكان في ذهن بليخانوف هنا نقد هايني الساخر للتناقضات في نظرية كانط · فقد قال هايني ساخرا ان كانط بعد ان فند امكانية اثبات وجود الله في كتابه « نقد العقل الخالص » أراد أن يعيد البهجة الى قلب لامب التعس فعاد ليثبت وجود الله في كتابه « نقد العقل العملي » ·

« انهم يرددون لنا دون توقف أن حواسنا لا تبين لنا سوى **مظهر** الاشياء ، وأن عقولنا المحدودة لا تستطيع ان تتصور الها • فلنسلم بذلك ، ولكن هذه الحواس لا تبين لنا حتى **مظهر** الاله ••• وبحكم طريقة تكويننا فان ما ليست لدينا فكرة عنه لا يوجد بالنسبة لنا » (١٦) •

ولا شك أن وجه الضعف في المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر – وبشكل عام في كل مادية ما قبل ماركس – هو الغياب شبه الكامل لاية فكرة عن التطور• صحيح أن أناسا مثل ديدرو قد وصلوا أحيانا الى افتراضات عبقرية يمكن أن يعتز بها أشهر التطوريين المحدثين، لكن مثل هذه اللمحات بعيدة النظر لا ترتبط بجوهر مذهبهم ذاته، انها ليست سوى استثناء، وهي بهذه الصفة انما تؤكد القاعدة العامة • وسواء كان «الفلاسفة» يتناولون الطبيعة أو الاخلاق أو التاريخ فقد كانوا يعالجون المشكلة بنفس غيبة المنهج الجدلي ، منطلقين من نفس الزاوية الميتافيزيقية • ومن الشيق أن نرى كم جهد

---

(١٦) « نظام الطبيعة » – المجلد الثاني – ص ١٠٩–١١٣ • وقد قال فيورباخ نفس الشيء • فنقده للدين يحوي بشكل عام كثيرا مما يماثل نقد هولباخ• أما عن تحويل «الشيء في ذاته» الى اله فان مما يستحق الذكر أن آباء الكنيسة قد عرفوا الههم بنفس الطريقة التي يعرف بها الكانطيون « الشيء في ذاته » لديهم • وهكذا فالله – عند سان أوجوستين – لا يدخل في أي المقولات :

« Ut sic intelligamus Deum, si possumus, quantanipassumus , sine qualitate bonum , sine quantitate magnum, sine indégintia creatorem, sine situ procsidentum,sine loco ubique totum, sine tempore sempitérnum »

(فلنتصور الله هكذا ، اذا استطعنا ، وبقدر ما نستطيع : خير دون صفة ، كبير دون مقدار ، خالق دون ضرورة ، متربع دون عرش ، شامل الحضور دون مكان ، أبدي دون زمان» (أنظر اوبيرفيج «مباديء تاريخ الفلسفة» – برلين – ١٨٨١ – المجلد الثاني) • ونحيل الى هيغل القراء الذين يريدون أن يعرفوا كل تناقضات «الشيء في ذاته» •

هولباخ ليجد فرضا مقبولا عن نشأة كوكبنا ونوعنا ٠ ان مشكلات حلها العلم الطبيعي التطوري اليوم حلا قاطعا كانت تبدو مستحيلة الحل أمام فلاسفة القرن الثامن عشر (١٧) ٠

لم تكن الارض دائما على ما هي عليه الان ٠ فهل تشكلت اذن بالتدريج في عملية تطور طويلة ؟ كلا ، **فربما** كان الامر كما يلي :

« ربما كانت الارض كتلة انفصلت في لحظة ما من جرم سماوي آخر٠ أو ربما كانت نتيجة » (!) « البقع أو القشور التي يلاحظها علماء الفلك في قرص الشمس ، والتي يمكن أن تكون قد امتدت من هناك الى مجموعتنا الشمسية ٠ وربما كان هذا الكوكب نيزكا خمد وانتقل وكان في وقت ما يشغل مكانا آخر في مناطق الفضاء » (١٨) ٠

وربما كان الفارق بين الانسان البدائي والانسان الحالي أكبر منه بين الزواحف والحشرات ، ونستطيع أن نتصور الانسان ــ وكل ما يوجد على كوكبنا وعلى كل الاجرام السماوية الاخرى ــ في عملية تغير دائم ، « وهكذا فليس ثمة تناقض في الاعتقاد بأن الانواع تتغير دون توقف » (١٩) ٠

وتلك رنة تطورية تماما ٠ غير أن علينا ألا ننسى أن هولباخ قد اعتبر هذا الفرض مقبولا بشرط « **التغيرات في مركز كوكبنا** » ، وكل من لا يتقبل هذا الشرط يمكن أن يعتبر الانسان « **نتاجا فجائيا للطبيعة** » ٠ ولا يتمسك هولباخ بثبات بفرض تطور الانواع :

« ولو رفض احد الفروض السابقة ، وأكد أن الطبيعة تعمل وفق مجموعة معينة من القوانين العامة التي لا تتغير ، واعتقد ان الانسان والحيوان ذا الاربع والسمكة والحشرة والنبات الخ ٠٠ قد وجدت منذ

---

(١٧) من الامور الغريبة حقا أن ديدرو يعجب **بمذهب هيراقليطس الاخلاقي** ، لكنه لا يقول شيئا عن جدله ، أو ــ اذا فضلت التعبير ــ لا يقول سوى بضع كلمات غير ذات مغزى وهو يدرس **فيزياءه** (مؤلفات ديدرو ــ باريس ١٨١٨ ــ المجلد الثاني ــ ص ٦٢٥ ــ ٦٢٦ ــ (الانسكلوبيديا) ٠

(١٨) « نظام الطبيعة » ــ المجلد الاول ــ ص ٧٠ ٠

(١٩) االمصدر السابق ــ ص ٧٣ ٠

بداية الزمان وستظل الى الابد على ما هي عليه ، وافترض ان النجوم قد ظلت تلمع في قبة السماء منذ الابد » (واذن فان «مجموعة معينة من القوانين العامة التي لا تتغير » تستبعد بالتالي التطور !) ، وقال انه لا ينبغي لاحد أن يسأل لماذا كان الانسان على ما هو عليه الا بقدر ما يستطيع أن يسأل لماذا كانت الطبيعة على ما نراها عليه، أو لماذا يوجد العالم ـ فلن نعترض على هذا كله · فأيا كان المذهب الذي يعتنقه المرء فربما أجاب بنفس الدرجة على المصاعب التي تحيره ··· فليس مقدرا للانسان أن يعرف كل شيء ، ليس مقدرا له أن يعرف أصله ، ليس مقدرا له أن ينفذ الى ماهية الاشياء او يصل الى المبادىء الاولى » (٢٠) ·

ويبدو هذا كله لنا اليوم أمرا لا يكاد يصدق · غير أن على المرء ألا ينسى تاريخ العلوم الطبيعية ، وأن يذكر أنه بعد وقت طويل من صدور «نظام الطبيعة» كان العالم الكبير كوفييه لا يزال يحارب بعنف كل فكرة تطورية في العلوم الطبيعية ·

ولنتحدث الان عن فلسفة هولباخ الاخلاقية ·

يقول شارلز باليسو ـ وهو كاتب نسي تماما اليوم لكنه عرف نجاحا كبيرا في القرن الماضي ـ على لسان شخصية (فالير) في احدى مسرحياته الكوميدية ·

Du globe ou nous vivons despote universel , il n'est qu'un seul ressort, l'intérêt personnel. (٢١)

وترد عليه شخصية أخرى (كارونداس)

J'avais quelque regret à bramper cydalise mais je

---

(٢٠) « نظام الطبيعة » ـ االمصدر السابق ـ ص ٧٥ · وكان هولباخ يعد أيضا من المشكلات التي ليس حلها في متناول الانسان مسألة : «أيهما سبق الاخر : هل سبقت الدجاجة البيضة أم سبقت البيضة الدجاجة ؟» · وهذا تحذير للباحثين الذين يريدون الخروج عن الحدود التي لا يمكن للعلم أن يتخطاها ·

(٢١) فالحاكم المطلق في العالم الذي نعيش فيه ، والمحرك الوحيد لكل شيء هو ، المصلحة الشخصية ـ المترجم ·

vois clairement que la chose est permise (٢٢)

بهذه الطريقة حاول باليسو أن يسخر من أفكار الفلاسفة · «**المهم أن تحقق السعادة ، وليس مهما كيف**» ــ هذا القول المأثور على لسان فالير يعبر عن رأي باليسو في أخلاق «الفلاسفة» · ولم يكن باليسو سوى «**كاتب تعس**» · ولكن هل كثيرون ممن كتبوا لنا تاريخا للفلسفة يعطونا حكما آخر على الاخلاق المادية في القرن الثامن عشر ؟ لقد اعتبرت هذه الاخلاق ــ من جانب الجميع تقريبا ــ شيئا **جارحا** ، مذهبا غير جدير بباحث موقر أو فيلسوف يحترم نفسه · واعتبر رجال مثل لامتيري وهولباخ وهلفيسيوس سوفسطائيين خطرين لا يدعون الا الى المتعة الحسية والانانية (٢٣) ·

غير أن أيا من هؤلاء لم يدع الى شيء من هذا القبيل· ويكفي أن نقرأ كتبهم ولو بقدر قليل من الاهتمام حتى نقتنع بذلك تماما ·

« أن تفعل الخير ، أن تسهم في سعادة الاخرين ، أن تمد لهم يد المساعدة ، تلك هي الفضيلة · فلا يمكن أن يكون فاصلا الا ما يفضي الى خير المجتمع وسعادته وأمنه » · «وأولى الفضائل الاجتماعية هي **الانسانية** ، انها خلاصة كل الفضائل الاخرى ، وهي اذا أخذت بأوسع معانيها تلك العاطفة التي تعطي لكل كائنات نوعنا حقوقا على قلبنا · انها تستند الى حساسية مرهفة ، تدفعنا الى أن نفعل كل ما نستطيع من خير ، وهي تؤدي الى الحب وفعل الخير والسخاء والتسامح والشفقة على اخوتنا من البشر » (٢٤) ·

فمن أين انبعث اذن هذا الاتهام الذي لا يقوم على اساس ؟

(٢٢) اني أشعر ببعض الاسف اذ أخون سيداليز ·
لكنني أرى بوضوح أنه أمر مسموح به · ــ المترجم ·

(٢٣) « ان لاميتري وهلفيسيوس هما سوفسطائيا الاخلاق المادية » (هيتنر « التاريخ الادبي للقرن الثامن عشر » ــ برونزويك ١٨٨١ ــ المجلد الثاني ــ ص ٣٨٨) · « وأخطر ما في المادية هو أنها تطلق العنان لاحط غرائز الانسان ، وللدناءة التي خلق منها ، وتغذيها وتشجعها » (فريتز شولتز « الافكار الاساسية للمادية ونقدها » ــ ليبزيج ــ ١٨٨٧ ــ ص ٥٠) ·

(٢٤) « السياسة الطبيعية أو أحاديث عن المبادىء الحقة للحكومة » بقلم احد القضاة (هولباخ) ١٧٧٣ ــ ص ٤٥ــ٤٦ ·

وكيف وجد آذانا صاغية لدى الجميع تقريبا ؟

في المقام الاول يمكن أن يلقي اللوم على **الجهل**. انهم يتحدثون كثيرا عن الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر لكنهم لا يقرأونهم. ولهذا فلا يكاد يثير دهشتنا أن يواصل التحيز البقاء حالما يضرب بجذوره .

ولهذا التحيز ذاته مصدران ، كلاهما متوفر .

لقد كانت الفلسفة المادية في القرن الثامن عشر فلسفة ثورية. انها لم تكن سوى التعبير الايديولوجي عن صراع البورجوازية الثورية ضد الكهنة والنبلاء والملكية المطلقة . وغني عن البيان أن البورجوازية في صراعها ضد نظام بائد لم يكن يمكن أن تحترم نظرة الى العالم موروثة عن الماضي وتقدس هذا النظام البغيض . « زمن آخر ، ظروف أخرى ، فلسفة أخرى » كما عبر ديدرو تعبيرا رائعا في مقاله عن هوبز في «**الانسكلوبيديا**» . ففلاسفة الازمنة القديمة الذين حاولوا أن يعيشوا في سلام مع الكنيسة لم يكن لديهم اعتراض على أخلاق تقول انها صادرة عن دين الوحي. أما فلاسفة الازمنة الحديثة فكانوا يريدون أخلاقا متحررة من كل تحالف مع «**الخرافة**» .

« فما من شيء يضر بالاخلاق الانسانية أكثر من ربطها بالاخلاق الالهية . فحين تربط اخلاقا عقلانية تقوم على العقل والخبرة بدين صوفي يعارض العقل ويستند الى الخيال والسلطة فاننا انما نشوش الاولى ونضعفها بل ندمرها » (٢٥) .

ولم يكن يمكن لهذا الفصل بين الاخلاق والدين أن يكون على هوى الجميع ، وهو وحده كان بالفعل سببا في القدح في اخلاق الماديين . لكن هذا ليس كل شيء . «فالاخلاق الدينية» تدعو الى

---

(٢٥) « النظام الاجتماعي او المباديء الطبيعية للاخلاق والسياسة، مع دراسة عن تأثير الحكومة على الاخلاق » بقلم مؤلف « نظام الطبيعة » لندن ١٧٧٣ ــ المجلد الاول ــ ص ٣٦ . قارن مقدمة «الاخلاق الكلية» لنفس المؤلف : «اننا لن نتحدث هنا عن الاخلاق الدينية التي لا تعترف بحقوق العقل ، لانها تستهدف قيادة الناس في طرق فوق الطبيعة » .

الخضوع واماتة الجسد وخنق العواطف ٠ وهي تعد من يعانون على هذه الارض بالجزاء في الحياة المقبلة ، أما الاخلاق الجديدة فتعيد الاعتبار للجسد، وتعطي العواطف كل حقوقها (٢٦)، وتجعل المجتمع مسؤولا عن تعاسة افراده (٢٧)٠ لقد كانت تريد ـ كما أراد هايني ـ «**أن تقيم مملكة السماء هنا على الارض**» (٢٨) ٠ وهنا يكمن جانبها الثوري ، ولكن هنا أيضا تكمن خطيئتها في نظر أنصار النظام الاجتماعي القائم حينئذ ٠

ويذكر جريم في «المراسلات الادبية»(٢٩) أنه بعد صدور كتاب

(٢٦) « فالعواطف هي التي توازن العواطف ٠ فدعونا لا نسعى الى تدميرها بل نعمل على توجيهها ، دعونا نوازن العواطف الضارة بالمجتمع بالعواطف المفيدة له ٠ فالعقل ـ ثمرة الخبرة ـ ليس سوى فن اختيار العواطف التي ينبغي أن نصغي لها من أجل سعادتنا » (« نظام الطبيعة » ـ المجلد الاول ـ ص ٣٠٤) ٠

(٢٧) « فدعوهم لا يقولون لنا أن أية حكومة لا يمكن أن تجعل كل رعاياها سعداء ٠ ولا شك أنها لا تستطيع أن ترضي نزوات قلة من المواطنين الكسالى لا تعرف ماذا تبتدع لتبدد ضيقها ، لكنها تستطيع وينبغي عليها أن تعمل على اشباع الاحتياجات الحقيقية للكثرة ٠ فالمجتمع يتمتع بكل ما يمكن من سعادة حين يتمكن العدد الاكبر من أفراده من أن يأكلوا ويلبسوا ويسكنوا ـ وبكلمة واحدة حين يتمكنوا ـ دون عمل مفرط ـ من أن يشبعوا الحاجات التي جعلتها الطبيعة ضرورية لهم ٠٠٠ ونتيجة للحماقات الانسانية تجبر أمم بأسرها على أن تكدح وتعرق وتروي الارض بدموعها لكي تجلب الترف والنزوات والفساد لعدد قليل من الحمقى ، لحفنة من التافهين ، أصبحت سعادتهم مستحيلة لان خيالهم الجامح لا يعرف حدودا » (المصدر السابق ـ ص ٢٩٨) ٠

(٢٨) هانيريك هايني «Deutschland. Ein winter Mãrchen» (المانيا ٠٠٠ أقصوصة شتاء ـ المترجم) ٠

(٢٩) «المراسلات الفلسفية والادبية والنقدية» ـ صحيفة كانت تصدر في باريس من ١٧٥٣ الى ١٧٩٢ في شكل مخطوطات (١٥ أو ١٦ نسخة) ، وكان يصدرها فريدريك جريم أحد الانسكلوبيديين البارزين ويرسلها الى الشخصيات البارزة في ذلك الحين ٠ وقد جمعت اعدادها في كتاب في عام ١٨١٢ ـ المترجم ٠

هلفيسيوس «عن الروح» انتشرت في باريس قصيدة ساخرة تعبر عن مخاوف «المهذبين» وتقول :

« Admirez tous cet autour - là qui « de l'esprit » intitula un livre qui n'est que matiere (30)

والحق أن كل الاخلاق المادية لم تكن سوى «**مادة**» عند اولئك الذين لم يفهموها ، وعند اولئك الذين فهموها جيـــدا لكنهم كانوا يفضلون أن «**يشربوا النبيذ سرا، ويعظون بشرب الماء علنا**» (٣١)٠

ويكفي هذا لكي نفسر كيف ولماذا ظلت الاخلاق المادية ـ حتى يومنا هذا ـ توقف شعر السوقيين في كل الامم «المتمدنية» ٠

غير أنه كان من بين خصوم الاخلاق المادية رجـال مثل فولتير وروسو ٠ فهل كانا ـ أيضا ـ من السوقيين ؟

لم يكن روسو **هنا** سوقيا ، وأما بطريرك فرنس (٣٢) فلا بـد من الاعتراف بأنه ساق في المناقشة جرعة كبيرة من السوقية ٠

حين يأتي الانسان الى العالم فانه لا يجلب معه سوى ملكـة **الحس** ، وانطلاقا من هذه الملكة تتطور كل الملكات المسماة بالملكـات **الفكرية** ٠ وبعض الانطباعات أو الاحساسات التي يتلقـاها الانسان من الاشياء تسره ، وبعضها الاخر يؤلمه ٠ وهو يقر بعضها ويريدها أن تستمر أو **تتجدد** ، ويرفض بعضها الاخر ويتجنبه قدر ما يستطيع، وبعبارة أخرى فان الانسان يحـب بعض الاحساسات والموضوعات التي سببتها ، ويكره بعض الانطباعات الاخرى وما أحدثها ٠ ولمـا كان الانسان يعيش في مجتمع فانه محاط بكائنات تشبهه ، تشعر بما يشعر به تماما ٠ وكل هذه الكائنات تسعى الى المتعة وتخشى الالم ، وهي تطلق **الخير** على كل ما يسبب لها المتعة ، **والشر** على ما يسبب لها الالم ، وكل ما له فائدة دائمة لهم يسمونه **فضيلة** ، وكل ما يسيء اليهم في تكوين من يحيطون بهم يسمونه **رذيلة** ٠ ومن يصنع طيبـا لزملائه **خير** ، ومن يسبب لهم الضرر **شرير** ٠ وينتج عن ذلـك ـ في المقام الاول ـ أن الانسان ليس بحاجة الى معونة الهية ليميز **الفضيلة**

(٣٠) فلتعجبوا جميعا بهذا المؤلف الذي سمي « عن الروح » كتابا ليس سوى مادة ـ المترجم ٠

(٣١) من قصيدة هايني سابقة الذكر ـ المترجم ٠

(٣٢) الاشارة الى فولتير ، وقد اشتقت هذه التسمية من اسم ضيعة قرب جنيف حيث قضى اكثر من عشرين عاما من حياته ـ المترجم ٠

عن **الرذيلة** ، وثانيا أنه لكي يكون الناس فاضلين فان أداء الفضيلة لا بد أن **يعطيهم متعة** ، أن يكون **ممتعا لهم** · فلو أن الرذيلة تجعل الناس سعداء فلا بد أنهم سيحبون الرذيلة· ولا يكون الانسان شريرا الا لان منمصلحته أن لا يكونكذلك·ونحن لا نلتقي بالكثير منالاشرار والخبثاء في هذا العالم الا لانه لا توجد حكومة تتيح لهم أن يجدوا النفع في العدالة والامانة وفعل الخير، بالعكس ان المصالح الراسخة في كل مكان تدفعهم نحو الظلم والشر والجريمة · «**وهكذا فليست الطبيعة هي التي تخلق الاشرار وانما مؤسساتنا هي التي تجعلهم اشرارا** » · (٣٣) ·

هذا هو الجانب الشكلي للاخلاق المادية الذي عرضناه بعبارات هولباخ ذاته تقريبا · وكثيرا ما كانت افكاره تفتقر الى الوضوح · وهكذا فان من تحصيل الحاصل أن يقول انه **لو أن الرذيلة تجعل الناس سعداء فلا بد أنهم سيحبون الرذيلة** ، فلو أن الرذيلة تجعل الناس سعداء فمعنى ذلك أنهم **يحبونها أصلا** · وكثيرا ما يؤدي هذا الافتقار الى التحديد لدى هولباخ الى نتائج غير موفقة · وهكذا نراه في مكان ما يقول «**ان المصلحة هي الدافع الوحيد للافعال الانسانية**» في حين يقدم في مكان آخر التعريف التالي :

« ونعني **بالمصلحة** الموضوع الذي يربط به كل انسان سعادته حسب مزاجه وأفكاره الخاصة ، وبعبارة أخرى ليست **المصلحة** الا ما يعتبره كل منا ضروريا لسعادته » (٣٤) ·

والتعريف واسع الى حد ان المرء لم يعد يستطيع أن يعرف فيم تختلف الاخلاق المادية عن الاخلاق الدينية (٣٥) · فأي نصير لهذه الاخيرة يستطيع أن يقول ان خصومه لم يفعلوا اكثر من ابتداع مصطلحات جديدة، وأنهم فضلوا أن يسموا أعمالا نابعة عنالمصلحة ما كان يسمي قبلهم **منزها عن المصلحة** · وأيا كان الامر فاننا

(٣٣) « نظام الطبيعة » ــ المجلد الاول ــ ص ٣٠٦ ·
(٣٤) المصدر السابق ــ ص ٢٦٨ ·
(٣٥) وهو ليس تعريفا أوسع مما يجب فحسب بل هو من قبيل تحصيل الحاصل حيث أنه لا يقول الا أن الانسان لا يريد الا ما يريده وقد لاحظ ذلك تورغو في تحليله لنظرية هلفيسيوس عن الاخلاق ·

نستطيع أن نفهم بسهولة ما كان هولباخ يعنيه بقوله انه لو ان الرذيلة تجعل الناس سعداء فلا بد أنهم سيحبون الرذيلة · انه يجعل المجتمع مسئولا عن رذائل افراده (٣٦) ·

ويرغي فولتير ويزبد ضد هولباخ زاعما أن هذا الاخير ينصح الناس بأن ينغمسوا في الرذيلة اذا كان ذلك في صالحهم · ويذكرنا هذا بالاب دي ليناك الذي ينسب الى أحد انصار الاخلاق الجديدة الرد على سؤال عما اذا كان عليه أن يحب مصلحة وطنه بقوله : بقدر ما يكون ذلك في مصلحتي · غير أن فولتير كان يعرف عن الموضوع أكثر مما يعرف دي ليناك : فقد كان يعرف لوك جيدا ، ولا بد أنه قد رأى أن الاخلاق المادية لم تكن تفعل أكثر من مواصلة عمل الفيلسوف الانجليزي · وهو نفسه قال عن الاخلاق في « بحث في الميتافيزيقا» أشياء أكثر جرأة مما قاله هولباخ · بيد أن البطريرك بدأ يشعر بالخوف ، لقد كان يخشى ان يصبح الناس – وقد تحولوا الى ملحدين ومن دعاة الاخلاق النفعية – أكثر قحة مما يجب · وهو يكتب الى مدام نيكر (٢٦ سبتمبر ١٧٧٠) قائلا « وبعد كل الاعتبارات فان عصر فيدرا وعدو البشر كان افضل » (٣٧) · ولا شك في ذلك ! فقد كان الناس حينئذ أكثر طوعا ·

والامر الاكثر فكاهة هو ان فولتير يواجه اخلاق هولباخ بالحجة التالية : « ان مجتمعنا لا يمكن ان يوجد دون فكرتي العدالة والظلم ، ولقد أوضح لنا (الله) الطريق للوصول اليهما ··· **وهكذا فان صالح المجتمع بالنسبة لكل الناس – من بكين الى ايرلندا – مستقر كقاعدة ثابتة للفضيلة** » ·

أي اكتشاف مذهل لفيلسوف ملحد !

أما استخلاصات روسو فكانت مختلفة : لقد كان يعتقد أن الاخلاق النفعية لا يمكن أن تفسر أكثر افعال الانسان اتساما

---

(٣٦) « في المجتمعات الفاسدة لا بد أن يكون المرء فاسدا حتى يصبح سعيدا » (نظام الطبيعة – المجلد الثاني – ص ٢٣٧) ·

(٣٧) الاشارة الى القرن السابع عشر ، عصر جان راسين مؤلف تراجيديا «فيدرا» (١٦٧٧) وموليير مؤلف « عدو البشر » (١٦٦٦) – المترجم ·

بالفضيلة· انه يتساءل « ما معنى ان يضحي الانسان بحياته من أجل مصلحته ؟ » ، ويضيف انها لبغيضة تلك الفلسفة التي تضع اعمال الفضيلة في مأزق لا مخرج لها منه الا بأن تنسب للأعمال الفاضلة نوايا دنيئة ودوافع غير فاضلة ، والتي « تجبر على الحط من سقراط والافتراء على ريجولوس » (٣٨) ·

ولكي نستطيع أن نفي هذا الاعتراض حقه ينبغي أن نطرح الاعتبارات التالية ·

لقد هب الماديون في صراعهم ضد «الاخلاق الدينية» كي يثبتوا في المقام الاول أن الناس قادرون على ان يعرفوا ما هي « الفضيلة » دون عون من السماء · ويصيح هولباخ :

« أفيحتاج الناس الى وحي فوق الطبيعة حتى يعرفوا أن العدالة ضرورية لبقاء المجتمع ، وأن الظلم انما يولد اعداء على استعداد لان يسيئوا الى بعضهم البعض ؟ أفينبغي أن يخاطبهم اله حتى يدركوا أن الكائنات التي تجمعت معا في حاجة الى أن تحب بعضها وتهب لنجدة بعضها ؟ أهم في حاجة الى معونة من السماء كي يكتشفوا أن الثأر شر،وانتهاك لقوانين بلادهم التي تقوم ـ اذا كانت عادلة ـ بالثأر للمواطنين ؟ ··· أفلا يدرك كل من يقدر حياته أن الرذيلة والافراط والمتعة الحسية تقصر أيامه ؟ وأخيرا أفلم تثبت الخبرة لكل كائن عاقل أن الجريمة موضع كراهية زملائه (اي زملاء المجرم ج· ب·) وأن الرذيلة تسيء الى من يرتكبونها ، والفضيلة تجلب التقدير والحب لمن يمارسونها ؟ فلو أن الناس فكروا قليلا فيما يفعلون ، وفي مصالحهم ، وفي الغاية من المجتمع ، فسيدركون واجبهم تجاه بعضهم البعض ··· **ان صوت العقل يكفينا لنعرف واجبنا تجاه اقراننا** » (٣٩) (التأكيد لنا) ·

---

(٣٨) القائد الروماني ماركوس اتيليوس ريجولوس (القرن الثالث قبل الميلاد) · وكان القرطاجانيون قد أسروه ثم ارسلوه الى روما للتفاوض بشأن السلام وتبادل الاسرى ، لكنه حين وصل الى روما نصح مجلس الشيوخ بحماس بأن يرفض شروط قرطاجنة حتى يفي بالوعد الذي كان قد قطعه على نفسه ـ المترجم ·

(٣٩) « المسيحية منزوعة القناع أو بحث مبادىء الديانة المسيحية

وما دام العقل كافيا لتعليمنا واجباتنا ، فان وساطة الفلسفة تستهدف أن تبين لنا أن الفضيلة تكمن في مصلحتنا المفهومة فهما صحيحا • كما ينبغي عليها أن توضح لنا أن أبرز أبطال البشرية ما كانوا ليتصرفوا بطريقة أخرى لو لم تكن أمام عيونهم سوى سعادتهم هم • وهكذا يظهر تحليل سيكولوجي يؤدي حقا - كثيرا وبوضوح - الى **الحط من سقراط والافتراء على ريجولوس** • ومن هنا فان نقد روسو لم يكن بلا أساس ، وكل ما في الامر أن « مواطن جنيف » قد نسي أن « سقراط المفترى عليه » كثيرا ما ارتكب ذات الخطأ الذي يلام عليه الماديون (٤٠) •

فسواء في اليونان أو في فرنسا ، في ألمانيا أو في روسيا (تشيرنشيفيسكي وأتباعه) - فقد ارتكب فلاسفة التنوير في كل مكان نفس الخطأ • لقد ارادوا أن **يثبتوا** ما لا يمكن اثباته ، وانما تعلمه حياة المجتمع ذاتها (٤١) • ان تطور البشرية الاخلاقي يتبع عن كتب

وآثارها » - لندن ١٧٥٧ - ص ١٢٦-١٢٨ • وقد سمي هذا الكتاب «أبشع كتاب ظهر على الارض» • والواقع انه لم يصدر في لندن وانما في نانسي •

(٤٠) « ورغم هذا فأية ممتلكات أخرى » (هكذا !) « يمكن أن تقارن بالصديق ؟ أي عبد أكثر حبا لنا ، أو حرصا على مصلحتنا ؟ أي حصان يستطيع أن يقدم لنا مثل هذه الخدمة ؟ ومن أين وممن نستطيع أن نحصل في كل الاوقات وكل المناسبات على مثل هذه المزايا الكثيرة الاساسية ؟ » (اكسينوفون «ذكريات سقراط» - المجلد الثاني - الفصل الرابع) • ولم يقل الماديون الفرنسيون أبدا شيئا بمثل هذه «الفظاظة» • أفيعني هذا ان سقراط كان «يفتري» على نفسه ؟

(٤١) وبالمناسبة فقد كان هذا يتفق تماما مع روح العصر في القرن الثامن عشر ، ولم يكن دعاة «الاخلاق الدينية» يتعثرون بأي حال خلف الماديين في هذا الصدد ، وأحيانا ما كانوا يضعون «براهين» مسلية • وهاك مثال رائع • يذكر هلفيسيوس ان الجيزويت نظموا حفل باليه في روان في عام ١٧٧٠ «وكان الهدف منه ايضاح ان المتعة تعد الشباب للفضائل الحقة ، وبعبارة أخرى فقد كان الفصل الاول عن الفضائل المدنية والثاني - عن الفضائل العسكرية ، أما الثالث فعن الفضائل

خطى الضرورة الاقتصادية، ويتكيف بالتحديد مع احتياجات المجتمع الفعلية ، غير ان العملية التاريخية لهذا التكيف تحدث خلف ظهر الناس ، وبغض النظر عن ارادة الافراد وتفكيرهم · ويبدو خط السلوك الذي تمليه المصلحة وكأنه أمر من « الالهة » أو « الضمير الفطري » او «العقل» او «الطبيعة» · ولكن أي نوع من المصلحة هو الذي يملي خطأ او آخر من السلوك على الافراد ؟ أهو المصلحة الذاتية ؟ انها كذلك في حالات لا تحصى ، غير أنه بقدر ما يصغي الافراد الى صوت مصالحهم الشخصية لا تعود المسألة التي ندعى الى تفسيرها هي مسألة الاعمال «الفاضلة» · فمثل هذه الاعمال تعكس مصلحة **الكيان ، المصلحة الاجتماعية**، وهذه الاخيرة هي التي تمليها · وتقود جدلية التطور التاريخي لا الى أن « **يصبح المعقول لا معقولا ، والمفيد ضارا** » (٤٢) فحسب ، بل كذلك الى ان تتحول المصالح **الانانية** لمجتمع أو طبقة ما ــ في قلوب الافراد ــ الى نبضات مليئة **باللاأنانية** والبطولة · ويكمن سر هذا التحول في تأثير البيئة الاجتماعية ·

وكان الماديون الفرنسيون يعرفون جيدا كيف يقدرون هذا النفوذ ، فقد ظلوا يرددون أن التربية تحدد كل شيء ، وأن الناس يصبحون على ما هم عليه ، ولا يولدون على ما هم عليه · ورغم هذا فقد رأوا عملية **الصياغة الاخلاقية** هذه وصوروها كسلسلة من الانعكاسات تتكرر كل لحظة في ذهن كل فرد ، وتتحور مباشرة وفقا للظروف التي تؤثر على المصلحة الخاصة لكل من يتحرك للعمل · ومن وجهة النظر هذه ــ كما رأينا ــ تتشكل مهمة الاخلاقي بذاتها ·

←

الخاصة بالدين· وحاولوا في الباليه أن يثبتوا هذه الحقيقة عن طريق الرقصات · فأدى ممثل دور الدين رقصة مع المتعة ، وحتى يضفوا على هذه الاخيرة مزيدا من الاثارة · ــ كما قال الجانسينيون في ذلك الحين ــ جعلها الجيزويت ترتدي السراويل · ولكن اذا كانوا يرون أن المتعة تستطيع ان تفعل أي شيء بالانسان فما الذي لا تستطيع أن تفعله المصلحة به ؟ ألا تختزل كل مصلحة فينا في البحث عن المتعة » (« عن الانسان » ــ المجلد الاول ــ القسم الثاني ــ الفصل السادس عشر) ·

(٤٢) كلمات غوته على لسان مفيستوفيلتيس في رواية «فاوست» ــ المترجم

فينبغي حماية افكار الافراد من الاخطاء ، وايضاح «الحقيقة» الاخلاقية لهم ٠ فماذا يعني اذن في هذه الحالة ايضاح الحقيقة الاخلاقية ؟ انه يعني ايضاح أين تكمن المصلحة الشخصية في أفضل فهم لها ، تعني شحن هذا الاستعداد القلبي الخاص الذي يقود الى عمل جدير بالثناء ٠

وهكذا ولد ذلك التحليل السيكولوجي الذي ثار عليه روسو ، هكذا ظهرت تلك الاناشيد التي لا تنتهي للتغني بالفضيلة والتي أسماها جريم **الكابوسيناد** (٤٣) ٠ وقد اتسم بهذه الاخيرة عدد من الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، في حين اتسم البعض الاخر بتحليل زائف لدوافع السلوك ، غير أن افتقاد المنهج الجدلي يبدو واضحا **في كل** ما كتبوه ، وقد أساء **اليهم جميعا** على قدم المساواة ٠

وكثيرا ما استند روسو ـ في جداله ضد الاخلاق المادية ـ الى **الضمير** ، و «الغريزة الالهية» و «الشعور الفطري» وما الى ذلك ٠ ولقد كان من السهل على الماديين أن يفسروا هذا الشعور باعتباره ثمرة التربية والعادة ٠ غير انهم فضلوا أن يصوروه كسلسلة من الانعكاسات تقوم على الادراك العميق للمصلحة الشخصية ٠ فالضمير ـ عند هولباخ ـ يمكن أن يعرف بأنه « معرفة التأثير الذي تحدثه أفعال المرء على الاخرين وعلى أنفسنا » ٠ و «الضمير الآثم هو اليقين او الخوف من أن نكون مستحقين لكراهيتهم أو احتقارهم نتيجة سلوكنا ازاءهم » (٤٤)٠ ومن الواضح أن روسو ما كان يمكن أن يقنع بمثل هذا «التعريف» ، ومن الواضح بالمثل أن الماديين ما كانوا ليستطيعون أن يسمحوا بوجهة نظره، فأدنى اعتراف«بالشعور الفطري» كان من شأنه دحر كل فلسفتهم ٠

واليوم تستطيع المادية الجدلية أن تبرز بسهولة ذلك الجزء من الحقيقة الذي تحويه كل من عبارات روسو وعبارات الماديين الفرنسيين ٠

وهكذا فان كل القوانين الاخلاقية تنبع من «العقل» ٠ ولكن

---

(٤٣) أي المواعظ المبتذلة ، والكلمة مشتقة عن اسم طائفة رهبان الكابوسين ـ المترجم ٠

(٤٤) « النظام الاجتماعي » ـ المجلد الاول ـ ص ٥٦ وانظر أيضا «الاخلاق الكلية» ـ المجلد الاول ـ ص ٤ـ٥ ٠

بماذا يسترشد العقل في بحثه عن هـــذه القوانين ؟ يجيب هولباخ دون تردد ٠٠ بالطبيعة ٠ « فالانسان كـــائن ذو حس ذكي عقلاني » وليس على العقل أن يعرف أكثر من ذلك لكي يزودنا « بالاخـــلاق **الكلية** » ٠

ونستطيع أن نفســر بسهولة سيكولوجية هذا اللجــوء الى «الطبيعة» ٠ وبالمناسبة فان هولباخ نفسه يفسره لنا : « فما من شك في أن فرض واجبات علينا ، وسن قوانين تلزمنا ، يتطلب سلطة لها الحق في أن تأمرنا » ٠ لكن الماديين كانوا يحاربون كـــل السلطات التقليدية،وهكذا لجأوا الى الطبيعة كيما يجدوا مخرجا منالصعوبة٠ «أيمكن لاحد أن ينكر على الضرورة هذا الحق ؟ أيمكن لاحد أن يشك في دعاوي هذه الطبيعة التي تمارس حقوق السيادة على كـل ما هو موجود ؟ » وكان هذا كله «طبيعيا» في ذلـــك الحين ٠ لكن علينا أن نؤكد أن هولباخ ــ كغالبية معاصريه ــ لم يكن يميل الا الى طبيعـــة «الانسان» ، وهي شيء مختلف تماما عن الطبيعـــة التي علينا أن نصارعها من أجل وجودنا ٠

لقد كان مونتسكيو مقتنعا بأن الاختلافات في المناخ قد انتجت «تنوعا في القوانين» ٠ وقدم براهين غير حاسمة لاثبات هذه العلاقة، وهذا ما كشفه الفلاسفة الماديون دون صعوبـــة كبيرة ٠ فيتساءل هولباخ ، « هل يمكن لاحد ان يقول ان الشمس التي أشـــرقت على الاغريق والرومان ، الذين كانوا شديدي الاعتزاز بحريتهم ، لا ترسل نفس الاشعة الى احفادهم العاجزين ؟ » (٤٥) ٠ ومن حيث الاساس لم يكن خط تفكير مونتسكيو خاطئا تماما ٠ فنحن نعرف اليوم الدلالة التي كانت للبيئة الجغرافية في تاريخ البشرية ٠ واذا كان مونتسكيو

---

(٤٥) « السياسة الطبيعية » ــ المجلد الثاني ــ ص ١٠ و « النظـام الاجتماعي » ــ المجلد الثالث ص ٦ــ٨ ٠ ولم يدخـر فولتير من جانبه جهدا في محاربة رأي مونتسكيو هذا ، وان كان مونتسكيو بالمناسبة ــ لم يقل شيئا جديدا في هذه المسألة، وانما ردد آراء بعض كتابالاغريق والرومان ٠ وعلينا ــ من قبيل الانصاف ــ أن نضيف أن هولباخ كثيرا ما تحدث عن تأثير المناخ بسطحية تزيد كثيـــراً عن مونتسكيو ، فهو يقول في «نظام الطبيعة» : « وفي الجوهر ينظم مناخ محدد النـــاس ويحورهم بطريقة تجعلهم اما مفيدين جـــدا لجنسهم او ضارين جدا به » (!) ٠

مخطئا فان هذا لا يعني بأية حال ان اولئك الذين هاجموه بهذا الصدد كان لديهم فهم افضل لما اسماه هيجل فيما بعد «الاساس الجغرافي لتاريخ العالم» ، فلم تكن لديهم أدنى معرفة بالموضوع ، سواء كانت معرفة صحيحة او خاطئة • لقد كانت الطبيعة الانسانية هي المفتاح الذي انتظروا أن يستخدموه لفتح كل ابواب الاخلاق والسياسة والتاريخ • وكثيرا ما يصعب علينا اليوم أن ندرك بوضوح وجهة نظر كانت شائعة الى هذا الحد بين كتاب القرن الثامن عشر •

وعلى سبيل المثال يقول سوارد « يخضع تطور الفنون لنفس التدرج الذي يلاحظه المرء في تطور البشرية » • ونتشبث بحماس بهذه الفكرة معتقدين أن الكاتب على وشك أن يكشف الاسباب الخبيئة لتطور الانسانية، الاسباب التي توجه روحها وتنورها («التنوير») — وان كانت مستقلة عن الارادة الانسانية • وهناك من يعتقدون أنهم يفلتون — بفضل سوارد — من الدائرة المفرغة التي كانت فلسفة التاريخ تدور فيها عاجزة في القرن الثامن عشر • غير أنهم متعجلون وخاطئون تماما • فالاسباب التي يخضع لها تطور «الفنون» لا تعتمد الا على طبيعة — « الانسان » •

« ففي طفولته ليس لدى الانسان سوى مشاعره وخياله وذاكرته ، وهو لا ينشد سوى الاغاني والقصص ، ثم يتلو ذلك دور العواطف ، وتحتاج الروح الى ما يحركها ويثيرها ، ثم ينمو الذكاء وتزداد قوة العقل ، وكلا هاتين الملكتين بدورهما في حاجة الى مران ، وتمتد فاعليتهما الى كل ما يثير حب استطلاع الانسان وأذواقه ومشاعره وحاجاته » (٤٦) •

ويعترف كل العلماء الطبيعيين الان بأن سلسلة الاشكال التي يمر بها الكائن المفرد من الجنين حتى تطوره الكامل هي تكرار لتغيرات الشكل التي مر بها اسلاف الجنس الذي ينتمي اليه الكائن • فالتطور **الوراثي الجنيني** يوجز **تطور النوع** • وبنفس الطريقة يستطيع المرء أن ينظر الى سلسلة الاشكال التي يمر بها ذهن كل

---

(٤٦) « عن تقدم الاداب والفلسفة في القرن الثامن عشر » في «Mélance de Littérature» العام ١٢ — المجلد ٣ — ص ٣٨٣ •

انسان من الطفولة حتى التطور الكامل كنوع من التلخيص للتغيرات الطويلة البطيئة التي مر بها اسلاف كل انسان في مجرى التاريخ • وفي رأينا أن ابحاثا شيقة يمكن ان تجري في هـــذا الميدان (٤٧) • ولكن ماذا يمكن ان نقول عن عــالم طبيعي يرى في التاريخ الجنيني لكائن مفرد أسسا كافية للتغيرات في الجنس؟ لكن هذه بالدقة طريقة تفكير سوارد ومعه كل «فلاسفة» القرن الثامن عشـــر الذين كانت فكرتهم عن نموذج تطور البشرية فكرة غامضة •

وفي هذا يتفق جريم تماما مع سوارد • فهـــو يتساءل : « أي شعب لم يبدأ شاعرا وينتهي فيلسوفا ؟ » (٤٨) • وكان هلفيسيوس هو الذي ادرك ان هذه الحقيقة يمكن أن تنبعث عن اسباب اعمق من تلك التي ظنها سوارد • لكننا لم نصل بعد الى هلفيسيوس •

فالانسان كائن ذو حس ذكي عقلاني ، هكذا خلق ، وهكذا كان دائما ، وهكذا سيظل دائما رغم كل اخطائه • وبهذا المعنى فـــان الطبيعة الانسانية ثابتة • فما وجه الغرابة اذن في ان تكون القوانين الاخلاقية والسياسية التي تمليها هـــذه الطبيعة ـ بدورها ـ ذات طبيعة كلية ، وثابتة لا تتغير ؟ ان هذه القوانين لم تعلن بعد ، ولا بد من أن نعترف بأنه « ما من شيء أكثر شيوعا من رؤية قوانين مدنية تتناقض مع قوانين الطبيعة » • وترجع هذه القوانين المادية الفاسدة الى « انحراف الاخلاق ، واخطاء المجتمع ، او الطغيان الذي يجبـر الطبيعة على أن تنحني لسلطانه» (٤٩) • فلتدع الطبيعة تقول كلمتها وستعرف الحقيقة مـــرة والى الابد • ان الاخطاء بلا عدد ، أمـــا الحقيقة فواحدة • «فالاخلاق ليست قائمة بالنسبة للوحش أو المجنون، ولا يمكن ارساء الاخلاق الكلية الا بالنسبة للمخلوقات العقلانيـــة المنظمة تنظيما طبيعيـــا ، ففيهم لا تتغير الطبيعـــة ، ولا نحتاج الا الملاحظة كي نستخلص القواعـــد الثابتة التي ينبغي عليهـــم أن

(٤٧) وغني عن البيان أننا ينبغي أن نولي أكبر اهتمام للتأثيرالهائل الذي يمارسه التكيف مع البيئة الاجتماعية على تطور الفــرد الروحي والاخلاقي •

(٤٨) « المراسلات الادبية » ـ اغسطس ١٧٧٤ •

(٤٩) « السياسة الطبيعية » ـ المجلد الاول ـ ص ٥٢ •

يتبعوها » (٥٠) ·

ولكن كيف يمكن للمرء ان يفسر أن يستطيع هولباخ هذا نفسه ان يكتب السطور التالية :

« فالمجتمعات ، ككل الاجسام الطبيعية ، تمـــر بتحولات وتغيرات وثورات ، انها تتشكل وتنمو وتتحلل ككل الكائنات الاخرى · ولا يمكن لنفس القوانين أن تلائمها في ظروف مختلفة من التطور: فهي قد تكون مفيدة في فترة ، وتصبح عديمة الجدوى وضارة في فترة أخرى » ·

الامر بسيط للغاية ، فهولباخ لا يستخلص سوى نتيجة واحدة من الحجة السابقة ، هي أن : من الضروري الغاء القوانين البائـدة التي مضى أوانها (والاشارة هنا الى قوانين فرنسا في ذلك الحين)· ان قدم قانون ما حجة **عليه** اكثر منه حجة **له** · فمثـال اسلافنا ليس شاهدا في صالحه · وكان في وسع هولباخ ان يثبت هـــذا نظريا ، باللجوء الى «العقل» فحسب ، لكنه نظرا لتحيزات قرائه تظاهـــر بالتمسك بوجهة النظر التاريخية ·

ونفس الامر صحيح عن تاريخ الدين · وقد أولى « الفلاسفة » قدرا كبيرا من الاهتمام لهذا الموضوع ، وكـان هدفهم هو أن يثبتوا أن الديانة المسيحية ــ التي تزعم انها قائمةعلى الوحي ــ تشبه تماما كل الديانات الدنيوية·وكانت هذه لطمة موجهة الى العقيدة المسيحية البغيضة لديهم ، وبعد أن وجهت لم يشعـــر أحد من « الفلاسفة » بالاهتمام بدراسة تاريخ الاديان المقارن · لقد كانت الازمنة ثورية ،

---

(٥٠) أكد كوندورسيه ــ الذي ثار على آراء فولتير في هذه المسألة المحددة والتي كانت تتعارض كـل التعارض مع آرائه ــ (« الفيلسوف الجاهل » ، فكثيرا ما كان البطريرك يغيـر افكاره) ان فكرتي العدالة والحق تطورتا « بالضرورة بنفس الطريقة لدى كـــل الكائنات المزودة بالمقدرة على الشعور » واكتســـاب الافكار · « **ومن ثم فستكون هي نفسها** » · صحيح بالطبع ان الناس «كثيرا ما يغيرونها» ، لكن كـــل كائن يفكر تفكيرا سليما سيصل الى نفس الافكار في الاخلاق كما يصل اليها في الهندسة : ومثل هذه الافكار هي النتيجة الضرورية للحقيقـة التي لا نزاع فيها وهي أن «الناس مخلوقات ذكية ذات حس» (في أحد هوامش « الفيلسوف الجاهل » طبعة كيهل لاعمال فولتير) ·

وكان «للحقائق» التي يعلنها الفلاسفة (والتي كثيرا ما كانت تتناقض فيما بينها) اهدافا عملية مباشرة ٠

وسنلاحظ عند هذه النقطة أن « الطبيعة الانسانية » كثيرا ما قادت الفلاسفة الماديين الى أبعد مما توقعوا ٠ « لقد اسيء كثيرا استخدام ذلك التمييز الذي كثيرا ما يرسم بين الانسان الفيزيائي والانسان الاخلاقي » ٠ فالانسان كائن فيزيائي خالص ، والانسان الاخلاقي هو نفس هذا الكائن الفيزيائي، وانما منظورا اليه منزاوية محددة أي بالنظر الى بعض ملكاته كما هي محكومة بتنظيمه ٠ ومن هنا فان «**كل اخطاء الناس هي اخطاء فيزيائية**» (٥١) ٠ وهكذا فان ما يحال الى الطب ، او بالاحرى الى الفسيولوجيا، هو مهمة تزويدنا بمفتاح القلب الانساني٠ وعلى هذا العلم نفسه أن يفسر لنا التغيرات التي مرت بالبشرية ٠

« ففي الطبيعة التي يترابط فيها كل شيء ويتفاعل، ويتحرك كل شيء ويتغير ، يتركب ويتحلل ، يتشكل ويتحطم ، وما من ذرة واحدة لا تلعب دورا هاما وضروريا ، ما من جزيء واحد غير محسوس لا يؤدي ــ اذا ما وضع في ظروف مواتية ــ الى نتائج هائلة ٠٠٠ فزيادة الحموضة في صفراء متعصب ما ، وزيادة التهاب الدم في قلب غاز ما ، واضطراب الهضم في معدة ملك ما ، والنزوة التي تمر بذهن امرأة ما » (أهذا أيضا جزيء؟ ج٠ ب٠) «أسباب كافية لبدء الحروب، وارسال ملايين الناس الى المذبحة، وتحطيم القلاع ، وتحويل المدن الى انقاض ٠٠٠ ونشر الخراب والكوارث قرونا متعاقبة ٠٠٠ » (٥٢) ٠

ثمة قول شائع عن حبة الرمل التي وجدت طريقها الى مثانة كرومويل وبذا أدت الى اعادة تشكيل صورة العالم بأسره ٠ وليس في هذا القول من المضمون ما يزيد أو يقل عن افكار هولباخ عن «الذرات» و «الجزئيات» كأسباب للاحداث التاريخية، والفارق الوحيد ان أقوالا مأثورة من هذا النوع تحوي «حبة» من الحقيقة، لكن الصلة بين هذه الحقيقة والحقيقة بأسرها أشبه بالصلة بين «حبة» أو جزيء وكل المادة في الكون٠ ولان هذه الحقيقة ضئيلة للغاية فانها لا

(٥١) « نظام الطبيعة ــ المجلد الاول ــ ص ٥ ٠

(٥٢) المصدر نفسه ــ المجلد الاول ــ ص ٢١٤ ٠

تأخذنا خطوة واحدة الى الامام في دراستنا للظاهرة الاجتماعية . هو أننا ندين بهذا القول لرجل ورع . وفي رأي هذا الاخير كان الله هو الذي أدخل حبة الرمل القاتلة في مثانة الوحي . ولم يكن هولباخ ليقبل فكرة الله،لكنه في كل شيء آخر لم يكن ليقدم اعتراضا على هذا القول المأثور .

واذا لم نفعل في العلم التاريخي سوى انتظار مقدم العبقري الذي حلم به لابلاس ـ العبقري الذي سيكشف لنا بمعونة الجزيئات كل أسرار ماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها ـ فاننا نستطيع ان نغرق في نوم هاديء طويل ، لان مقدم هذا العبقري الرائع لن يحدث قريبا .

« فاذا نحن عرفنا ـ بمساعدة الخبرة ـ العناصر الكامنة خلف مزاج انسان ما أو اغلب الاشخاص الذين يتألف منهم شعب ما فسنعرف ماذا ستكون عليه ميولهم ، وأي قوانين يحتاجون ، وأية مؤسسات تفيدهم » (٥٣) .

ولكن ماذا ستصير اليه ـ في هذه الحالة ـ « **الاخلاق الكلية** » و «**السياسات التي تتفق مع الطبيعة**»؟ ليس لدى هولباخ ما يقوله في هذا الصدد لكنه يعلق بحماس متزايد دوما على كل القوانين الاخلاقية والسياسية والاجتماعية المستمدة بالضرورة من طبيعة الانسان منظورا اليه بصفته مخلوقا ذا حس الخ ...

ولقد كان «طبيعيا» تماما أن تكون أمنا الطبيعة ـ في أيام هولباخ ـ في صف تلك القوانين التي كانت البورجوازية الفرنسية تحتاجها في اللحظة التي تستعد فيها لكي تصبح «كل شيء» (٥٤) .

---

(٥٣) المصدر السابق ـ المجلد الاول ـ ص ١٠٦ . ويعلق جولز سوري بسذاجة على هذه الكلمات قائلا « ان فكرة البارون هولباخ هذه قد اصبحت جزئيا حقيقة » (!) « ورغم هذا فأن الاحصاءات الاخلاقية لا الفسيولوجيا هي التي تبدو مؤهلة لتقديم أكبر الخدمات لفيزياء الاخلاق » (« موجز تاريخ المادية » ـ باريس ١٨٨١ ـ ص ٦٥٣) .

(٥٤) الاشارة هنا الى الفقرة التالية من كتاب ايمانويل ـ جوزيف سييز « ماهي الطبقة الثالثة ؟ » الذي نشر عشية الثورة الفرنسية في ١٧٨٩ : « ما هي الطبقة الثالثة ؟ كل شيء ـ وماذا كانت حتى الان في المجال السياسي ؟ لا شيء ـ والام تتطلع ؟ لان تكون شيئا » .

ان اتفاقا ضمنيا ، عقدا اجتماعيا ، يقوم بين المجتمع وأفراده، ويتجدد العقد كل لحظة ، ويستهدف توفير الضمانات المتبادلة لحقوق المواطنين ، وأقدس هذه الحقوق هي **الحرية والملكية والامن** • وفضلا عن هذا فان « الحرية والملكية والامن هي الروابط الوحيدة التي تربط الناس بالارض التي يعيشون عليها • وليس ثمة من وطن اذا اختفت هذه المزايا » (٥٥) •

والملكية هي روح هـذا الثالوث المقدس ، فالامن والحـرية ضروريان للمجتمع «لكن من المستحيل على الانسان أن يجعل وجوده سعيدا اذا لم يكن يستطيع ان يتمتع بالمزايا التي وفرتهـا له جهوده وشخصيته (!) • ومن هنا فقد منحت قوانين الطبيعة كل انسان حقا يسمى «**الملكية**» ولا يستطيع المجتمع أن يحرم الانسان من ملكيته «**لانه خلق لحماية هذه الملكية** » • وهكذا فان الملكية هي الهدف ، والحرية والامن هماالوسيلتان •

فلندرس هذا الحق المقدس في هذا الضوء ، وبتفصيل اكبر •

من أين انبعث؟ انه يقوم على العلاقة الضرورية التي تنشأ بين الانسان ومنتجات عمله • وهكذا كان الحقـل يصبح ـ بشكل ما ـ جزءا من ذلـك الذي يفلحه ، لان ارادته وذراعيـه وقوته وجده ، وباختصار «**صفاته الفردية الكامنة ، تلـك التي تنتمي الى شخصه** » هي التي جعلت من الحقل ما هو عليه •

« ان هذا الحقل الذي رواه بعرقه يتطابق معه ـ اذا أمكن القول ـ وغلته تنتمي اليه بنفس الطريقة التي تنتمي بها له اطرافـه وصفاته ، لانه لولا عمله لما وجد هذا الناتج أبدا ، او على الاقل لما وجد بالطريقة التي هو عليها » (٥٦) •

---

(٥٥) « السياسة الطبيعية » ـ المجلد الاول ـ ص ١٣ـ١٤ ـ ٣٨ ـ ١٢٥ •

ومن هنا فان الغاية العظمى والاساسية للناس الذين يتحدون فـي مجتمعات ، ويخضعون أنفسهم لحكومة ، هي **المحافظة على ملكيتهم** ، وهو ما يفتقرون فيه الى الكثير في ظل الحالة الطبيعية » •

(جون لوك « بحثان عن الحكومة المدنية» (لندن ـ ١٨٨٤ ـ الكتاب الثاني) الفصل التاسع «عن غاية المجتمع السياسي والحكومة») •

(٥٦) « السياسة الطبيعية » ـ المجلد الاول ـ ص ٣٩ •

وهكذا رأى هولباخ الملكية البورجوازية في شكل ناتج عمل المالك نفسه ، الا أن هذا لم يمنع تقديره البالغ للتجار والصناعيين٠٠ « أولئك الخيرين الذين يوفرون ـ وهم يثرون أنفسهم ـ أعمالا وحياة للمجتمع كله » (٥٧) ٠ ويبدو أنه كان لديه فهم صحيح ـ وان لم يكن واضحا تماما ـ لمنشأ ثروة الصناعيين، فهو يقول « وفي حين يكسب العامل قوته بعمله فانه يزيد على الدوام ثروة اولئك الذين يعطونه عملا » ٠

فهلا تنتج هذه الثروة سوى «**الصفات الفردية الكامنة ، تلك التي تنتمي لشخصه**» («**أي عدد من الحرفيين من كل الانواع يديرون عجلات الصناعات !**») ؟ (٥٨) كلا بالطبع ! ولكن ماذا في ذلك ؟ ان الصناعيين والتجار أناس مفيدون للغاية ، أفلا ينبغي على المجتمع الشاكر للجميل أن يمنح الثروة والشرف لاولئك الذين يخدمونه جيدا؟ ان المشكلة لا تكمن في الحقيقة التي لا نزاع فيها وهي أن « الحرفي » يدفع ثروة الصناعي وانما في «التحيزات الفظة الوحشية» التي تؤدي الى ألا يحظى الصانع والتاجر بما يستحقاه من تقدير ، « ان التاجر المسالم يبدو شيئا محتقرا للجندي الغبي الذي لا يرى أن هذا الرجل الذي ينظر اليه من عل هو الذي **يكسوه** ، **ويغذيه** ، وهو الذي يمون جيشه » (هكذا !) (٥٩) ٠

ويستخدم هولباخ لغة أخرى حين يتحدث عن الملكية الاقطاعية، فهو يعتبر هؤلاء الملاك ـ « الاثرياء والعظام » ـ « اعضاء لا جدوى منهم وضارين بالمجتمع » ، ويهاجمهم بلا هوادة ، لانهم هم الذين يهددون « **ثمار عمل الاخرين** » ، ويحطمون حرية زملائهم المواطنين، ويهينون اشخاصهم ، « **وبهذه الطريقة تنتهك الملكية على الدوام** » (٦٠) ٠

ونحن نعرف ان المجتمع قد خلق للمحافظة على الملكية ، لكن العقد الاجتماعي الضمني ينبغي ألا يشير الا الى الملكية البورجوازية وحدها ٠ أما بالنسبة للملكية الاقطاعية فليس على المجتمع سوى واجب واحد ـ الغاؤها الكامل المطلق ٠ ويقف هولباخ مع امتيازات

(٥٧) « الاخلاق الكلية » ـ المجلد الاول ـ ص ٢٤٩ ٠
(٥٨) المصدر السابق ٠
(٥٩) المصدر السابق ـ المجلد الثاني ـ ٢٤٠ ٠
(٦٠) « السياسة الطبيعية » ـ المجلد الاول ـ ص ٤٢ ٠

النبلاء والالتزامات لهم ، والضرائب، والسخرة، والحقوق الاقطاعية وما الى ذلك (٦١) ٠

« ولو أشار النبلاء ـ الذين ينبغي على الملك ان ينتزع حقوقهم الضارة ـ الى حقوق الملكية المقدسة فاننا نستطيع أن نجيب بأن الملكية ليست سوى الحق في الحيازة مع العدالة، وكل ما يتعارض معالصالح القومي لا يمكن أن يوصف بالعدالة ، كل ما يسيء الىملكية المزارع لا يمكن ان يعتبر حقا ، لانه ليس سوى ابتزاز ، سوى انتهاك لحقوقه ، التي تعتبر المحافظة عليها أنفع كثيرا للامة من مزاعم عدد قليل من السادة لا يكتفون بألا يفعلوا شيئا بل يعارضون الاعمال ذات الفائدة القصوى لهم وللمجتمع » (٦٢) ٠

فالنبلاء «**يفضلون ألا يفعلوا شيئا** » ، انهم لا يؤدون وظيفة مفيدة في المجتمع ـ وهذا ما يدينهم في نظر فيلسوفنا ٠ ففي وقت ما كان على النبلاء أن يذهبوا الى الحرب على نفقتهم ، وكانوا عندئذ يتمتعون بمزايا معينة على أساس عادل من القانون ٠ ولكن على أي أساس قانوني ينبغي ان يتمتعوا بنفس الامتيازات في مجتمع ينفق فيه الملك على الجيش ، ولم يعد النبلاء فيه يلتزمون بالخدمة ؟ (٦٣)٠

وها قد حان الوقت الذي تستخدم فيه البروليتاريا تجاه حقوق الرأسماليين ذات المعيار الذي استخدمه منذ مائة عام ممثلو البورجوازية تجاه امتيازات النبلاء ٠

وينبغي ألا نعتقد أن التناحر بين البورجوازية والنبلاء قد انعكس في ذهن هولباخ كتناحر بين ملاك الارض ومختلف أنواع الملاك في المدن ٠ لا شيء من هذا القبيل ! فلم يكن هولباخ بأي حال متحيزا للملكية المنقولة ٠ بالعكس كانت ملكية الارض هي ما يعتبره ملكية **بالدرجة الاولى**،فهو يقول «**ان ملكية الارض تشكل المواطن الحقيقي**»٠ وظروف الزراعة هي المؤشر لوضع البلاد الاقتصادي عموما ٠

---

(٦١) وهو بالطبع لا يستثني شيئا سواء « امتيازات » النقابات الطائفية أو « ثروة الكهنة » ٠

(٦٢) «الايثوقراطية أو الحكومة القائمة على الاخلاق» ـ امستردام ـ ١٧٧٦ ـ ص ٥٠ـ٥١ ٠

(٦٣) المصدر السابق ـ ص ٥٢ ٠

«فالفقراء» هم بالدرجة الاولى «المزارعون» ، والدفاع عنهم يعني الدفاع عن سكان الريف الذين يقهرهم « أقويــــاء هذا العالم » أي النبلاء ٠ وقد مضى هولباخ الى حد أن يقول ـ مع الفسيوقراط (٦٤) ـ ان كل الضرائب تقع ـ بشكل مباشر او غير مباشر ـ على الارض، تماما ككل شيء آخر ـ حسن أو سيء ـ يحدث للامة ٠ « فمن اجل الدفاع عن حيازة الارض تخطط الحروب، ومن أجل الابقاء على ثمار الارض في التداول تصبح التجـــارة ضرورية ، ولتأمين الاراضي لاصحابها يصبح القضاء مفيدا» (٦٥)٠ فالارض هي مصدر كل ثروة الامة ولهذا السبب ينبغي أن تحرر بأسرعما يمكن من الربقةالاقطاعية التي ترزح ثقيلة فوقها ، وتلك حجة أخرى في صف الاتجـاه الثوري البورجوازي !

وما كانت «المساواة» لتحوي شيئـــا يغري رجلا كهولباخ ، بالمعكس لقد كان يعتبرها وهما ضارا ٠ فليس لدى كـل الناس نفس التنظيم ٠ لقد كانوا دائما غير متساوين من حيث قواهـــم الجسدية والاخلاقية والفكرية ٠

« وأجبر الرجل ضعيف الجسد او العقل دائما على ان يعترف بتفوق اولئك الاكثر قوة جدا وذكاء ، فالرجل الاكثر جدا يزرع قطعة اكبر من الارض ، ويجعلها اكثر خصوبة مما يستطيع رجل آخر اعطته الطبيعة جسدا أضعف ٠ وهكذا فان عدم المساواة في الملكية وفي الحيازات قد وجد منذ البداية » (٦٦) ٠

وكان في وسع الاب مابلي أن يعترض على مثـل هذه الحجج

---

(٦٤) الفسيوقراط ـ اتجاه في الاقتصاد السياسي الكلاسيكي ظهر في فرنسا في خمسينات القرن الثامن عشر ٠ وكان الفسيوقراط دعاة متحمسون للزراعة الرأسمالية الكبيرة ، ولالغاء الامتيازات الطبقيـة والحماية الجمركية٠ لقد أدركوا ضرورة القضاء على النظام الاقطاعي لكنهم أرادوا أن يحققوا ذلك بالاصلاحات السلمية ، ودون أي مساس بالطبقات الحاكمة والحكم المطلق ٠ وكانوا في آرائهم الفلسفية قريبين من رجال التنوير البورجوازيين الفرنسيين في القـرن الثامن عشر ـ المترجم

(٦٥) « السياسة الطبيعية » ـ المجلد الاول ـ ص ١٧٩ ٠

(٦٦) المصدر السابق ـ ص ٢٠ ٠

بأنها تتناقض تماما مع نقطة بدء الفلسفة السياسية الحديثة ، أي الحقوق المتساوية تماما لكل الناس ، قويهم وضعيفهم (٦٧) · لكن الزمن لم يكن قد نضج بعد للمساواة ، وكان على مابلي نفسه أن يعترف بأنه «ما من قوة انسانية تستطيع اليوم ان تحاول اعادةارساء المساواة دون أن تسبب من الاضطرابات اكثر مما يريد المرء تجنبه » (٦٨) ·

واثبت المنطق الموضوعي للتطور الاجتماعي أنه في صف المنظرين البورجوازيين · لقد كان هولباخ منظرا متطرفا ـ بل متحذلقا ـ للبورجوازية ، ولقد ثار على «البابا والاساقفة الذين أوصوا بالعطلات وأجبروا الناس على الكسل » ، وهب ليبين أن النجاح في التجارةوالصناعة لا يتمشى مع أخلاق دين «يلعن مؤسسة الاغنياء ، وينكر عليهم مملكة السماء » · وندد هولباخ من جانبه «بهذا العدد الذي لا ينتهي من الكهنة والاخوة والرهبان والراهبات ممن ليست لهم وظيفة سوى أن يرفعوا أيديهم الخاملة الى السماء ، ويصلون ليلا ونهارا لصالح المجتمع»· وثار على الصيام الكاثوليكي لان «القوى التي يعتبرها الروم الكاثوليك هرطيقة ربما كانت هي الوحيدة التي تستفيد من هذا الامتناع عن أكل اللحوم ، فالانجليز يبيعونهم سمك القد والهولنديون يبيعونهم الرنجة » (٦٩) · وكان هذا كله «**طبيعيا**» تماما · ولكن حين لم يكن هولباخ ـ شأنه شأن فولتير وكثيرون غيره ـ يفوت فرصة دون الاشارة الى قصة الالفي خنزير الذين اغرقتهم الشياطين بموافقة يسوع المسيح ، وحين كان

(٦٧) « لو أن صفاتي الجسدية او الاخلاقية لا تعطيني حقوقا على رجل أدنى مني في هبات الطبيعة ، اذا لم اكن استطيع ان أطلب منه ما لا يستطيع أن يطلبه مني ـ فقل لي ـ بالله عليك ـ على أي أساس أستطيع أن أزعم ان ظروفنا ليست متساوية ··· وينبغي ان توضح لي بحكم أي صفة استطيع أن أبين حقوقي » (« شكوك مطروحة على الفلاسفة الاقتصاديين بشأن النظام الطبيعي والاساسي للمجتمعات السياسية ـ لاهاي ـ ١٧٦٨ ـ ص ٢١ ·

(٦٨) « السياسة الطبيعية » ـ المجلد الاول ـ ص ١٥ ·

(٦٩) أنظر « المسيحية منزوعة القناع أو بحث مبادىء الديانة المسيحية وآثارها » ـ ١٧٥٧ ـ ص ١٧٦ و ١٧٩ و ١٩٦ و ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠٣ ·

يأخذ على المؤسس الاسطوري للمسيحية عدم احترامه للملكية الخاصة ، وحين كان يتحدث بنفس اللهجة عن الرسل الذين كثيرا ما كانوا يلتقطون سنابل القمح من حقول لا يمتلكونها ، وحين تصالح لفترة قصيرة مع المسيح لسبب واحد هو أن « ابن الانسان » لم يراع السبت المقدس (٧٠) ـ فقد كان متحذلقا يثير السخرية تماما ، ويكشف عن افتقار كامل لاي فهم للتاريخ ·

لقد رأى هولباخ في البورجوازية ـ التي كان ناطقا باسمها ومدافعا عنها ـ أكثر اجزاء الامة أمانة وجدا وثقافة· ولا بد أنه كان سيشعر بالرعب من بورجوازية اليوم ·

«فالبخل» (وهو يشير هنا الى «الجشع») « عاطفة دنيئة أنانية معادية للمجتمع ، ومن هنا فانه لا يتفق مع الوطنية الحقة ، وحب الصالح العام ، وحتى مع الحرية الحقة · فكل شيء معروض للبيع لدى شعب أصيب بهذا الوباء القذر · وكل ما يتبقى هو الاتفاق على الثمن » (٧١) ·

وهنا يذكرنا كثيرا بسالوست (٧٢) ، لكننا نستطيع في الوقت نفسه أن نقول ان فيلسوفنا قد تنبأ بالفضائح التي تتعاقب الان بسرعة في فرنسا والمانيا وايطاليا (٧٣) ، وبشكل عام حيثما تسير البورجوازية نحو نهايتها ·

---

(٧٠) « ربما شعر مثلنا بمدى الفائدة التي يمكن أن يحققها للناس الغاء عدد كبير من العطلات » (« التاريخ النقدي ليسوع المسيح أو التحليل العقلي للاناجيل » (دون تاريخ أو مكان صدور) ص ١٥٧) !

(٧١) « الايثوقراطية » ـ ص ١٢٤ ·

(٧٢) مؤرخ روماني قديم (عاش من عام ٨٦ الى عام ٣٤ قبل الميلاد· ـ المترجم

(٧٣) يشير بليخانوف هنا الى سلسلة من الفضائح والعمليات الشائنة الواسعة التي انغمس فيها كثير من رجال الاعمال وأعضاء البرلمانات والساسة والصحفيين · وكان نموذجها فضيحة « شركة قناة بناما » في فرنسا ، وفضيحة ستروسبورغ « ملك السكك الحديدية » في المانيا ، وفضيحة « بنك روما » في ايطاليا · ـ المترجم ·

« ما من شيء أقسى في العالم من تاجر أثاره الجشع حالما يصبح الاقوى،وحين يثق في أن جرائمه المفيدة ستحظى بتصفيق بلاده» (٧٤)٠

والحق انه ما من شيء أقسى منه ! ونحن نعرف ذلك اكثر كثيرا مما كان يعرف «فيلسوفنا» الطيب !

وفي أغلب الحالات كان هولباخ ينظر الى «الثروة» من زاوية الواعظ المتحمس الذي يقول ان « الثروة تفسد الاخلاق » ٠ فهو ــ الذي هاجم «الاخلاق الدينية» باسم الثروة ــ يعود فيقف ضد الجشع باسم «**الفضيلة**» ، ويقول ان «اليقظة القصوى هي وحدها التي يمكن ان تدرأ أو على الاقل تخفف الشرور التي تجرها هذه العاطفة» (٧٥)٠ وفي حين يقف مع حرية التداول المطلقة (« وباختصار فان التجارة تتطلب أكمل حرية ، فكلما كانت التجارة حرة اتسع انتشارها ، وينبغي ألا تصنع الحكومة شيئا للتجار الا أن **تمتنع عن التدخل في شؤونهم** ») (٧٦) فقد حاول أن يثبت أن على السياسة أن تفعل كل ما هو ممكن لمنع تضاعف احتياجات رعاياها (« فستنتهي هذه بأن تصبح احتياجات لا تشبع ما لم يلزمها الحذر حدودها ») (٧٧) ؛ ودعا الى تدخل الدولة ، وأصبح من دعاة الحماية الجمركية ، بل كاد يصبح رجعيا ٠٠٠

« ٠٠٠ اننا ندعوها **مفيدة تلك التجارة** التي تزود الامم بالاشياء الضرورية لعيشها ، باحتياجاتها الاولية ، وحتى برفاهها ورضاها ، وندعوها **عقيمة وضارة تلك التجارة** التي لا تزود المواطنين الا بأشياء ليسوا في حاجة حقيقية لها ، ولا تصلح الا لاشباع احتياجات الغرور المتخيلة » ٠

وكان هولباخ مستعدا لان يمضي الى أي حد لقمع هذا «الغرور» الذي يمتد ــ حسب قوله ــ حتى الى الريف ، عن طريق **الاتباع** ، وهذا **الترف** الذي يفسد «الاخلاق» ، ويؤدي الى دمار اكثر الامم

---

(٧٤) « السياسة الطبيعية » ــ المجلد الثاني ــ ص ١٤٨ ٠
(٧٥) المصدر السابق ص ١٤٥ ٠
(٧٦) المصدر السابق ــ ص ١٥٠ ٠
(٧٧) المصدر السابق ــ ص ١٥١ ٠

ازدهارا (٧٨) · فالسوق القومي هو اكثر الاسواق طبيعية لمنتجات البلد الصناعية ، ويجب أن تؤمن للصناعة هذه السوق· ولم يكن في وسع هولباخ أن يفهم «الحمى المجنونـــة لاكتشاف ميادين جديدة للتجارة » والتي بسببها « لم تعـــد الكرة الارضية كافية للتاجـــر المحموم » ، وأصبحت الامم على استعداد لان تذبـح بعضها البعض بسبب رقعة من الرمال يريهم جشعهم فيهـــا كنوزا (٧٩) · ولم يكن يجد من الكلمات ما يكفي للتنديد «بشعب البيون» الذي وضع لنفسه ــ في اعتقاده ــ « هدفا متطرفـــا هو أن يستولي على تجارة العالم ويصبح مالك البحار» (٨٠) · وكان يخشى عدم المساواة الزائدة في توزيع الثروة ، وهو ما كان يعتبره مصـــدر الكثير من الشرور في المجتمع ، وقد وقف يدافع عن المـــزارع الصغيرة ، وكان يعتقد أن المزارع البريطانية أكبر مما يجب ، مما يؤدي في كثير من الاحيـان الى أن يصبح المزارعون المستأجرون «احتكاريين» (٨١) ·

«وترتبط مصالح الدولة دائما بمصالح العـــدد الاكبر ، وهي تتطلب أن يكون الكثير من المواطنين نشطين ، وأن يعملوا عمـــلا مفيدا ، ويتمتعوا بظروف تتيح لهم توفير احتياجات البـــلاد دون أن يسيئوا الى أنفسهم · فليس من وطن لرجل لا يملك شيئا ·· » (٨٢)·

ومن السهل أن نرى أن الظروف الاجتماعية في بريطانيا ــ حيث كانت البورجوازية قد انجزت بالفعل «ثورتها المجيدة» ــ لم تكن على هوى فيلسوفنا ، فقد كان يتحدث عن هـــذه البلاد بضيق شديد ، وقال : «لا يكفي أن تكون غنيا حتى تكون سعيدا ، فأنت تحتاج أيضا الى المقدرة على أن تستخدم الثروة بطريقـــة تفضي الى الهناء · لا يكفي أن تكون حرا حتى تكون سعيدا ، فالحريـــة ينبغي ألا يساء استخدامها ··· وينبغي ألا تستخدم استخداما غير عادل » · وفـي هذا الصدد كان البريطانيون يفتقرون الى الكثير· «شعب بلا أخلاق»، «شعب غير عادل تجاه الاخرين» ، «شعب يلهبه التعطش الى الذهب»،

---

(٧٨) « الاثيوقراطية » ــ الفصل الثامن و « النظـام الاجتماعي » الفصل الثالث ــ ص ٧٣ ·

(٧٩) «السياسة الطبيعية » ــ المجلد الثاني ــ ص ١٥٤ ·

(٨٠) المصدر السابق ــ ص ١٥٥ ·

(٨١) « الاثيوقراطية » ــ ص ١٢٢ ــ الهامش ·

(٨٢) المصدر السابق ــ ص ١١٧ ·

«شعب قاهر» ، «شعب معاد لحرية الاخرين» ، «أمــة تجارية شريرة فاسدة» ـ هكذا كان هولباخ يرى البريطانيين· وقد وجه اليهمواحدة من كبوشياته ★ عن الفضيلة :

وبالمناسبة فكثيرا ما دفعه المسرح الاجتماعي البريطــاني الى

« واذن أيها البريطانيون! فلتزرعوا الحكمة والعقل، ولتنغمسوا في اصلاح حكومتكم وقوانينكم ··· ولتتجنبوا الترف ، الذي يقضي على اخلاقكم وحريتكم · ولتخشوا آثار الهوس الديني والسياسي » الخ ·· الخ ·· (٨٣) ·

أسلوب للتفكير أبعد مدى مما استشهدنا به لتونا · فقد أكــد ــ على سبيل المثال ــ أن الضرائب الباهظة لصالح الفقراء لم تؤد ــ ولا كان بوسعها أن تؤدي ــ الى تقليل عدد الفقراء البريطانيين ·

«من الصحيح تماما أن الامم التي توجد بها اكبر الثروات تضم من التعساء عددا أكبر من السعداء · من الصحيح تماما أن التجــارة لا تثري الا بضع مواطنين في حين تترك الباقين في البؤس » (٨٤) ·

وقد تبدو كل هذه الافكار مشوشة متناقضة، لكننا سنذكر ثانية أن علينـــا ألا ننسى أننا نتنـــاول منظرا للبورجوازيــــة ، التي كانت عندئذ طبقة ثورية ، ومن ثم قادرة على أن تضمر انبل المشاعر· انها ــ أو بالاحرى افضل ممثليها ، الرجال ذوو العقول والاذهــان ، «المفكرون» على حد تعبير هولبـــاخ ـ كانوا يحلمون بحكم العقل ، وبالسعادة الكلية ، وبمملكة السماء على الارض · فهـــل كان في وسعهم ألا يشعروا بالنفور من النتائج التي لا مهرب منها لاتجاهاتهم الاجتماعية ؟ وهل كان في وسع هذا النفور الا أن يوقعهم في تناقض مع انفسهم؟ اعرض على فتاة جميلة صورة عجوز قبيحة قذرةأحناها المرض وستشعر بالفزع ، لكنها ستهرع لان تعيش حياتهــا ، أي لان

★ : نسبة الى الاباء الكبوشيين الذين كانــوا مشهورين بعظاتهم الاخلاقية · (المترجم) ·

(٨٣) انظر « النظام الاجتماعي » ـ المجلد الثاني ـ ص ٦ ·

(٨٤) « الاثيوقراطية » ـ ص ١٤٦ ـ ١٤٧ ·

تكبر في السن ، وتثير فزع الاخرين بدورها · تلك قصة قديمة، لكنها متجددة على الدوام ·

ويحسن من يريد أن يبلغ فكرة محددة عن سيكولوجيةالفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر صنعا لو أنه استدار الى الكتـــاب الروسي في الفترة التي تبدأ بنهاية حكم الامبراطور نقولا الاولوحتى أيامنا · وسيرى نفس غياب فهم التاريخ ، ونفس الكبوشية ، ونفس التناقضات ! صحيح انه كان هناك ايضا اشتراكيون بين الكتـــاب الروس في تلك الفترة ـ مثـــــل تشيرنشيفيدسكي ـ ولكن كان هناك كثيرون لم يقفوا ضد «**البورجوازية**» الا نتيجة سوء فهم فحسب،لانهم كانوا عاجزين عن تقدير دلالة مطالبهم · فكتابنا «القانونيون» كثيرا ما يريدون تماما ما أراده هولباخ واصدقاؤه ، لكنهم من السذاجــة بحيث يعتبرونه اشتراكية · وكان الفرنسيون العظـام على استعداد لان يقسموا بأن هـــذه هي الفلسفة ، أما نحن فاننـــا مقتنعون بأن الزهرة تعطر بنفس الرائحة أيا كان الاسم الذي يطلق عليها ·

وفي حين كان هولباخ يعتنق الى حــد كبير الاراء الاقتصادية التي طرحها الفسيوقراط ـ وكان يجزل لهم الثناء على الدوام(٨٥) ـ فانه لم يقاسمهم ميلهم نحو « الحكم المطلق القانوني » ، لقـــد كان نصيرا متحمسا للحكومة النيابية ، ولم يكن الحكم المطلق بالنسبة له شكل حكم على الاطلاق: «لا يمكن النظر الى الحكم المطلق الا كصراع غير متكافيء بين فصيلة أو عدةفصائل مسلحة ومجتمع اعزل»(٨٦)· وسأل فيلسوفنا نفسه عدة «**اسئلة طبيعية** » كان يمكن أن تجـد تفهما في الجمعية التأسيسية الفرنسية · وكانت هذه الاسئلة بالغة الدلالة هي :

« أينبغي أن يخضع الكل لاحد اجزائه ؟ أينبغي لارادة رجل واحد أن تخضع ارادة الجميع ؟ أهناك في أي مجتمع كائن ممتـــاز يستطيع أن يتخفف من واجب أن يكون كائنا مفيدا ؟ هل الملك هو الشخص الوحيد المتحرر من كل الروابط التي تربط الاخرين معا ؟ أيمكن لرجل واحد أن

---

(٨٥) « كتاب متحمسون فاضلون » ، « مواطنون امناء » ، « ما من شيء يمكن ان يضاف الى الاراء المفيدة التي أملاها عليهم حرصهمعلى الصالح العام » (« الاثيوقراطية » ص ١٤٤ ـ ١٤٥) ·

(٨٦) « السياسة الطبيعية » ـ ص ٤٤ ·

يربط الجميع معا دون أن يرتبط هو نفسه بهم ؟ هل حيازة سلطة ملكية ـ وهي غير عادلة في منشئها ، تصان بالقوة ، ولا يسمح بها الا نتيجة ضعف ـ لقبا لا يمكن ان تحطمه العدالة والعقل والقوة ؟ » ٠

ان هذا يذكرنا بالتعبير الشهير : « اذن فسنصبح بدورنـــــا فاتحين » (٨٧) ٠ والفقرة التالية تذكر المرء بمشهد آخر من مشاهد الثورة العظمى :

« ليست السلطة الملكية سوى حرب الفرد ضد الكل حالما يتجـــاوز الملك الحدود التي رسمتها له ارادة شعبه » ٠

فماذا يمكن ان يقال ضد هذا **في قاعة لالعاب الكرة ؟** (٨٨) ٠

لقد اصطبغت كل كتابات هولباخ تقريبا بحقـــــد لا يفتر على الحكم المطلق ٠ ومن الواضح الملموس أن ما يكمن خلف كل ما قاله في هذا الشأن كان هو الواقع الاليم وليس نوعا من النظرية المجردة٠ وبنفس الطريقة لم تكن النظرية المجردة وانما الواقع الاليم ، هـــــو الذي جعله يدعو الى الحرية ـ «ابنة العدالة والقانون » ، و «موضع حب كل القلوب النبيلة» ٠ لقد كان كثيرا ما يبدو وكأنـــه يحس بقرب العاصفة السياسية ، فهو يقول «لا يستطيع المواطن ـ ما لم يتخل عن واجبه ـ أن يرفض الوقـــوف في صف بلاده ضـــد الطاغية الذي يقهرها » ٠ ومن يعرف ؟ ربما قيلت هذه الكلمات ـ قبل أن تخط على الورق ـ ورددت في مناقشة فلسفية في منـــــزل هولباخ حيث يقول موريللي انه كانت تتردد فيه كلمات يستحق المنزل من أجلها انتصيبه الصواعق مئات المرات لو أن الصواعق تهبط لمثل هذا السبب٠ وربما

(٨٧) في احدى اجتماعات المجلس العام أشار ممثلو النبلاء والكهنة الى حق الفتح التاريخي باعتباره اساس امتيازاتهم ، فرد عليهـــم المنظر البورجوازي ايمانويل سييز باعتزاز قائلا : « أهـــذا كل شيء أيها السادة ؟ اذن فسنصبح بدورنا فاتحين » ـ المترجم ٠

(٨٨) في ٣٠ يونيو ١٧٨٩ اجتمع ممثلو الطبقة الثالثة في قاعـــة لالعاب الكرة في احد قصور فرساي ، وأعلنوا من انفسهم الجمعيـــة الوطنية الفرنسية ، وأقسموا ألا يغادروا القاعة حتى يوضـــع الدستور ـ المترجم

كان ديدرو على وفاق مع هولباخ بل لقد مضى الى أبعد منه ، وربما صفق جريم استحسانا ··· يا للرجل البائس ! لقد اضطــر الى أن يغير آراءه حين هبت العاصفة ، لا في صالون مترف وانما في ساحة تاريخية واسعة ·

والحق هل كان يمكن أن يكون سلوك هولباخ افضل من سلوك جريم بعد العاشر من اغسطس(٨٩)؟ أكان يمكن أن يردد في اجتماع لليعاقبة«**أليس الطاغية هو أبشع مخلوق يمكن ان تلده الجريمة**»؟(٩٠) بصراحة لا نستطيع ان نقطع بشيء في هذا الشأن ، لكن الارجح انه لم يكن ليجد شيئا يجمعه مع الجمهوريين «المتوحشين» وانه كــان سيعتبرهم بدورهــم طغاة واعداء للوطــن ومهووسين وغشاشين سياسيين ·

كان هولباخ يحترم الحرية ، لكنه كان يخشى « **الاضرابات** » ، وكان على ثقة من أنه «في السياسة كما في الطب كان العلاج العنيف خطرا دائما» ، ولقد كان على أتم الاستعداد لان يتعامل مع ملك ما لو أن هذا الاخير كان «فاضلا» · ورغم انه قال ان مثــل هؤلاء الملوك نيازك نادرة للغاية فقد ظل دائما يحلم «بحكيم على العرش»· وجاءت لحظة ـ اثناء وزارة تورغو ـ تصور فيها ان حلمه قد تحقق، وأهدى كتابه « الايثوقراطية » الى لويس الســادس عشر « الملــك العادل الانساني الخير ، صديق الحقيقة والفضيلة والبساطة، وعدو النفاق والرذيلة والادعاء والطغيان ، مرسي النظام والقانون وأبو الشعب» وهكذا وهلم جرا ···

وربما غير رأيه في لويس السادس عشر بعد ذلك لكن خوفه من الحركة الشعبية « غير المنظمة » ظل معه · فلدى هولباخ كان الشعب يتألف من «الفقراء» ، لكن «الفقر الذي كثيرا ما يصبح ألعوبة في يد اهواء السلطة ونزواتها اما يفسد قلب الانسان او يدفعه الى العنف»·

---

(٨٩) في العاشر من اغسطس ١٧٩٢ الغيت الملكية في فرنسا نتيجة هبة شعبية · واستولت الجماهير على قصر التويليري الملكي بالقوة ، وأجبرت الجمعية التشريعية على الغاء السلطة الملكية · وألقي القبض على الملك وأودع السجن ـ المترجم ·

(٩٠) المصدر السابق ـ المجلد الاول ـ ص ١٤٤ ـ وسنستشهد على الدوام بهذا الكتاب ونحن نعرض آراء هولباخ السياسية ، ونشير الى المصادر الاخرى حيثما كانت ضرورية ·

وطالما ظل «الانسان الفقير» يتحمل ظروفه «فان نشاط روحه يتحطم تماما ، انه يحتقر نفسه ، لانه يرى نفسه موضع الاحتقار والنبذ العام » (٩١) ، لكن الامر يصبح اسوأ اذا ما ثار :

« ان نظرة عارضة الى تاريخ الديمقراطيات القديمة والحديثة ستبين أن الحمى والتمرد كانت هي عادة مستشار الشعب » (٩٢) ، « وحيثما يستولي الشعب على السلطة تحمل الدولة في داخلها بذور دمارها » (٩٣) ٠

ولو كان على هولباخ ان يختار بين الملكية المطلقة وبين الديمقراطية لفضل الحكم المطلق ٠ لقد كان مونتسكيو على خطأ كبير حين قال ان الفضيلة هي القوة الدافعة لشكل الحكم الجمهوري ٠ فللجمهورية وثن آخر : **المساواة** ، « **تلك المساواة التي لا نقابلها في في الروايات ، والتي ليست ــ في الجوهر ــ شيئا آخر غير الحسد**» ٠ ان طغيان الديمقراطية هو «**أقسى**» أشكال الطغيان و **أقلها معقولية**» ٠ ولم ير هولباخ في الصراع الطبقي في اثينا القديمة الا « عنف الغوغاء » ، ولم تثر فيه الثورة الانجليزية الاولى الا الفزع من «الهوس الديني» للشعب ٠ « فما من شك ان الشعب لم يخلق ليحكم، انه عاجز عن ذلك ، وسرعان ما ستتدهور الحرية بعيدة المدى لديه الى تجاوز غير محكوم ٠٠٠ » ، لقد خلق «لينشط» ، « فالخمول يحوله الى الشذوذ والوقاحة » (٩٤) ٠ وينبغي كبح الشعب وحمايته من حماقته ٠

وكان المثل الاعلى السياسي لدى فيلسوفنا هو ــ ملكية دستورية تعطي الحرية الكاملة لبورجوازية مثقفة « فاضلة » ٠ مواطن ملك (وكثيرا ما استخدم هولباخ هذا التعبير) انتخبه زملاؤه المواطنون

---

(٩١) « الاثيوقراطية » ــ ص ١١٩ــ١٢٠ ٠ « ان شعبا مجبرا على العمل من اجل العيش عاجز عادة عن التفكير » (« نظام الطبيعة » ــ المجلد الثاني ــ ص ٢٤٨) ٠

(٩٢) « السياسة الطبيعية » ــ المجلد الثاني ــ ص ٢٣٨ ٠

(٩٣) المصدر السابق ــ ص ٢٤٠ ٠

(٩٤) المصدر السابق ــ ص ١٨٥ ، وانظر أيضا «السياسة الطبيعية» ــ المجلد الثالث ــ ص ٨٥ ٠

كي يكون جهازا لارادة «الجميع» ومنفذها ، وطبقة من الملاك كمفسر لهذه «الارادة» ـ هذا ما كانت السيدة «الطبيعة» تدعو اليه على لسان هولباخ ٠

ويخطيء لانج كثيرا حين ينسب له مذهبا « راديكاليا » في السياسة (٩٥) ٠ فقد كانت الراديكالية شيئا مستحيلا نفسيا لدى فلاسفة القرن الثامن عشر ٠ ونحن نعرف مما سبق أية فكرة كانت لديهم عن الشعب (وما كان يمكن ان تكون لديهم فكرة أخرى فقد كان الشعب الفرنسي عندئذ ـ كالمادة لدى الميتافيزيقيين ـ كتلة ميتة ساكنة)، وبالتالي لم تتبق سوى بورجوازية متفلسفة ليبرالية ٠ وفي المقام الاول فان الراديكالية المتسقة بعيدة المدى مذهب لا يتلاءم مع البورجوازية كطبقة ، حتى في اكثر لحظات حياتها التاريخية ثورية (وقد اثبتت الثورة الفرنسية ذلك تماما) ٠ كذلك فهل يمكن ان يكون «من يفكرون» كبيري العدد ؟ هل يمكن اعتبارهم قوة سياسية قادرة على هز النظام من قمته الى قاعه ؟ كأن الفلاسفة يدركون جيدا ان الامر ليس كذلك ، وهذا هو السبب في انهم كانوا يعودون دائما الى حلمهم في وجود «حكيم على العرش» ، يبدأ في تحقيق أمانيهم ٠

وها هنا واقعة مفيدة ذات دلالة ! حين اصبح تورجو وزيرا كتب هولباخ «الراديكالي» ، هذا العدو اللدود للطغاة والمستبدين يقول ان **الحكم المطلق** مفيد للغاية اذا بدأ في القضاء على التعسفات، والغاء الظلم ، وتصحيح الرذائل وما الى ذلك ٠ وكان من رأيه أن «الحكم المطلق يمكن ان يكون افضل الحكومات لو ضمنا أن يمارسه دائما أمثال تيتوس وتراجان وانطونيوس» ، لكنه لم يكن يستطيع أن ينسى انه «عادة ما يقع في أيدي اناس غير قادرين على ان يستخدموه بحكمة»(٩٦) ٠ وفي الوقت نفسه فقد اعتقد عندئذ أن العرش الفرنسي قد آل الى تيتوس ، وما كان يريد شيئا افضل ٠

اننا نحتاج الى ركيزة اجتماعية اذا أردنا اصلاح المجتمع ٠ وحيثما لا توجد هذه الركيزة فان ««راديكالية» الساخطين على السلطة

---

(٩٥) مرجع سابق ـ ص ٣٨٠ ـ وبالمناسبة لم يكن لانجيشير الا الى «نظام الطبيعة» ٠ ومن الواضح انه لم يعرف شيئا عن «السياسة الطبيعية » أو « الايثوقراطية » أو « النظام الاجتماعي » أو « الاخلاق الكلية » ٠

(٩٦) « الايثوقراطية » ـ ص ٦ ٠

القائمة أبعد ما تكون عن الاصرار . وقد رأينا هذا في روسيا عند وصول اسكندر الثاني الى العرش ، فحين عالج مشكلة الغاء نظام القنانة أعلن «راديكاليونا» ـ مثل هرزن وباكونين ـ أن حكمة الامبراطور قد «هزمتهم» ، وشربوا نخب تيتوس الروسي . وحتى تشيرنشيفيسكي كان على استعداد لان يعترف بأن الحكم المطلق هو افضل أشكال الحكم حين « يقضي على التعسفات ويلغي الظلم وما الى ذلك » . وذات مرة قال بلينسكي ـ ألمع واشجع المتحدثين باسم «النزعة الغربية» (٩٧) في الادب الروسي اثناء حكم نقولا الاول ـ وذلك قبل ثمانية عشر شهرا من وفاته ، أي حين كان اكثر راديكالية من ذي قبل ، ان كل تقدم ، وأي تقدم ، يأتي في روسيا من أعلى . وكان نيقولا الاول اشبه بأي شخص آخر منه «بتيتوس» او «تراجان» . ولكن أكان في وسع بلينسكي أن يفكر بطريقة أخرى ؟ على أي شيء آخر كان يستطيع أن يعلق آماله ؟ لقد كان الشعب الروسي ـ من وجهة نظر انصار النزعة الغربية ـ كتلة ميتة ساكنة، لا تساوي شيئا دون قيادة خالق démiurge . وبعد عدة عقود ، حين بدأت حركة ثورية بين طلابنا الشبان ـ «الانتيليجنتسيا» لدينا ـ أفلتوا من هذا المأزق بقطع صلتهم «**بالمغرب**» ، زاعمين أن الروس اكثر نضجا للثورة و «للاشتراكية» من أي شعب آخر . وهكذا فان انصار بلينسكي وتشيرنشيفيسكي اصبحوا الان – في الجوهر ـ من **السلافوفيل المتمردين** (٩٨) .

---

(٩٧) كان انصار «النزعة الغربية» ـ وهو اتجاه فكري ظهر في روسيا في منتصف القرن التاسع عشر ـ يرون أن على روسيا ان تتبع نفس مسار التطور الذي اتبعه الغرب (ومن هنا جاءت التسمية) ، وقد أكدوا دور البورجوازية التقدمي ، ودعوا الى ملكية دستورية على شاكلة بريطانيا ، واتسم جناحهم اليساري بأفكار اشتراكية طوباوية ـ المترجم

(٩٨) «السلافوفيل» اتجاه سياسي محافظ ظهر في منتصف القرن التاسع عشر ، ونادى باتباع روسيا لطريق خاص للتطور تختلف عن طريق أوروبا الغربية ، وذلك لما تتميز به من «خصائص» مثل «خضوع» الشعب الروسي ، و «عدم وجود» أي انقسامات طبقية في تاريخه . وترجع هذه «الخصائص» في زعمهم الى روح الارثوذكسية التي يعتنقها الشعب

يقول هولباخ « كثير من الملوك لا يحكمون بهـذه القسوة الا لانهم لا يعرفون الحقيقة ، وهم يكرهون الحقيقة لانهم لا يعرفون مزاياها التي لا تقدر · أما الحاكم العاقل فانه لن يحتفظ أبدا بسلطته غير المحدودة، وسيضحي بجزء منها حتى يستخدم على نحو أفضل ما بقي منها لديه»·

ولقد ترددت الفكرة نفسها بعد عدة سنوات على لسان السيدة تسيربيكوفا في رسالتها الشهيرة الى اسكندر الثالث، وما كانت هذه السيدة لتزعم لنفسها أية راديكالية (٩٩) · وحين اصدر الامبراطور الالماني في بداية تسعينات القرن التاسع عشـر مراسيمه عن مسألة العمل (١٠٠) ، كانت الصحافة الليبرالية و «الراديكالية» الروسيـة على ثقة من أن المانيا يحكمها «ملك عاقل» ·

وكان«الحكيم على العرش» هو الاله الذي ينهي المسرحية (١٠١) لدى فلسفة القرن الثامن عشر ، لانه يستطيع ان يحل على الفور كل المصاعب النظرية ، وكل التناقضات المنبعثة من الزاوية الميتافيزيقية التي كان «الفلاسفة» ينظرون منها الى كل الظواهـــر الاجتماعية · كيف كان رجل التنوير الفرنسي يرى مسار التاريخ ؟ كان يراه تتابعا

الروسي · ويعني بليخانوف «بالسلافوفيل المتمردين» هنا «الغارودنيك» الذين كانوا يقولون بامكان تجنب طريق التطور الرأسمالي في روسيا القيصرية ، وامكانية الانتقال من شكل «مشاعية القرية» مباشرة الـى شكل الملكية الاشتراكي الارقى ـ المترجم ·

(٩٩) سألت السيدة تسيربيكوفا في رسالتها الامبراطور « مـــاذا سيقول التاريخ عنك اذا ظللت تحكم بنفس الطريقة القديمة » · وقـــد أشر القيصر على هامش رسالة هذه السيدة قائلا «وفيم يعنيك هذا ؟»·

(١٠٠) أعلن الامبراطور الالمـــاني ويلهلم الثاني قبيل انتخابـــات الريشستاغ في فبراير ١٨٩٠ تأييـــده لصدور قوانين تحدد ساعات العمل ، وأصدر عدة مراسيم للتحضير لعقد مؤتمر قومي لبحث مسألة العمل ومؤتمر دولي لدراسة تشريعات العمل ـ المترجم ·

(١٠١) deus ex machina · كان كتاب المسرح في العصر القديم يلجأون أحيـــانا الى تدخل الاله لحل عقـــدة المسرحية وكانوا يستحضرونه بمعونة الادوات المسرحية ، ومن هنا جاءت هذه العبارة التي تعني حرفيا « الله (يخرج) من الآلة » ـ المترجم ·

لا ينتهي من احداث اغلبها حزين ، لا يربطها رابط داخلي، ولا تخضع لنموذج ما · وكان كونديياك يقول لتلميذه :

«ستشهد أحيانا أوقاتا سعيدة حين تؤدي المعرفة والقوانين والاخلاق الى ازدهار الدول · لكنك ستشهد في اغلب الاحيان اوقاتا تعيسة حيث يسبب الجهل والتحيزات والاخطاء والخطايا الكوارث للشعوب ، وتدمير اكثر الامبراطوريات ازدهارا » (١٠٢) ·

«فلماذا كان الامر كذلك ؟ بسبب الافتقار الى «التنوير» ·

« فالفنون والعلوم ـ التي ولدت في قلب البربرية ـ لم تنور الا عددا من الامم الممتازة على التوالي ، وهذا نور يخفي نفسه عن البعض بقدر ما يكشف عن نفسه للبعض الاخر ، ودائما ما لا يضيء الا منطقة محدودة » (١٠٣) ·

وعبر فولتير عن نفس الاراء بمزيد من الاحكام والقوة في «بحث عن الاخلاق» ، فهو يقول « **ان العقل انما يبدأ يقظته** » · وهكذا لم يكن في وسع الماضي أن يشهد الا اللاعقل والجنون ، واللاعقل والجنون لا يتبعان أي قوانين ، وهما ـ عموما ـ لا يستحقان الدراسة، ويكفي ان نقرر وجودهما · يقول فولتير عن متوحش آسيا : «ان عصورهم القديمة لا تستحق وصفا تايخيا الا بقدر ما تستحقه **الذئاب والنمور** في بلادهم » (١٠٤) · بيد ان فولتير كان من أروع دارسي التاريخ الذي اولاه جانبا كبيرا من وقته · وقد أثار الشك كثيرا في رأس «**اميله المقدس**» الذي لم يستطع ان ينهي كتابا جادا عن تاريخ الشعوب الحديثة (١٠٥) · وقليلون هم الذين كانوا يعرفون عن التاريخ ما يعرفه فولتير ·

---

(١٠٢) « دروس لتعليم أمير بارم » ـ جنيف ـ ١٧٧٩ ـ المجلد الرابع ـ ص ١ـ٢ ·

(١٠٣) المصدر السابق ـ ص ٢ ·

(١٠٤) « بحث عن الاخلاق » ـ الفصل الثالث والخمسون ·

(١٠٥) انظر مقدمة « بحث عن الاخلاق » ·

يقول هولباخ « يبدأ الانسان بأكل ثمار البلوط ومنازعة الوحوش طعامه ، وينتهي بقياس السماوات · وبعد ان يفلح الارض ويبذرها يبتدع الهندسة ، وكيما يحمي نفسه من البرد غطى نفسه أولا بجلود الحيوانات التي تغلب عليها لكنك تراه بعد عدة قرون يضيف الذهب الى الحرير · وكان مسكنه الاول كهفا أو جذع شجرة لكنه ينتهي بأن يصبح مهندسا معماريا ويقيم القصور » (١٠٦) ·

ونستطيع في أيامنا هذه ــ ودون أن نذكر **ماركس وانجلز** ــ أن نشير الى **مورغان** ، الذي جعل نقطة انطلاقه تطور قوى البشرية الانتاجية ، مما مكنه من أن ينفذ بنجاح الى سر تقدمها التاريخي · ولم يدرك هولباخ أبدا حتى انه طرح الحقائق الاساسية للتاريخ الانساني ، فهو لم يفعل ذلك الا لكي يوضح الانتصارات التي أحرزها «العقل» ، وليثبت في مواجهة روسو أن الحياة المتمدينة أفضل من الحياة الوحشية ·

« حين تقع البشرية في الخطأ تصبح تعيسة » ــ تلك باختصار هي فلسفة هولباخ عن التاريخ (١٠٧) · ولو كان عليه أن يمضي الى مزيد من التفصيل لاضاف أن مدنية العصر القديم قد انهارت نتيجة « **الترف** » ، وأن الاقطاع قد انبعث عن « **السلب والاضطرابات والحروب** » ، وأن «شارل الاول كان لا بد أن تقطع رأسه بسبب المنازعات الدينية وافتقاره الى التسامح» ، وأن يسوع كان دجالا الخ ··· ولكم كان سيدهشه كثيرا أن يعرف أنه لم ير هنا سوى « قشرة الظواهر » ·

ولم ير «الفلاسفة» في التاريخ سوى النشاط الواعي للناس («الحكماء» الى حد أو آخر، لكنهم كثيرا ما يكونون على العكس كما رأينا من قبل) · غير ان من لا يتبين في التاريخ سوى نشاط الناس الواعي انما يضيق أفقه كثيرا ، ويصبح سطحيا الى حد يثير الدهشة· ففي كل حركة تاريخية عظيمة نرى ــ على رأس معاصريهم ــ أناسا يعبرون عن اتجاهاتهم، ويصوغون تطلعاتهم· وبالطريقة نفسها قد يظهر آخرون يركبون موجة الرجعية السياسية ، ويصارعون

(١٠٦) « النظام الاجتماعي » ــ المجلد الاول ــ ص ١٩١ ·

(١٠٧) « نظام الطبيعة » ــ المجلد الاول ص ٣٢ ــ وانظر ايضا مقدمة « النظام الاجتماعي » ·

اتجاهات التجديد · ولو أن التاريخ لا يتألف الا من نشاط الانسانية الواعي ، فان «الرجال العظام» وحدهم هم بالضرورة سبب الحركة التاريخية · وسينتج عن ذلك ان الدين والاخلاق والسلوك والعادات، وطبيعة شعب ما بأسرها ، هي من ابداع رجل عظيم او عدة رجال عظام ، تصرفوا وفي نظرهم أهداف محددة · فلنر ما يقوله هولباخ عن الشعب اليهودي · قاد موسى بني اسرائيل في الصحراء ·

« وعودهم على الطاعة العمياء ، وعلمهم ارادة السماء، والاسطورة الرائعة عن اسلافهم ، والطقوس الغريبة التي يربط بها الرب افضاله ، وفي المقام الاول ألهمهم حقدا ضاريا على آلهة الامم الاخرى ، وقسوة بالغة ضد عبدتها · وبقوة المذابح والشدة أحالهم الى عبيد طيعين لارادته ، مستعدين لمساندة اهوائه ، وللتضحية بأنفسهم لتحقيق مخططاته الطموحة · وباختصار فقد أحال العبريين الى وحوش محمومة ضارية· وبعد أن غرس فيهم روح التدمير هذه اراهم اراضي جيرانهم وممتلكاتهم ، التي خصهم الله ذاته بها » (١٠٨) ·

ومن هذه الزاوية لم يكن تاريخ الشعب اليهودي خارجا عن المألوف . فلقد كان لكل شعب موساه ، وان لم يكن هؤلاء ابدا في قسوة موسى بني اسرائيل، اذ كان هولباخ وفولتير يريان أن التاريخ لم يشهد أبدا شعبا شريرا كبني اسرائيل ·

« وعادة كان ينبعث من قلب الامم المتمدينة اشخاص يجلبون العادات الاجتماعية والزراعة والفنون والقوانين والالهة والمعتقدات والاراء الدينية الى الاسر او القطعان التي كانت ما تزال مبعثرة لم تتحد بعد في اجسام قومية · لقد صهروا أخلاقهم ، وجمعوهم معا ، وعلموهم أن يحولوا قواهم لمعاونة ومساعدة بعضهم البعض لاشباع احتياجاتهم بيسر اكبر ، واذ يجعلون وجودهم بهذه الطريقة اكثر سعادة فانهم يكسبون حبهم وتوقيرهم ، ويكتسبون الحق في املاء الاراء » (!) « ويجعلونهم يتبنون تلك الاراء التي ابتدعوها بأنفسهم واستعاروها من البلدان المتمدينة التي جاءوا منها · ويبين لنا التاريخ أن اشهر

(١٠٨) « المسيحية منزوعة القناع » ـ ص ٣٥ ·

المشرعين كانوا أناسا اغتنوا بالمعرفة المفيدة القائمة لدى الامم الراقية

فجلبوا الى المتوحشين الجاهلين العاجزين فنونا لم يكونوا يعرفونها بعد. وهكذا كان أمثال باكوس واورفيوس وتريبتوليميوس الخ»(١٠٩).

هل مرت كل شعوب اليوم المتمدينة بحالة الوحشية في بداية تطورها؟ كان هذا السؤال ــ الذي يمكن الاجابة عليه اليوم بسهولة ــ يثير قدرا ليس بالقليل من الاضطراب لدى فيلسوفنا . فلم يكن لديه رأي راسخ عن منشأ الجنس الانساني ، فكيف اذن كان يستطيع ان يقدم وصفا لظرفه الاجتماعي البدائي ؟ وربما كان الارجح أن كل الشعوب المتمدينة قد بدأت من الوحشية. ولكن كيف يمكن ان نصف ظرف الوحشية هذا ذاته ؟ عند هذه النقطة يظهر الاله الذي ينهي المسرحية من جديد ــ الاضطرابات الارضية الرهيبة التي حدثت في كرتنا الارضية . وربما كانت هذه الاضطرابات قد دمرت اكثر من مرة الجانب الاكبر من البشرية ، واولئك الذين لم يهلكوا لم يستطيعوا أن ينقلوا الى الاجيال التالية المعرفة والفنون التي كانت موجودة قبل مثل هذه الكوارث . وهكذا فان من الممكن أن يكون الناس قد ألقوا مرة أخرى الى التخلف في اكثر من مناسبة بعد أن وصلوا الى مستوى معين من المدنية .

« وربما كانت هذه التجديدات الدورية للبشرية هي التي سببت الجهل الشديد الذي نراها غارقة فيه اليوم بالنسبة لامور من اكثر الامور اهمية لها . وربما كان هذا هو المصدر الحقيقي لنواقص معرفتنا ، ونواقص المؤسسات السياسية والدينية » (١١٠) .

ولقد رأينا من قبل انه ليس مقدرا للانسان ــ عند هولباخ ــ أن يعرف هل البيضة هي التي سبقت الدجاجة أم الدجاجة هي التي سبقت البيضة . وها نحن نرى الان انه لم يكن مقدرا لهولباخ ان يعرف هل المدنية هي التي سبقت البربرية أم البربرية هي التي سبقت المدنية .

وقد اكتفى هولباخ بأن يعرف أن « البشرية اصبحت تعيسة نتيجة للخطأ» **الذي ينبغي تخليصها منه** ، وهو لم يدخر جهدا أو مالا

(١٠٩) «نظام الطبيعة » ــ المجلد الثاني ــ ص ٢٤ــ٢٥ .

(١١٠) المصدر السابق ــ ص ٢٥ــ٢٦ .

في اداء هذه المهمــة النبيلة ، لقد وهب حياته كلها للنضال ضــد «**التحيزات**» ، واكثرها رسوخا وضررا هي التحيزات الدينية • وقـد شن فيلسوفنا نضالا لا يفتر ضدها • وكان فولتير في صراعه ضــد «العار» قد اعفى «الكائن الاسمى» واكتفى بأن يحــاول دفعه الى العقل • لقد كان دستوريا في أمور الدين • وكان ما يريده هو تقييد قدرة الله بفعل قوانين الطبيعة الابدية كما فسرها «الفلاسفة» • أمـا الماديون الفرنسيون فكانوا جمهوريين متحمسين في المسائل الالهية ، لقد اعدموا الرب بالجيلوتين حتى قبل ايام الدكتور صلوتن الطبيب • وكرهوه كأنه عدو شخصي : فهذا الطاغية المتحكم المنتقم القاسي قد أثار فيهم الغضب النبيل للانسان والمواطن •

يصيح هولباخ قائلا : « من المستحيل أن تحب كائنا لا يمكن لافعاله الا أن تثير الرعب ••• كيف يمكن للمرء ان ينظر دون فزع في وجـه اله يعتقد أنه من الوحشية بحيث يديننا ؟ ما من انســان على الارض يمكن ان يشعر بذرة حب لاله يعد عقوبات لا نهائية في أمدها وقسوتها لتسعة وتسعين بالمائة من ابنائه ••• وعليكم ايهــا اللاهوتيون أن تستخلصوا أنه ـ طبقا لمبادئكم نفسها ـ فان الله اكثر شرا من أشـد البشر شرا » (١١١) •

وكان الماديون الانجليز المعاصرون لهولباخ يرتبطون بعلاقات اكثر ودا مع اله اليهود العجوز ، انهم لم يكونوا يكنون له ســوى «**مشاعر الحب**» و «**الاحترام**» ، ذلك انهم كانوا يعيشــون في ظروف اجتماعية مختلفة تماما • ان جسمين يتألفــان من نفس العناصر ـ وانما بنسب مختلفة ـ ليست لهما نفس الخصائص الكيميائية • بـل اكثر من هذا: ان الفسفور الاصفر يختلف كثيرا عن الفسفور الاحمر، ولا يثير هذا دهشة أي من الكيميائيين، بل هم يقولون ان الامر يتوقف على التركيب الجزيئي لنفس العناصر • غير ان الناس دائما مــا يصابون بالدهشة حين يرون أن نفس الافكار قد لا يكون لهــا نفس اللون ، ولا تؤدي الى نفس النتائج العملية في مختلف البلاد التي قد تكون عموما متماثلة الى حد كبير في التركيب الاجتماعي • ان حركة الافكار ليست سوى انعكاس للحركة الاجتماعية : وتتمشى مختلف

(١١١) « الحس السليم » ـ المجلد الاول ـ ص ٨٩ـ٩٣ •

الطرق التي تتبعها الافكار ، ومختلف صبغاتها المتغيرة على الدوام ، بالتحديد مع مختلف تجميعات القوى في الحركة الاجتماعية · وتتوقف اشكال **الفكر** دائما على اشكال **الوجود** (١١٢) ·

يقول بريستلي (١١٣) المادي **الانجليزي** « لا يمكن لاحد أن ينكر أن الفضيلة سيكفلها بشكل فعال الايمان بجزاء كاف فيحياة مقبلة ، على كل خير او شر صنع في هذه الحياة » (١١٤) · وكان **الربوبي** الفرنسي فولتير يشاطره هذا الرأي،وقد كتب بطريرك فيرني كثيرا من الحماقات في هذا الشأن · أما المادي **الفرنسي** هولباخ فكان يرى أن :

« كل الناس تقريبا يؤمنون بالله ينتقم ويكافيء ، ورغم هذا نجد ـ في كل البلاد ـ أن عدد الاشرار يفوق كثيرا عدد الاخيار · ولو أننا تتبعنا السبب الحقيقي لمثل هذا الفساد العام فسنجده في الافكارالدينية ذاتها ، وليس في المصادر الموهومة التي ابتدعتها مختلف أديان العالم لتفسر الانحطاط الانساني · لقد فسد الناس لانهم يعانون من سوء الحكم في كل مكان تقريبا ، وهم يحكمون حكما سيئا لان الدين قد قدس الملوك ، وهؤلاء اذا أمنوا الحصانة وكانوا هم أنفسهم أشرارا ، جعلوا شعوبهم بالضرورة تعساء أشراراً · ان الشعوب ـ اذ خضعت لسادة لا معقولين ـ لم تسترشد أبدا بالعقل ، واذ أعماها الكهنة الدجالون اصبح عقلها عديم الجدوى لها ··· » (١١٥) ·

---

(١١٢) اننفس الفكرة حين يعبر عنها شخصان يتبعان غايات عملية مختلفة قد تتخذ دلالات مختلفة تماما · فالدين الحقيقي في أي بلد هو ـ عند هولباخ ـ دين الجلاد · ويقول هوبز ـ من حيث الجوهر ـ نفس الشيء · ولكن أي اختلاف بين معنى هذه الفكرة في فلسفة كل من الرجلين !

(١١٣) جوزيف بريستلي (١٧٣٣ ـ ١٨٠٤) ـ عالم كيمياء وفيلسوف مادي انجليزي بارز ـ المترجم ·

(١١٤) «مناقشة حرة لمذهب المادية والضرورة الفلسفية فيمراسلات بين الدكتور برايس والدكتور بريستلي » ـ لندن ـ ١٧٧٨ ـ المقدمة ص ٨ـ٩ ·

(١١٥) «نظام الطبيعة» ـ المجلد الثاني ـ ص ٢١٩ ·

وهكذا فان الدين يعتبر القوة الدافعة للتاريخ · ان ما أمامنا هو صورة مقلوبة من بوسويه ! (١١٦) لقد كان مؤلف « محاضرات عن تاريخ العالم » على ثقة من أن الدين سيرتب كل شيء على خير وجه ، في حين كان هولباخ يرى أنه يسير بكل شيء على اسوأ حال · وكان هذا الفارق هو الخطوة الوحيدة التي حققتها فلسفة التاريخ طيلة قرن · وكانت النتائج العملية لهذه الخطوة هائلة ، لكنها لم تساعد بأي حال في التوصل الى فهم للوقائع التاريخية · وعجز «الفلاسفة» عن الخروج من **الحلقة** المفرغة : من ناحية أن الانسان نتاج لبيئته الاجتماعية :

« ففي التربية ينبغي أن نبحث عن المصدر الرئيسي لرذائل الناس وفضائلهم ، للاخطاء اوالحقائق التي تمتليء بها رؤوسهم ، للعادات الحميدة او السيئة التي يعتادون ، للصفات والمواهب التي يكتسبون ··· » (١١٧) ·

ومن ناحية أخرى يكمن مصدر كل اضطراب المجتمع في«**الجهل بأوضح مباديء السياسة**» · فالبيئة الاجتماعية يصوغها « **الرأي العام** » ، أي الانسان ·

ويبدو هذا التناقض الاساسي مرة بعد الاخرى في أشكال مختلفة في كتابات هولباخ كما في مؤلفات كل «الفلاسفة» الآخرين ·

١ ـ **الانسان نتاج للبيئة الاجتماعية** · وينتج عن ذلك منطقيا أن **الرأي العام** ليس هو الذي يحكم العالم · ولنستمع الى هولباخ :

« ليس الناس سوى ما يصنعه بهم تنظيمهم ، الذي عدلته العادات ، والتربية والمثل الذي يضربه الاخرون والحكومة والظروف الدائمة أو الموقوتة · وأفكارهم الدينية ومذاهبهم المتخيلة مجبرة على أن تذعن أو تتكيف مع امزجتهم وميولهم ومصالحهم ··· » (١١٨) ·

---

(١١٦) جاك بيناين بوسويه (١٦٢٧ ـ ١٧٠٤) لاهوتي وعالم اجتماع فرنسي ، ومن منظري الكاثوليكية والحكم المطلق ـ المترجم

(١١٧) « نظام الطبيعة » ـ المجلد الاول ـ ص ١٥ ·

(١١٨) « نظام الطبيعة » ـ المجلد الثاني ـ ص ٢٩٨ ·

« والواقع انه لو تفضل المرء ببحث الامر في هدوء فسيجد ان اسم الله لم يستخدم أبدا على الارض الا كذريعة للاهواء البشرية» (١١٩)٠

« ان للموضوعات التي حولنا ، والمصالح الوقتية ، والعـــــادات المغروسة والرأي العـــام من التأثير اكثر من الكائنـــات المتخيلة او **التأملات التي تعتمد هي نفسها على هذا التنظيم** » (١٢٠) .

ويزيد من ضعف قوة «التأملات» و «الكائنات المتخيلة» انــك لا تكاد تجد رجلين بين كل مائة الفـرجل يمكن ان يتساءلا عما يقصدان بكلمة «الله»، وأن الناس لا تدفعهم الى العمل اعتبارات العقل العامة، وانما الاهواء ، كما لاحظ من قبل بايلي وسنيكا (١٢١) ٠

٢ ـ **الانسان نتــــاج للبيئة الاجتماعية** ٠ أما عن الالهة فـــان الانسان قد خلقها على صورته ٠ «فالانسان حين يقدس الالهة انمـا يقدس ذاته » (١٢٢) (انظر فيوربـــــاخ) ٠ أفليس واضحا أن الها متقلبا يستجيب للمديح ، ويحرص دومـــــا على قرابين العبادة من رعاياه ، قد خلق على صورة ملوك الارض ؟ (١٢٣) ٠

٣ ـ الانسان نتاج للبيئة الاجتماعية ٠

« ولو فكرنا قليلا فيما يدور أمام أعيننا فسنجد بصمـــات الادارة (أي « الحكومة » ، وسنرى فيما بعد كيف ولماذا كان تأثير البيئـــة الاجتماعية يختزل عند «الفلاسفة» في تأثير الحكومـــة) في شخصية الشعوب **وآرائها** وقوانينها وعاداتها وتربيتها واخلاقها » (١٢٤) ٠

---

(١١٩) المصدر السابق ـ ص ٢٩٤ ٠

(١٢٠) المصدر السابق ـ ص ٢٩٢ ٠

(١٢١) المصدر السابق ـ ص ٢٩٨ و ص ٢٩٥ ٠

(١٢٢) «الادراك السليم» ـ المجلد الاول ـ ص ٥٧ ٠

(١٢٣) « المسيحية منزوعة القناع » ـ ص ١٧٦ ٠

(١٢٤) «النظام الاجتماعي ـ المجلد الثالث ـ ص ٥ ٠ وقـــد مضى جريم حتى الى أبعد من ذلك **في هذا الاتجاه**٠ فهو يقول «ان تأثير اكثر الاراء جرأة هو عادة لا شيء ٠ فما من كتاب ـ مهمـــا كان ملهما ـ بقادر على ان يفسد الاخـــلاق ، وبنفس الطريقـــة لا يتوقف على أي

« وهكذا فان رذائل المجتمع هي التي تجعـــل أفراده اشرارا ٠٠٠ ويصبح الانسان ذئبا للانسان » (١٢٥) ٠

وهذا هو الجانب الاخر للنقيضة :

١ ـ البيئة الاجتماعية يصوغها « الرأي العام » ، أي الناس ٠ ويترتب على ذلك منطقيا ان الرأي العام يحكم العـــالم ، وأن الجنس البشري لم يتعسه الا انه اخطأ في حق نفسه (انظر ما سبق) ٠

يقول هولباخ « فاذا نحن رجعنا الى الخبرة فسنـــرى أن علينا أن نبحث في الاوهام والاراء الشريرة عن المصدر الحقيقي لهذا الحشد من الشرور التي تجتاح الجنس البشري في كل مكان ٠ فالجهل بالاسباب الطبيعية قد قاده الى خلق الالهة، وخداع الكهنة جعلها رهيبة، والمفهوم المشئوم عنها يطارد الانسان دون أن يجعله افضـل ، ويجعله يرتعش دون ثمرة ، ويملأ ذهنه بالاوهام ، ويعارض تقدم العقل ، ويمنعه مـن السعي الى سعادته ٠ وقد جعلته هذه المخاوف عبـــدا لاولئك الذين يخدعونه بدعوى الحرص على خيره ٠ لقد صنع الشر حين قيل له ان آلهته تطلب جرائم ، وهو يعيش في تعاسة لانهم قالوا له ان آلهتـــه حكمت عليه بالبؤس ، وهو لم يجرؤ أبدا على ان يقـاوم آلهته أو يلقي عنه اغلالها ، لانهم قالوا له ان الغباء والتنكر للعقل ، وخـــدر الذهن وتحقير الروح هي افضل وسيلة لتحقيق الهناء الابدي » (١٢٦) ٠

←

فيلسوف لسوء الحظ ٠٠٠ أن يكمل الاخلاق ٠ ولا تملـــك هذه السلطة سوى الحكومة والتشريع ، وبعد فعلهما فحسب تجد الاخلاق العامـــة مستواها الصحيح من الخير او الفساد ، وليس للكتب شأن بالامـــر » (« المراسلات الادبية » ـ يناير ١٧٧٢) ٠

(١٢٥) «السياسة الطبيعية» ـ المجلد الاول ـ ص ١١ـ١٢ ٠

(١٢٦) «نظام الطبيعة» ـ المجلد الاول ـ ص ٢٩٠ـ٢٩١ ٠ وهكـــذا يعرف سوارد الرأي العام : « وأنا اعني بالرأي العام نتـــاج مجموع الحقائق والاخطاء المنتشرة في أمة ما ، وهو نتاج يحدد أحكامها عما تحترمه وما تحتقره ، ما تحبه وما تكرهه ، ويشكل ميولها وعاداتهـــا ورذائلها ـ باختصار سلوكها ٠ هذا هو الرأي الذي يجب أن يقال عنه انه يحكم العالم » (مصدر سابق ـ ص ٤٠٠) ٠

٢ ـ البيئة الاجتماعية يصوغها الرأي العام ، أي الناس ٠

« فليس أقل من حمى باركتها السماء هي التي يمكن ان تدفع كائنات محبة للحرية ، وتسعى دوما الى السعادة ، الى ان تؤمن بأن طغاة السلطة العامة قد تلقوا من الالهة الحق في استعبادهم وتعاستهم ٠ **ولقد كان على الاديان أن تضفي ملامح الطاغية على الرب حتى تجعل الناس يؤمنون بأن الطغاة الظالمين هم الممثلون الارضيون لهذا الرب** » (١٢٧) ٠

٣ ـ البيئة الاجتماعية يصوغها الرأي العام ، أي الناس ٠

« فلماذا نرى أمما كانت من قبل كريمة وقد سحقتها الان القبضة البشعة لطغيان قاهر ، ذلك أن الرأي العام قد تغير ٠٠٠ أن الخرافة ـ شريك الطغيان ـ قد نجحت في الحط من الارواح وتحويلها الى أرواح جبانة فزعة لا تحس ٠٠٠ لماذا نرى أمما تنتشي بحمية التجارة وعاطفة الثروة؟٠٠٠ لان الرأي العام قد اقنعها أن المال وحده هو الذي يجلب السعادة الحقة ، في حين انه ليس سوى بديل خادع ، لا يسهم بشيء في الصالح العام » (١٢٨) ٠

« ان الامم لم تعرف أبدا شيئا عن الاسس الحقيقية للسلطة ، انها لم تجسر على ان تطلب السعادة من ملوكها ، المكلفين بأن يحققوها لهم ، لقد اعتقدت أن ملوكها ـ الذين يرتدون أقنعة الالهة ـ مخولون بحكم المولد أن يحكموا بقية الفانين ٠٠٠ ونتيجة لمثل هذه الاراء انحدرت السياسة الى فن بغيض للتضحية بهناء الجميع أمام نزوة فرد أو بضعة افراد أشرار ذوي امتياز » (١٢٩) ٠

وقد عرفنا من قبل أنه «ليس معدرا» للناس أن يعرفوا ما اذا كانت الدجاجة هي التي سبقت البيضة أم البيضة هي التي سبقت الدجاجة٠ ولم يكن مقدرا لماديي القرن الثامن عشر ان يعرفوا هل « الرأي العام » هو الذي شكل البيئة الاجتماعية أم البيئة الاجتماعية هي التي

(١٢٧) « السياسة الطبيعية » ـ المعلد الثاني ـ ص ١١ ٠
(١٢٨) « النظام الاجتماعي » المجلد الثالث ـ ص ٩ـ١٠ ٠
(١٢٩) « نظام الطبيعة » ـ المجلد الاول ـ ص ٢٩١ ٠

شكلت « الرأي العام » • والواقع أنه ما من شيء اصعب في الاجابة عليه من هذا السؤال بالنسبة لمن لم يعرف بعد كيف يتخلى عن وجهة النظر الميتافيزيقية •

فاذا لم تكن توجد افكار فطرية كما اوضح لوك ، اذا لم يكن الانسان سوى «حساسية» كما أكد ماديو القرن الثامن عشر ، واذا كانت صورنا الذهنية، أي «الصور والانطباعات التي تلقتها حواسنا» قد تولدت عن احساساتنا ، اذا «لم يكن الانسان حرا حين يفكر قدر ما يكون حين يفعل» ، فان من الغريب ان نبحث في «الرأي العام» عن سر أي فعل انساني • فصورنا الذهنية هي ما تصنعه الانطباعات التي ندركها • وليست الطبيعة وحدها ـ بالمعنى الضيق للكلمة ـ هي التي تولد هذه الانطباعات • فالبيئة الاجتماعية تستولي علىالانسان منذ مولده، وتشكل ذهنه، الذي «ليس سوى صلصال طيع قابل لتلقي كل الانطباعات التي تصل اليه » (١٣٠) • ومن هنا فان من يريد أن يفهم تاريخ «الرأي العام» لا بد أن يحاول ان يدرك بوضوح ما يعنيه تاريخ البيئة الاجتماعية ، تطور المجتمع • كانت تلك هي النتيجة التي لا مهرب منها والتي توصلت اليها في النهاية المادية الحسية • ولم يكن في وسع تمثال كوندياك الشهير أن يهدأ الا حين تمكن من أن يعزو التحولات في «آرائه» الى التغيرات في علاقاته الاجتماعية ، علاقاته «بأمثاله» (١٣١) •

وهكذا فالى التاريخ ينبغي أن نتجه • لكن «الفلاسفة» الذين لم يروا في التاريخ الا النشاط الواعي للانسان لم يستطيعوا أن يميزوا فيه الا «الاراء» الانسانية • وبالتالي كان لا بد لهم ان يصطدموا **بالنقيضة** التالية : الاراء **نتيجة** للبيئة الاجتماعية ، الاراء **سبب** مختلف صفات هذه البيئة • وكان لا بد لهذه النقيضة ان تثير الاضطراب في افكار الفلاسفة بشكل اكبر لانهم كانوا ـ ككل الميتافيزيقيين ـ يرون أن **السبب والنتيجة** ـ على الاقل بالنسبة للحياة الاجتماعية ـ فكرتين ثابتتين ، لا تتحركان ، بل متحجرتين •

---

(١٣٠) « الادراك السليم » ـ المجلد الاول ـ ص ٣٢ •

(١٣١) تحدث كوندياك في « بحث عن الاحساسات » (١٧٥٤) عن تمثال أخذ يضفي عليه الاحساسات واحدة وراء الاخرى ، وأوضح كيف أن هذا التمثال قد اكتسب ـ جنبا الى جنب مع هذه الاحساسات ـ كل الوظائف الذهنية والفكرية ـ المترجم •

وما كان في وسع جريم أن يقول ان **تأثير الاراء لا يعــــادل شيئا الا** كميتافيزيقي ٠

الفعل المتبادل بين مختلف جوانب الحيـــاة الاجتماعية ــ كانت هذه أرقى وجهة نظر توصل اليها «الفلاسفة» و «اكثرهـــا فلسفية» ٠ وتلك هي وجهة نظر مونتسكيو ٠ لكن الفعـــل المتبادل ــ وهو **التعبير الاكثر صدقا عن علاقة السبب والنتيجة** كما يقول هيجل ــ لا يفســـر شيئا في عملية الحركات التاريخية :

« فلو ان المرء لم يمض الى ابعد من النظر الى المحتوى من زاويـة الفعل المتبادل فحسب فذلك في الواقع أسلوب في النظر لا يحوي فكرة على الاطلاق ، اننا عندئذ نتعـــامل مع واقعة جـــافة ، ويظل مطلب الوساطة ــ وهو القـــــوة الدافعة لتطبيق علاقـــــة السببية ــ دون تحقق » (١٣٢) ٠

بل كثيرا ما تحدث أمور أشد سوءا حتى من هـــذا ٠ فالانسان نتاج للبيئة الاجتماعية ، وطبيعة البيئة الاجتماعية تتحدد بأفعـــــال «الحكومة» ،وأفعال الحكومة وأوجه النشاط التشريعي تنتمي بالفعل الى مجال **النشاط الواعي** للناس ٠ وهذا النشاط بدوره يعتمـد على «آراء» من يقومون به ٠ أن طرفا من طرفي النقيضة (الموضوع) قـد تغير بطريقة غير محسوسة، وأصبح متطابقا تماما مع خصمه القديم ــ نقيض الموضوع ٠ ويبـــــدو وكأن الصعوبة قد اختفت ٠ ويتابـــع «الفيلسوف» طريق «أبحاثه» بضمير هادىء ٠ وهكذا فانه يتخلى عن وجهة نظر الفعل المتبادل حالما يصل اليها ٠

لكن هذا ليس كل شيء ، ذلك أن هذا الحل الظاهري للنقيضـة ليس سوى ابتعاد كـــــامل عن المادية ٠ ان ذهن الانسان ، هـــذا «الصلصال الطيع» الذي تشكله الانطباعات التي تحدثها البيئـــة الاجتماعية قد تحـــول في النهاية الى صانع للبيئـــة التي يدين لها بانطباعاته ، وهكذا تعود المادية الحسية أدراجها على نفس الطريق اذ تعجز عن المضي الى ما هوأبعد ٠

وفي المقام الثاني ، يؤكد لنا مؤلف «نظام الطبيعة» ان من السهل

---

(١٣٢) « الانسكلوبيديا » ــ الجزء الاول ــ قام بنشرها ليوبولد فون هيننيج ــ الفقرتان ١٥٥ و ١٥٦ والاضافة ٠

للغاية تبين تأثير الحكومة على الشخصية ، والاراء ، **والقوانين** ، والعادات الخ ٠٠ وهكذا فان الحكومة تمارس تأثيرا على القوانين٠ ويبدو هذا بسيطا للغاية وواضحا تماما ، لكنه انما يعني أن القانون المدني لشعب ما ينشأ عن قانونه العام، وهكذا فان قانونا يتوقف على قانون آخر ، وتتوقف «**القوانين**» على «**قوانين**» أخرى ، وتختفي النقيضة ، وانما لسبب واحد هو أن احد طرفيها، ذلك الذي كان عليه أن يصوغ النتيجة النهائية التي تستخلصها المادية الحسية ، لم يكن في الواقع سوى تحصيل حاصل tautologie .

ولحل هذه الصعوبات كان ينبغي :

١ ـ التخلي عن وجهة النظر الميتافيزيقية التي تستبعد اية فكرة عن التطور ، والتي تثير اضطرابا عاجزا في مفهومات «الفلاسفة» المنطقية ٠ فهذا الشرط وحده كان يمكن ان يكون مقدرا لهم « أن يعرفوا هل البيضة هي التي سبقت الدجاجة أم الدجاجة هي التي سبقت البيضة ، سواء في العلوم الطبيعية أو التاريخية » ٠

٢ ـ والتوصل الى ايمان راسخ بأن «الطبيعة الانسانية» ـ التي كان ماديو القرن الثامن عشر يستندون اليها ـ لا تقدم تفسيرا على الاطلاق لتطور البشرية التاريخي ٠ كان ينبغي التوصل الى مرحلة تعلو وجهة نظر العلم الطبيعي ، أي التوصل الى وجهة نظر **العلم الاجتماعي**، كان ينبغي ان ندرك ان للبيئة الاجتماعية قوانين تطورها الخاصة التي لا تتوقف بحال على الانسان منظورا اليه « ككائن ذي حس ذكي عاقل»، وانها بدورها تمارس تأثيرا حاسما علىاحساساته، وصوره الذهنية ، وافكاره ٠

وسنرى ان مادية القرن التاسع عشر **الجدلية** ستؤدي هذه المهمة ، لكننا قبل ان نتعرض لاكتشافاتها الباهرة نود أن نستعرض أفكار رجل بين بالمثل الذي يقربه وبمنطقه الجريء عدم كفاية نظرة المادية المتيافيزيقية وضيقها ٠ وهذا الرجل هو **هلفيسيوس** ٠

٢ – هلفيسيوس

« أراد هلفيسيوس ـ ذلك الملتزم النبيل ورجل الاستقامة والايثار والخير الذي اطلق عليه فولتير في مذكراته اسم آتيكوس ـ أن يضع كتابا،وكيما يفعل ذلك أخذ يجمع نظريات الفلاسفة ونظراتهمومفارقاتهم وهم مجتمعون على مائدته ، وبمهارته في اثارة المناقشات المتعة كان يثير احيانا سخرية ديدرو المتألقة أو حكمة سوارد أو ذهن الابجالياني المتوقد اللاذع ، ثم بدأ يعرض في شكل مذهب مختلف الاراء التي سجلها بأمانة ٠ وكانت حصيلة هذه المناقشات كما سمعها ، وحللها ، ولخصها، هي كتابه «عن الروح» ، أي المادية في الميتافيزيقا، والمصلحة الشخصية في الاخلاق » (١) ٠

يعرف القاريء الان كيف ظهر كتاب هلفيسيوس الرئيسي ٠ ونستطيع في هذا المثل المحدد أن نمضي مع ديموجيه بمزيد من الثقة لان هذا الثرثار اللبق انما يكتفي بترديد الاكذوبة التي أخذت تنتقل طيلة قرن من ثرثار أدبي عجوز الى آخر ٠ وقد كان ديموجيه ثرثارا طيبا ، فهو لا يقول شيئاً سيئا عن هلفيسيوس، وانما يترك الاستنتاج للقاريء ٠ غير انه كان هناك ثرثارون آخرون أقل طيبة وأكثر صراحة٠ ومنهم يعرف القاريء أن الدافع الاساسي لابحاث فيلسوفنا كان غرورا لا حد له، والى هذا الغرور ندين «بسفسطة» هلفيسيوس، وهو قد منعه من أن ينجز عملا أساسيا باقيا ٠

ويتصف الثرثارون دائما بحدة ذهن بالغة ، وهم يميلون كثيرا

(١) ديموجو ـ « تاريخ الادب الفرنسي منذ نشأته حتى أيامنا » (الطبعة ٢٢) ـ باريس ١٨٨٦ ـ ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤ ٠ وكان هذا الكتاب جزءا من «التاريخ العام» الذي اصدرته مجموعة من الاساتذة تحت اشراف فيكتور دوروي ٠

وبالضرورة الى كتابة تايخ الادب والسياسة٠وكل شيء في عروضهم التاريخية واضح مفهوم ، : وأنت تقرؤها بمتعة كبيرة وجهد قليل وفائدة هائلة ، وتفضلهم على هذا النوع من الكتاب الذين يريدون ـ كما يفعل **هيغل** العجوز الطيب ـ أن ينغمسوا في التاريخ الى أعمق مما يذهب هؤلاء الثرثارون ، فأمثال هؤلاء الكتاب يثيرون الملل للغاية ، ولكن ٠٠٠ audiatur et altera pars (٢) ٠

وحين يتحدث هيغل عن دور الرجال العظام في التاريخ فانه يسخر من « **هذا الصغار في دراسة الانسان ، الذي بدلا من أن يأخذ كموضوع للبحث السمات العامة الجوهرية للطبيعة الانسانية ، يشغل نفسه أساسا بما هو خاص وعارض،بدوافع الافراد وعواطفهم وما الى ذلك** » ٠ ويرى هيغل أن « **عظماء الرجال أرادوا ما فعلوا ، وفعلوا ما أرادوا** » ٠

ونستطيع أن نؤكد نفس الشيء ـ « وانما بعبارات أخرى » ـ بالنسبة لكل من عملوا بقدر أو آخر من النجاح من أجل خير الانسانية ، بما يتفق مع فهمهم لميدان معين ، نستطيع أن نقول أن «**زاوية الحسد**» التي كان هيغل ينظر اليها باحتقار بالغ لا تساعدنا بأي حال في فهم وتقدير مختلف فترات التاريخ ، نستطيع ان نقول٠٠ وباختصار نستطيع ان نقول الكثير ، ولكن هل سيصغون الينا ؟ ان الثرثارين يحظون بجمهور أوسع ، وهم حين يزعمون مثلا أن هلفيسيوس كان سفسطائيا خطرا ، انسانا مغرورا سطحيا، يشعرون بالرضا الكامل عن أنفسهم ، وعما كشفوا عنه من حدة ذهن وأمانة ، ويصدرون احاكمهم ٠

وتعرض هلفيسيوس لمعاملة أقسى بوجه خاص على أيدي المؤرخين الالمان٠فهم في فرنسا كانوا أحيانا ما ينصفون شخصه(٣)، أما في المانيا فانهم يتجنبون أية مجاملة في غير محلها لهذا الرجل «الخطر»٠ انهم يشهرون بهلفيسيوس أكثر مما يفعلون حتى**بلاميتري**٠

---

(٢) الطرف الاخر ينبغي أيضا ان يسمع ـ المترجم ٠

(٣) « كم ينبغي الا نثق بالاوهام التي تثيرها الروح المذهبية ! لقد كان هلفيسيوس رجلا فاضلا ، لكن كتابه تدمير لكل فضيلة » (لا هارب «دحض كتاب «عن الروح» ـ القي في الليسيه الجمهورية في جلسات ٢٦ و ٢٩ مارس و ٣ و ٥ ابريل ـ باريس ـ العام الخامس (١٧٩٧) ـ ص ٨٧) ٠

فرغم أن هذا بدوره «خطر» ، الا أن صاحب الجلالة طيب الذكر فريدريك الاكبر قد راق له أن يقول بضع كلمات طيبةعنه بعد وفاته٠٠ حسنا ٠٠ voluntas regis suprema lex (٤) ٠ والاساتذة الالمان يعرفون ذلك أكثر من أي شخص آخر ، وبالتحديد لانهم اساتذة ٠

يا له من أمر غريب ! فرغم أن نظريات هلفيسيوس أثارت فزع «الفلاسفة» ، ورغم أننا نجد بين خصومه أناسا في قدر ديدرو ، فقد هوجم في فرنسا **بعد** الثورة اكثر مما هوجم **قبلها** ٠ ويعترف لاهارب بأن دحضه «لسفسطة» هذا الرجل في عام ١٧٨٨ لم يكن له نفس التأثير الذي كان له بعد تسع سنوات في عام ١٧٩٧ ٠ ويقول لاهارب انهم لم يدركوا الا عندئذ أن الفلسفة المادية «**مذهب مسلح**» ، مذهب ثوري ٠ وفي عام ١٧٩٧ لم تعد للبورجوازية حاجة الى نظريات من هذا النوع ، لا يمكن ان تكون الا تهديدا دائما لمكاسبها ٠ كان ينبغي القضاء على المادية ، فقضي عليها ، دونما أي تساؤل عما اذا كانت براهين مداهنين من أمثال لاهارب قوية حقا كما يزعمون٠ ان الازمنة الجديدة تخلق طموحات جديدة ، وهذه الاخيرة تخلق فلسفات جديدة (٥) ٠

---

(٤) ان ارادة الملك هي القانون الاسمى - المترجم ٠

(٥) كان **مارا** بدوره يكره هلفيسيوس ٠ فعنده أن هذا الفيلسوف لم يكن سوى «ذهن زائف سطحي» مذهبه «أحمق» وكتابه «نسيج متصل من السفسطة محلى بعناية باستعراض مختال لتبحر واسع» (انظر « عن الانسان أو مبادىء وقوانين تأثير الروح على الجسد وتأثير الجسد على الروح » بقلم الطبيب جان بول مارا - امستردام ١٧٧٥ - ص ١٥ و ١٦ من المحاضرات التمهيدية) ٠ غير ان هذا الكتاب لا ينتمي الى الفترة الثورية من حياة مارا ٠ وفضلا عن ذلك فان آراء **الثوريين** ليست دائما آراء **ثورية**٠ فعند مارا أن «الانسان ككل حيوان يتألف من جوهرين متميزين ، الروح والجسد » ٠٠٠ وأن «الحكمة الابدية» قد وضعت الروح في **القشرة المخية** (!) وان « السائل العصبي هو رابطة الوصل بين هذين الجوهرين المتباينين » ٠ « وفي العمليات الميكانيكية نجد السائل العصبي العامل الاول ٠ أما في الافعال الحرة فانه تابع للروح ، ويصبح الاداة التي تستخدمها لتنفيذ هذه الاعمال » (المصدر

أما الثرثارون فقد كان لهم كل الحق في أن يشكوا من هلفيسيوس، فنادرا ما فهموه. ولا يرجع هذا فحسب الى أن افكاره تتخطى افقهم. فقد كان هلفيسيوس يعرض نظرياته بمنهج أصيل ، قادر على أن يثير حنق الثرثارين . وكان أقل كتاب عصره احتراما لما يسميه نوردو **الاكاذيب المتعارف عليها** . وكان كرجل مجتمع وملاحظ دقيق يعرف «المجتمع» الفرنسي في القرن الثامن عشر جيدا ، وهو ككاتب لاذع ساخر لم يفوت فرصة لكي يقول لهذا المجتمع بضع حقائق قاسية يصعب عليه ابتلاعها ، ولا تتفق في شيء مع الحقائق البريئة التي «تنزلق دائما بطلاوة من طرف اللسان » . ومن هنا جاء هذا القدر الذي لا يحصى من سوء الفهم . ان ما كان يقوله عن معاصريه قد أخذ باعتباره مثله الاعلى .

وقد كانت السيدة بوفلير تقول عنه انه كشف سر كل واحد . وكانت تعتقد أن هذه هي كل قيمة كتابه «عن الروح» ودلالته . لكن سوء التفاهم هذا قد أدى بدوره الى ما يلي : حين يثور موضوع احترام «الفضيلة» يقول هلفيسيوس ان الناس لا يكنون لها في ظل «الملكيات المطلقة» سوى الازدراء ، ولا يكرمون سوى اسمها .

«فاذا كان البعض يثيرون الفضيلة على الدوام، واذا كانوا يطالبون بها المواطنين ، فان الامر هنا أمر حقيقة يطالبون بها الناس ، بشرط أن يكونوا من الفطنة بحيث يصمتون عنها » .

وقد حظيت هذه العبارة بتقدير السيدة بوفلير ، وقالت انها صحيحة ذكية ساحرة ، وأكدت انها تكشف سر كل واحد . ويمضي هلفيسيوس ليشرح لماذا لا يمكن أن تكون الامور على غير ما قاله عنها ويبين كيف أن **مصالح** الناس ـ في الدول ذات الحكم المطلق تجعلهم يكرهون «الفضيلة». وهنا أيضا توافق السيدة بوفلير. ولكن هنا يأتي واحد من امثال «لامب» ـ هو عادة الماني وان كان فرنسيا في بعض الاحيان ـ ويرفع بدوره صوته قائلا ان هلفيسيوس يدعو

→

نفسه ـ الكتاب الاول ـ ص ٢٤ و ٤٠ و ١٠٧). ويتسم هذا كله بتفاهة تثير الدهشة . ان مارا ليشبه كثيرا دوهونج في طريقته في معاملة اسلافه واعتزازه الذي يثير الضيق بنفسه .

الى ازدراء الفضيلة • وحين يثور موضوع الحب يقول هلفيسيوس انه حيثما لا يكون «للاغنياء والكبار» دور ما في الحكومة فانهم ينغمسون في المغامرات الغرامية كأفضل ترياق ضد الملل ، وهنا تبتسم السيدة بوفلير في خبث : فهذه الحسناء المثقفة تعرف عن هذا الموضوع أكثر مما يعرف الفيلسوف• غير أن هذا الاخير لا يقف عند هذا الحد ، فهو يتساءل كيف يمكن للعشق أن يصبح مهنة• ويجد أن «العاشق ينبغي أن يحاط بالمخاطر ، وأن تقف الغيرة الساهرة دائما في طريق رغباته ، وأن ينشغل هذا العاشق على الدوام بوسائل مباغتتها » (٦) • ويستخلص أنه في هذه الظروف فان « **المرأة العابثة معشوقة رائعة** » • ومرة أخرى توافق السيدة بوفلير ، ولكن هنا تظهر على المسرح السيدة بوشهولتز (٧) التي تمتليء سخطا وتتهم فيلسوفنا بتمجيد العبث، ومهاجمة الفضيلة النسائية، الفضيلة المختبرة للسيدة بوشهولتز ، وهكذا وهلم جرا • ويظل هذا يتكرر على الدوام دون توقف ، وقد استمر سوء الفهم لهلفيسيوس حتى ايامنا هذه، وغرس في أذهان اولئك الذين لم يقرأوه أبدا• وبالمناسبة فان قراءة هلفيسيوس لم تكن لتغير الكثير ، لانه لن يقرأ الا بعيون السيدة بوشهولتز ، وهي سيدة مصابة بقصر نظر شديد ، وان كانت فاضلة تماما ، وشريفة للغاية •

هل كان هلفيسيوس ما يمكن أن نسميه ماديا بالمعنى الدقيق للكلمة ؟ كثيرا ما يثار الشك في ذلك بسبب سمعته •

يقول الراحل لانج « ان بوفون المتزن المتحفظ ، وجريم الكتوم الدبلوماسي ، وهلفيسيوس المغرور السطحي ، كلهم يقفون على مقربة من المادية ، دون أن يعتنقوا أية وجهة نظر ثابتة ، أو أي تطوير متسق لفكرة أساسية ، وهو ما يميز لاميتري رغم انفعالية تعبيراته » (٨) •

---

(٦) « عن الانسان » ـ القسم الثاني ـ الفصل الثامن •

(٧) « فراو بوشهلتز » ـ شخصية في سلسلة من الروايات وضعها الكاتب الالماني الساخر ستايند وتعتبر تجسيدا للسوقية البروسية ـ المترجم •

(٨) « تاريخ المادية » ـ الطبعة الثانية ـ اسيرلوهن ـ ١٨٧٣ ـ المجلد الاول ـ ص ٣٦٠ •

ويردد جولز ـ أوغست سوري ـ الصدى الفرنسي لهذا الكانطي الجديد الالماني ـ هذا الرأي كلمة كلمة (٩) ٠

وانا لنود ان ننظر الى المسألة بعيوننا نحن ٠

ان مسألة ما اذا كان في الانسان جوهر لا مادي يدين له بحياته الذهنية مسألة لم تدخل أبدا في اطار ابحاث هلفيسيوس ٠ فهو لم يعرض لهذه المسألة الا عابرا ، وتناولها بحذر بالغ ٠ فلقد كان من ناحية حريصا ألا يغضب الرقيب ، ولهذا السبب فقد تحدث بتوقير عن الكنيسة التي «**ثبتت ايماننا في هذه المسألة** » ، ومن ناحية أخرى لم يكن يحب «التهويمات الفلسفية» ٠ وكان يقول ان علينا أن نتبع الملاحظة ، ونتوقف في اللحظة التي تتوقف فيها، وتكون لدينا شجاعة ألا نعرف ما لا نستطيع بعد معرفته ٠ وان هذا ليفوح «بالتحفظ» أكثر مما يفوح «بالمغرور» أو «السطحية» ٠ ولقد كان يمكن للانج أن يشعر بذلك ويلحظه لو تعلق الامر بكاتب أقل «خطورة»٠ ولكن لما كان الامر متعلقا بهلفيسيوس فقد استخدم مقياسا مختلفا : لقد بدا له واضحا أن المؤلف «المغرور» و «السطحي» لكتاب «عن الروح» لا يمكن الا أن يكون «مغرورا» و «سطحيا» (١٠) ٠

والواقع أن هلفيسيوس في كل مسائل «الميتافيزيقا» الاساسية (وعلى سبيل المثال مسائل المادة والمكان واللانهائي وما اليها) كان يشاطر المادي الانجليزي **جون تولاند** افكاره ٠ ونستطيع أن نرى ذلك من مقارنة بين «رسائل الى سرينا» (لندن ـ ١٧٠٤) التي وضعها هذا الاخير والمحاضرة الاولى من الفصل الرابع من كتاب «عن الروح» ٠ وكان لانج يعتبر تولاند ماديا بازا دون شك ، وتبدو له أفكاره **أوضح ما يمكن** ، أما هلفيسيوس فانه انما «يقترب» من المادية ، لان

(٩) « موجز تاريخ المادية » ـ باريس ـ ١٨٨٣ ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦ ٠

(١٠) يرى هلفيسيوس أن وجودنا الخاص وحده هو **الواضح** بالنسبة لنا ، أما وجود الاجسام الاخرى فهو **احتمال** فحسب، «احتمال لا شك انه كبير جدا ، وقد يعادل في الحياة العملية مستوى الحقيقة الثابتة ، لكنه رغم هذا ليس سوى احتمال » ٠ ولقد وضع لانج كل من يعبر عن شيء من هذا القبيل في مصاف العقول «النقدية» ، غير أن أية «نزعة نقدية» ما كانت بقادرة على أن ترد الاعتبار لهلفيسيوس،وتمحو عنه وصمة «السطحية» التي كانت أول ما استرعى نظر هذا المؤرخ العميق للمادية ٠

«سطحيته» كانت تمنعه من أن يعتنق بثبات أية فكرة اساسية. «**وهكذا يكتب التاريخ !**» . كم هو ضار تأثير هؤلاء «السطحيين» : ان «**أعمق الرجال**» يغدون بدورهم **سطحيين** حين يقرأون لهم .

هل لدى المادة القدرة على الحس ؟ يقول هلفيسيوس :

« تنازع الناس طويلا وفي غموض شديد حول هذا الموضوع . ولم يبدأوا في التساؤل عما يدور عليه هذا النقاش ، واعطاء فكرة محددة لكلمة «المادة» الا فيما بعد . ولو أنهم قد حددوا دلالتها منذ البداية لادركوا أن الناس هم ـ اذا جاز التعبير ـ خالقو المادة ، ان المادة ليست كائنا ما ، أنه لا يوجد في الطبيعة الا **أفراد** اطلقنا عليهم أسم **الأجسام** ، وان المرء لا يمكن أن يفهم من هذه الكلمة ، «المادة» ، الا مجموعة من الصفات المشتركة بين كل الاجسام. فاذا ما تحددت دلالة هذه الكلمة بهذه الطريقة ، لم يعد متبقيا سوى أن نعرف ... ما اذا كان اكتشاف قوة كالجاذبية مثلا لا يمكن أن يؤدي بنا الى استخلاص أن المادة يمكن أيضا أن تكون لها عدة صفات مثل ملكة الحس ، التي وان كانت لا تتجلى الا في الاجساد المنظمة للحيوانات يمكن رغم ذلك أن تكون مشتركة لدى كل الافراد . واذا ما اختزلنا المسألة الى هذه النقطة فاننا نستطيع أن نرى أنه اذا كان مستحيلا أن نبين أن كل الاجسام لا تحس اطلاقا فان أحدا لم يستنر في هذه المسألة بنور «الوحي» (ونحن نعرف ماذا يعني هذا التوقير الذي يبديه «الفلاسفة» «للوحي» وللعقائد الكنسية عموما ـ ج. ب.) . لا يستطيع أن يحسم المسألة الا بحساب ومقارنة احتمالات هذا الرأي باحتمالات الرأي الاخر .

« ومن هنا فلم يكن من الضروري لانهاء هذا الجدال ان نقيم مختلف المذاهب عن العالم ، ونضل طريقنا في توليفات الاحتمالات ، ونبذل جهودا فكرية هائلة لم تصل ـ ولا كان يمكن لها ان تصل ـ الا الى اخطاء بارعة الى هذا الحد او ذاك » (١١) .

ويوضح هذا الاستشهاد الطويل كلا من القرابة بين مادية

(١١) عن الروح ، المحاضرة الاولى الفصل الرابع .

هلفيسيوس ومادية **تولاند** (١٢) ، وطبيعة ما قد يميل المرء الى تسميته نزعة الشك أو النزعة الاحتمالية عند هلفيسيوس ٠

بيد أنه لم يكن يرى أن الماديين ـ وانما المثاليون بمختلف مدارسهم ـ هم الذين يحلقون في «**تهويمات الخيال الفلسفية**» ، وقد اوصاهم بأمور مثل الفطنة والحذر وحساب الاحتمالات ٠ وستريهم مثل هذه الفطنة والحذر ان انكارهم الحس على المادة ليس سوى نتاج لخيالهم ، وأن ما يمنعهم عن الربط بين فكرة الجسم وملكة الحس ليس هو صفات «**الاجسام**» وانما **تعريف** المادة ، أي مجرد **كلمة** ٠ فليس الشك هنا سوى سلاح موجه ضد اعداء المادية ٠ ونفس الامر حين يتحدث هلفيسيوس عن «**وجود الاجسام**»٠ ان قدرة الاجسام على الحس ليست سوى احتمال ! هذا صحيح تماما ، ولكن ماذا يثبت هذا ضد الماديين ؟ ان وجود الاجسام ذاته ليس سوى احتمال ورغم هذا فان من الحماقة انكاره ٠ هكذا كان يسير تدليل هلفيسيوس ، واذا كان هذا يثبت شيئا فهو انما يثبت في المقام الاول أنه قد تخلى عن شكوكه الانكارية ٠

وكان هلفيسيوس يعرف ككل معاصريه أننا لا نصل الى معرفة عن الاجسام **الا عن طريق الاحساسات** التي تولدها هذه الاجسام لدينا ٠ وهذا يثبت مرة اخرى أن لانج يخطيء حين يزعم أن «المادية تأخذ بعناد عالم المظهر المحسوس على أنه عالم الاشياء

---

(١٢) ومن الواضح أن هذه القرابة هي المسؤولة عن أن ينسب الى هلفيسيوس كتاب بعنوان « تقدم العقل في البحث عن الحقيقة » ، وهو كتاب أعيد نشره في طبعة باريس لاعماله عام ١٨١٨ ٠ ولا يحوي الكتاب صفحة واحدة من الكتابة الاصلية ٠ فهو في جزء منه ترجمة لجزء من «رسائل الى سرينا» بقلم تولاند اضيفت اليها فقرات من كتاب «نظام الطبيعة» وغيره من الكتب المعروفة الى حد ما في ذلك الحين وجمع هذا كله معا بلا عناية ، واساء فهمه هذا «المؤلف» المجهول ٠ ولا يمكن أن يكون لهلفيسيوس شأن بهذا الكتاب ٠ وهناك كتاب آخر نسب له هو «المعنى الحقيقي لنظام الطبيعة» ٠ وربما كان هلفيسيوس هو كاتبه ، الا انه ليس ثمة شاهد قاطع في هذا الشأن، ولهذا فسنمتنع عن الاستشهاد به ، وبخاصة لانه يضيف شيئا الى ما نجده في كتابيه «عن الروح» و «عن الانسان» ٠

الواقعية» (١٣) · غير أن هذا لم يمنع هلفيسيوس من أن يكون ماديا ثابتا · فهو يستشهد «**بكيميائي انجليزي شهير**» من الواضح أنه كان يشاطره رأيه عن قابلية المادة للحس · وها هو ما يقوله هذا الكيميائي (١٤) :

« اننا نميز في الاجسام نوعين من الصفات ، تلك التي لها وجود دائم لا يتغير مثل عدم القابلية للنفاذ والثقل والحركة الخ ·· وتنتمي هذه الصفات الى الفيزياء العامة ·

لكن لدى هذه الاجسام نفسها صفات آخرى لها وجود زائل عابر يحدث وينقضي على التوالي نتيجة تجميعات أو تحليلات أو حركات

---

(١٣) « تاريخ المادية » ـ الجزء الاول ـ ص ٣٧٨ · ومن الغريب أن يجد لانج لدى روبينيه «**عنصرا**» من عناصر المذهب الكانطي في حين أنه لم يقل عن الشيء في ذاته الا ما قاله هولباخ وهلفيسيوس · ولا يقل عن ذلك غرابة أن لانج يضع مؤلف «عن الطبيعة» في عداد الماديين في حين أنه يعتبر هلفيسيوس **قريبا** منهم فحسب · أي معيار غريب يتبعه لانج !

(١٤) ورد هذا النص في «عن الانسان» ـ القسم الثاني ، الفصل الثاني · وذكرت طبعة عام ١٧٧٣ من هذا الكتاب أن الاستشهاد مأخوذ عن «بحث في مباديء الكيمياء»· ولم نستطع أن نعثر على هذا البحث· غير أننا نستطيع أن نستشهدنا بما يقوله **بريستلي** فينقاشه مع**برايس** «ولكي أزيد فكرتي وضوحا قدر الامكان سأستخدم التشبيه التالي · ان قدرة الموسى على **القطع** تتوقف على تلاحم وترتيب خاصين للاجزاء التي تكونه · فلنفترض ان هذا الموسى قد ذاب تماما في حامض ، ان قدرته على القطع **ستضيع** بالتأكيد أو **تكف عن الوجود** ، رغم أن أيا من جزئيات المعدن الذي يشكل الموسى لم ينعدم في هذه العملية ، وان **شكله السابق وقدرته على القطع** يمكن أن تسترد بعد ترسيب المعدن · وهكذا فحين يتحلل الجسم بالتعفن تتوقف كلية ملكة التفكير» («**مناقشة** حرة لمذهب المادية الخ ···» ـ لندن ـ ١٧٧٨ ـ ص ٨٢ ـ ٨٣) · وتلك بالدقة هي وجهة نظر **الكيميائي** الذي استشهد به هلفيسيوس · ولا تعنينا شيئا في هذه الحالة الافكار الدينية التي استطاع بريستلي أن يكيفها مع ماديته، كما ليست بنا حاجة بالمثل لان نؤكد انالافكار الكيميائية لماديالقرن الماضي ليستهي افكار عصرنا·

معينة في الجزيئات الداخلية· وتشكل هذه الانواع من الصفات مختلف فروع التاريخ الطبيعي : الكيمياء الخ ··· وتنتمي الى فروع خاصة للفيزياء ·

« فالحديد مثلا يتألف من الفلوجستون (المادة غير القابلة للاحتراق) ونوع خاص من التراب ، وهو ـ في هذه الحالة من التركيب ـ يخضع لقوةالجذب في مغناطيس ما ، ولكن حين يتحلل الحديد تنقضي هذه الصفة ، فليس للمغناطيس تأثير على تراب حديدي نزع عنه الفلوجستون ···

« ··· فلماذا لا ينتج التنظيم ـ في المملكة الحيوانية ـ بنفس الطريقة هذه الصفة الفريدة التي نسميها ملكة الحس ؟ ان كل ظواهر الطب والتاريخ الطبيعي تؤكد بوضوح أن هذه القدرة ليست لدى الحيوانات الا نتيجة بنية أجسامها ، وأن هذه الملكة تبدأ مع تكون اعضائها ، وتظل باقية طالما بقيت حية ، وتفقد في النهاية بتحلل هذه الاعضاء ذاتها ·

« فاذا سألني الميتافيزيقيون ماذا يحدث اذن لملكة الحس لدى الحيوان فسأجيبهم نفس ما يحدث لصفة الانجذاب للمغناطيس في الحديد المتحلل » ★ ·

ولم يكن هلفيسيوس **ماديا** فحسب ، بل لقد كان أكثر معاصريه «اتساقا» في تمسكه بالفكرة الاساسية للمادية · وكان «متسقا» الى حد أفزع الماديين الاخرين ، الذين لم يجسر واحد منهم على متابعته في استنتاجاته الجريئة · وبهذا المعنى فقد كان حقا يقف «قريبا» من رجال من امثال هولباخ ، اذ لم يكن هؤلاء يستطيعون اكثر من الاقتراب منه ·

«وليست الروح فينا سوى ملكة الحس ، والفهم هو نتيجة هذه الملكة ، فكل ما في الانسان حس ·

« ان الحساسية الفيزيائية هي المصدر الاول لاحتياجاته ، وعواطفه، واجتماعياته ، واحكامه ، ورغباته ، وافعاله ··· فالانسان آلة ما أن تحركها الحساسية الفيزيائية حتى يكون عليها أن تفعل كل ما

تؤديه » (١٥) ٠

وهكذا فنقطة البدء عند هلفيسيوس متطابقة تماما معها عند هولباخ ٠ وكان هذا هو الاساس الذي بنى فوقه « سوفسطائينا الخطر » ٠ فلنلق الان نظرة اقرب على ما هو اصيل في معمار بنائه٠
ماذا نعني بالفضيلة ؟ ما من فيلسوف من فلاسفة القرن الثامن عشر لم يناقش هذه المسألة بطريقته ٠ والمسألة عند هلفيسيوس بسيطة للغاية : فالفضيلة تكمن في معرفة ما يلتزم به الناس تجاه بعضهم البعض ٠ ومن ثم فانها تفترض تكوين مجتمع ٠

« فلو أني ولدت في جزيرة مهجورة ، وتركت وشأني ، لعشت دون رذيلة أو فضيلة ، ولا كان بوسعي أن اكشف عن هذه او عن تلك ٠ فماذا يمكن اذن أن نفهم من هاتين الكلمتين ـ **فاضل وشرير** ؟ الافعال المفيدة أو الضارة بالمجتمع٠ ان هذه الفكرة البسيطة الواضحة هي في نظري أفضل من كل كلمات رنانة غامضة عن الفضيلة » (١٦) ٠

الصالح العام ـ هذا هو مقياس الفضيلة وأساسها ٠ وأفعالنا تكون أكثر شرا قدر ما تكون **ضارة** بالمجتمع ، **وفاضلة** بقدر ما تكون **نافعة** له ٠ salus populi - Suprema Lex (١٧) ٠
و «فضيلة» فيلسوفنا هي في المقام الاول فضيلة **سياسية** ، ولن تؤدي **المواعظ** الاخلاقية الى شيء ، فما من موعظة ستصنع بطلا ، وانما ينبغي أن نضفي على المجتمع تنظيما يستطيع أن يعلم أفراده احترام الصالح العام ٠ ولا تعني **الاخلاق الفاسدة** الا الانفصال بين

---

(١٥) « عن الانسان » ـ القسم الثاني ـ الفصل العاشر ٠ وكان هلفيسيوس يدرك جيدا أن الانسان مزود بذاكرة ، غير انه يقول أن عضو التذكر فيزيائي تماما ، وأن وظيفته تتألف من استحضار انطباعاتنا الماضية ٠ وهذا هو السبب في أنه يثير لدينا احساسات فعلية ٠ وهكذا فكل شيء يعود الى ملكة الحس ، وكل ما في الانسان حس ٠

(١٦) « عن الانسان » ـ الفصل السادس عشر ـ الملاحظة الاخيرة في هذا الفصل ٠

(١٧) مصلحة الشعب هي القانون الاسمى ـ المترجم ٠

الصالح الاجتماعي والصالح الخاص ٠ وأفضل واعظ اخلاقي هـو المشرع الذي يقضي على هذه الثنائية ٠

وكثيرا ما يزعم البعض أن «نفعيـــــة» جون ستيوارت ميل ـ كتعاليم اخلاقية ـ أسمى كثيرا من اخلاق ماديي القرن الثامن عشر، لان هؤلاء الاخيرين كانوا يريدون أن يجعلوا من المنفعـة الشخصية أساس الاخلاق ، في حين وضع الفيلسوف الانجليزي في المقام الاول مبدأ أكبر سعادة لاكبر عدد من الناس ٠ ويستطيع القاريء أن يـرى الان ان ميزة جون ستيوارت ميل هــــذه مشكوك فيها على الاقل ٠ فليست سعادة اكبر عدد من الناس سوى نسخة تعســة ـ خالية من أية صبغة ثورية ـ مما أسماه الماديون الفرنسيون «الصالح العام» ٠

ولكن اذا كان الامر كذلك فما هو مصدر ذلك الرأي الذي يرى في «نفعية» جون ستيوارت ميل تعديلا موفقا للمذهب المادي في القرن الثامن عشر ؟

ما هو مبدأ اكبر قدر من السعادة لاكبر عدد من الناس؟ انه نوع من **تقنين** السلوك الانساني ٠ وفي هذا الصدد ليس لدى الماديين ما يتعلمونه من كتاب ميل الشهير ٠ غير أن المــاديين لم يقنعوا بالبحث عن **تقنين** ، فقد كانت تواجههم مهمة حل **مشكلة علمية** ٠ كيف يمكن للانسان – وهو ليس سوى حساسية ـ أن يتعلم تقدير الصالح العام؟ أية معجزة تجعله ينسى انطباعاته الحسية لكي يضع أمامه اهدافــا لا يبدو أنه يجمعها شيء بهذه الانطباعات ؟ وفي اطار هــذه المشكلة وحدودها أخذ الماديون بالفعل **المصلحة الشخصية** نقطة بدء لهم٠غير أن أخذ المصلحة الشخصية نقطة بدء لا يعني في هذا السياقأكثر من ترديد أن الانسان كائن ذو حس ، ولا شيء اكثر ٠ ومن هنــا لم تكن المصلحة الشخصية ـ لدى المــــاديين ـ تعليمات اخلاقية ، وانمـــا فحسب واقعة علمية (١٨) ٠

---

(١٨) لقد فهم شارلز داروين جيدا ما لم يفهمه الفلاسفة الاخلاقيون الا نادرا : « كان الفلاسفة يعترضون فيما سبق٠٠٠ أن أساس الاخلاق يكمن في لون من الانســـانية ، الا أن «مبدأ أكبر سعـــادة» قد دفع الى المقدمة في الاونة الاخيــــرة ٠ غير ان الاكثر صحة ان نتحـــدث عن المبدأ الاخير باعتباره معيار السلوك وليس دافعه » (يقتبس بليخانوف

وقد تهرب هولبـــاخ من صعوبة هذه المشكلة باستخـــدام مصطلحات غامضة :

« وهكذا فحين نقول ان المصلحة هي الدافع الوحيد للافعال الانسانية فاننا نريد بذلك أن نشير الى ان كل انسان يعمل بطريقته من اجـــل سعادته ، التي يجدها في موضوع ما ، مرئي أو خفي ، وأن نظـــام سلوكه بأسره يستهدف بلوغه ٠٠٠ » (١٩) ٠

ويعني هذا بعبارات أخـــرى أن المصلحة الشخصية لا يمكن ببساطة أن تختزل الى متطلبات «الانطباعات الحسية» ٠ وفي الوقت نفسه لم يكن الانسان ــ عند هولباخ وعند كـل ماديي القرن الثامن عشر ــ سوى حس٠ وهنا قفزة منطقية لم تثر اخلاق هولباخ بفضلها ما أثارته اخلاق هلفيسيوس من مقت لدى مؤرخي الفلسفة ٠ فلانج يرى ان «**اخلاق هولباخ صارمة نقية**» (٢٠) ، ويرى فيهـــا هيتز من جانبه شيئا يختلف جوهريا عن اخلاق هلفيسيوس (٢١) ٠

لقد كان مؤلف «عن الروح» هو الوحيد بين كل فلاسفة القـــرن الثامن عشر الذي تجـــاسر على أن يتناول مسألة **أصل** المشـــاعر الاخلاقية ، وكان الوحيـــــد الذي جسر على أن يستخلصها مـــن «الانطباعات الحسية» للانسان ٠

فالانسان يشعر باللذة الفيزيائيـــة والالم الفيزيائي ، ويتجنب الاخير وينجذب الى الاول ، ويحمل هذا التهرب والانجذاب الدائمين اسم **حب الذات** ، وهذا الحب لا ينفصل عن الانسان ، انه احساســه الاساسي ٠

« ومن بين كل الاحساسات فانه الاحساس الوحيد من نوعه : والبه

عن الترجمة الالمانية لكتاب داروين «انحدار الانسان» ــ شتوتغارت ــ ١٨٧٥ ــ ص ١٥٤ ٠

(١٩) «نظام الطبيعة» ــ لندن ــ ١٧٨١ ــ المجلد الاول ــ ص ٢٦٨ ٠

(٢٠) «تاريخ المادية» ــ المجلد الاول ــ ص ٣٦٣ ٠

(٢١) «تاريخ الادب في القرن الثامن عشـــر» ــ برونزويك ١٨٨١ ــ المجلد الثاني ص ٣٩٨ ٠

ئدين بكل رغباتنا ، وكل عواطفنا، فليست هذه الا تطبيق احساس حب الذات على موضوع أو آخر » ★ ...

« أنظر في كتب التاريخ وسترى أنه في كل بلد شجعت فيه فضائل معينة بالامل في لذات الحواس كانت هذه الفضائل أوسع انتشارا ، واكتسبت اكبر بريق » (٢٢) ٠

فالشعوب التي كانت اكثر انغماسا في الحب كانت اكثرالشعوب شجاعة «لان النساء في هذه البلاد لم يكن يمنحن حظوتهن الا لاشجع الرجال» ٠ فلدى السامنايت (٢٣) كانت اجمل الجميلات هن مكافأة أبسل المقاتلين ٠ وفي اسبارطة تمكن ليكورجوس (٢٤) الحكيم ـ لادراكه أن « **اللذة هي الدافع الوحيد والكلي لدى الناس** » ـ من أن يحول الحب الى ملهم للشجاعة ٠ فخلال الاعياد العامة كانت فتيات اللاكيديمونيان الجميلاتنصف العاريات يرقصن ويغنين فيالتجمعات الشعبية٠ وتندد كلمات اغنياتهن بالجبناء وتمجد الشجعان٠ واولئك الباسلون هم وحدهم الذين كان بوسعهم أن ينتظروا حظوة الجنس اللطيف ٠ ومن هنا كان ابناء اسبارطة يحاولون أن يكونوا شجعانا باسلين : ان عاطفة **الحب** كانت تشعل في قلوبهم **عاطفة المجد** ٠ غير أن المؤسسات «الحكيمة» التي أقامها ليكورجاس لم تصل الى أقصى حدود الممكن ٠ فلنفترض في الواقع انه :

« على مثال العذارى المكرسات لايزيس اوفيستا كانت اجمل صبايا اللاكيديمونيان يوهبن جزاء للبسالة، وأنهن بعد أن يظهرن عاريات في التجمعات الشعبية كن يوهبن للمحاربين جزاء على شجاعتهم ، وأن الابطال الشبان كانوا يمارسون في ذات اللحظة نشوة مزدوجة، نشوة الحب ونشوة المجد ٠ فمهما كان مثل هذا التشريع غريبا بعيدا عن

(★) «عن الانسان» ـ القسم الرابع ـ الفصل الرابع ٠
(٢٢) «عن الروح» ـ المحاضرة الثالثة ـ الفصل الخامس عشر ٠
(٢٣) قبائل محاربة شنت حروبا طويلة على روما (٣٤٣ ـ ٢٩٠ قبل الميلاد) المترجم ٠
(٢٤) مشرع شبه اسطوري في اسبارطه ـ المترجم ٠

اخلاقنا ، فان من المؤكد أن من شأنها أن تجعل ابناء اسبارطة اكثر فضيلة وبسالة ، لان قوة الفضيلة تتناسب دائما مع درجة اللذة التي تمنح كمكافأة ... » .

وهنا يتحدث **هلفيسيوس** عن نشوة مزدوجة ـ نشوة **الحب** ونشوة **المجد** . وينبغي ألا نسيء فهم ذلك . فكل ما في التعطش الى المجد يمكن أن يختزل الى انطباعات حسية . فنحن نحب المجد ـ تماما كما نحب الثروة ـ **من اجل القوة** التي يمنحها لنا . ولكن ما هي القوة ؟ انها طريق لجعل الاخرين يخدمون سعادتنا ، لكن السعادة يمكن ـ في الجوهر ـ أن تختزل الى متعة حسية . **فليس الانسان سوى حس** . وكل هذه العواطف مثل عواطف المجد والقوة والثروة وما اليها ليست سوى **عواطف اصطناعية** يمكن أن تستمد جذورها من الاحتياجات الفيزيائية . وحتى يفهم المرء هذه الحقيقة على نحو افضل فان عليه أن يذكر دائما أن احساساتنا بالمتعة والالم مزدوجة النوع ـ المتعة والالم **الواقعيين** ، والمتعة والالم **المتوقعين** .

« فحين أعاني آلام الجوع أعاني **ألما واقعيا** ، وحين اتوقع انني سأتضور حتى الموت أعاني **ألما متوقعا** ...

« ... فلو أن رجلا يحب الجواري الساحرات والصور الجميلة عثر على كنز فسيشعر بفرحة عارمة . وقد يقال انه لم يمارس بعد أية لذة حسية ، وهذا صحيح ، لكنه في هذه اللحظة قد اكتسب وسيلة الحصول على موضوع رغباته . وهذا التوقع للذة الاتية هو بالفعل لذة » .

وغني عن البيان أن **التنبؤ** لا يتناقض بحال مع نقطة بدء هلفيسيوس ، فهو ليس سوى نتيجة **للذاكرة** . فاذا كنت اتنبأ بأن نقص الطعام سيسبب لي ألما فذلك لانه قد سبق لي بالفعل معاناة مثل هذا الالم . لكن لدى الذاكرة القدرة على أن «تمارس على اعضائنا درجة معينة من نفس تأثير » الالم أو المتعة .

« ومن ثم فان من الواضح أن كل الالام واللذات التي تعتبر داخلية هي احساسات فيزيائية ، وأن علينا ألا نفهم من كلمتي **داخلية** أو **خارجية الا الانطباعات التي تثيرها الذاكرة او تلك التي يثيرها الوجود الفعلي للموضوعات** » .

ولما كنت قادرا على **التنبؤ**، أي على **الانطباعات الحسية**، فانني أبكي وفاة صديقي ، الذي كانت محادثاته تنفي عني الملـــل « ضيق الروح الذي هو بالفعل ألم فيزيائي» ، لقد كان مستعدا لان يخاطـــر بحياته وثروته لانقاذي من الموت أو الالم ، وقـــد حاول دائما ـ بواسطة كل أنواع اللذة ـ أن يزيد متعتي • وشعوري بأن وفـــاة صديقي قد حرمتني من مصادر اللذة يجلب الدموع الى عيني •

«فلو غاص المرء في اعماق روحه وبحث هناك فلن يرى في كل هذه المشاعر الا تطور اللذة او الالم الفيزيائيين» •

غير أن اعتراضا قد يثار هنا ردا على هلفيسيوس بأن صديقك كان على استعداد لان يخاطر بحياته وثروته لتخليصـك من الالم • وأنت نفسك تقول ذلك • وبالتالي فانك تعترف بأن هناك أناسا قادرين على أن يولوا أذنا صماء « لانطباعاتهم الحسية » كيما يبلغوا هدفـا ساميا •

ولم يقدم فيلسوفنا ردا مباشرا على هذا الاعتراض ، غير أننا نستطيع أن نفهم أن مثل هذا الاعتراض لم يكن ليثير حيرته• فقد كان يمكنه أن يسأل مـــا هو دافع الاعمال البطولية ؟ **انتظار الجزاء** • ومثل هذه الافعال تخامرها اخطار كبيرة ، ولكن كلما زاد الخطر زاد الجزاء • وتوحي المصلحة (الانطباع الحسي) بأن اللعبـــة تستحق المخاطرة • واذا كان هذا هو الوضع بالنسبة للمآثر العظيمة المجيدة فليس ثمة غرابة في انكار الصديق لذاته •

ان هناك أناسا يهبون أنفسهم للعلم ، ويدمرون صحتهم فـــي الانكباب على الكتـــب ، ويعانون كل الوان الحرمـــان كي يجمعوا المعرفة • وقد يقال ان حب العلم لا يجمعه شيء بالمتعـة الفيزيائية • **البخيل المكتز** وليس هذا صحيحا • فلماذا ينكر على نفسه **ضرورات الحياة** ؟ لانه يريد أن يزيد وسائله للمتعة غدا وبعد غد - وباختصار في المستقبل • رائع ! فلنتقبل نفس الامر بالنسبة للباحث **أو العالم** ، وسنكون قد حللنا اللغز :

« فالبخيل يريد أن يكون له قصر فخم ، والموهوب يريـد امرأة جميلة ، والثروات والسمعة لازمة لبلوغ هذه الغايات • ويعمـــل الاثنان ـ كل بطريقته ـ أحدهما لجمع كنوزه والاخر لبناء سمعته • ولكن لو انهما خلال الوقت الذي انفقاه في كسب الثروة أو السمعة قد كبرا في السن ، واكتسبا عادات لا يستطيعان التخلص منها دون

جهد لا يطيقه سنهما ، فسيموت البخيل والموهوب ، الاول دون قصره، والثاني دون معشوقته » (٢٥) ٠

وكان هذا كله كفيلا باثارة سخط «المهذبين» في كل انحاء العالم، وهو يفسر كيف ولماذا اكتسب هلفيسيوس كل هذه السمعة السيئة ٠ كما كان ايضا كفيلا بأن يكشف عن ضعف «تحليله» ٠

وسنضيف استشهادا آخر الى الاستشهادات التي قدمناها من قبل :

« وفضلا عن ذلك فحين نعترف بأن عواطفنا ترجع في أصلها الى الحساسية الفيزيائية فقد يعتقد المرء أيضا أن مثل هذه العواطف ـ في الظروف الحاضرة في الامم المتمدينة ـ توجد مستقلة عن السبب الذي انتجها ٠ ومن هنا فسأحاول أن ابين في تتبعي لتحول الالم واللذة الفيزيائيين الى ألم ولذة اصطناعيين أنه في عواطف مثل البخل والطموح والعزة والصداقة ـ وهي عواطف قد تبدو أبعد ما تكون عن لذات الحواس ـ فان الالم او اللذة الفيزيائيين هما رغم هذا ما نتجنبه أو نسعى اليه » (٢٦) ٠

وهكذا **فلا وراثة** ، ووفقا لداروين فان « الملكات الفكرية والاخلاقية للانسان متغيرة ، ولدينا كل ما يدفعنا الى الاعتقاد بأن التغيرات تميل الى أن تورث » (٢٧)، أما وفقا لهلفيسيوس فان ملكات الانسان متغيرة للغاية ، لكن التغيرات لا تنتقل من جيل الى آخر، لان أساسها ـ ملكة الانطباعات الحسية ـ يظل دون تغيير ٠ لقد كان لدى هلفيسيوس من بعد النظر ما يمكنه من تبين ظاهرة التطور ، لقد رأى أن «نفس الجنس من الحيوانات يقوى أو يضعف ، يتقدم أو يتدهور ، تبعا لطبيعة او وفرة اراضي المرعى » ٠

كما لاحظ أن نفس الامر ينطبق على **البلوط** : «حين نرى اشجار بلوط قصيرة وأخرى طويلة ، اشجارا تنمو مستقيمة وأخرى ملتوية، ولا تشبه واحدة منها الاخرى على الاطلاق» ٠ فلماذا كان الامر كذلك ؟ « ربما لان واحدة منها لم تحصل على نفس طريقة الزراعة بالدقة ، أو توضع في نفس النوع من المكان ، أو تتعرض لنفس النوع

---

(٢٥) «عن الانسان» ـ القسم الثاني ـ الفصل العاشر ٠

(٢٦) « عن الروح » ـ المحاضرة الثالثة ـ الفصل التاسع ٠

(٢٧) يقتبس بليخانوف عن الترجمة الالمانية لكتاب داروين «انحدار الانسان» ـ شتوتغارت ١٨٧٥ ـ ص ١٦٦ ٠

من الرياح ، او تبذر في نفس النوع من التربة» · وهذا تفسير معقول للغاية ، لكن هلفيسيوس لا يقف عند ذلك ، وانما يسأل نفسه : « **هل تكمن الفوارق بين الكائنات في أجنتها أم في تطورها ؟** » وما كان لهذا السؤال أن يثور في ذهن متعصب ، الا أننا ينبغي أن نلاحظ مضمون المأزق : **اما** الجنين او التطور · فلم يدر في خلد فيلسوفنا أبدا أن تاريخ النوع يمكن أن يترك طابعا على بنية الجنين ·

تاريخ النوع ؟ هذا أمر لم يدر في ذهنه أو في اذهان معاصريه، فلم يكن يهتم سوى بتاريخ الفرد ، لم يكن يعنيه سوى «طبيعة» **الفرد** ، ولم يكن يلاحظ سوى «تطور» **الفرد** · اننا بعد عن أن نقتنع بنظرية داروين عن وراثة الاستعدادات الاخلاقية والفكرية ، فهي لا تعدو أن تكون الصفحة الاولى في العلم الطبيعي التطوري· لكننا نعرف جيدا أنه أيا كانت النتائج التي يتوصل اليها هذا الاخير فلن يلقي النجاح الا اذا استخدم **المنهج الجدلي** في دراسة الظواهر لان طبيعتها جدلية أساسا ·

ولقد ظل هلفيسيوس **ميتافيزيقيا** حتى حين كان ينجذب بالغريزة الى وجهة النظر المضادة تماما ــ **الجدلية** ·

وهو يعترف بأنه «**لا يعرف شيئا**» عما اذا كان الفارق بين الكائنات «يكمن» فحسب في تطورها (الفردي) · فمثل هذا الفرض يبدو له أكثر جرأة مما يجب، فالحق انه يمكن أن يؤدي الى ما اعتبره لوكريتس ــ الذي كان «الفلاسفة» الماديون يعرفونه جيدا ــ حماقة فاضحة :

... Ex omnibus rebus
Omne genus Nasci Posset ...
. . . .
Nec fructus idem arboribus constare solerent
Sed mutarentur : ferre omnes omnia possent (٢٨)

---

(٢٨) ··· فمن أي زمن
يمكن أن يولد أي جنس ···
.. ..
والاشجار ستضل دائما
ثمرة دائمة وانما متغيرة : فكل شيء يمكن أن ينتج أي شيء·
ــ المترجم ·

الا انه حين كانت المشكلة محدودة ، وكان السؤال يدور حول نوع واحد أي **الانسان** فان هلفيسيوس لم تكن تخامره مثل هذه الشكوك • فقد كان يقرر بشكل قاطع وبكل ثقة أن كل «الفوارق» بين الناس تكمن في تطورهم وليس في أجنتهم او وراثتهم : فنحن جميعا نمتلك نفس القدرات عند الميلاد ، وتربيتنا هي وحدها التي تجعلنا نختلف عن بعضنا البعض • وسنرى فيما بعد أن هذه الفكرة ـ وان كانت تفتقر الى التدليل اللازم ـ كانت في يديه فكرة مثمرة للغاية،الا أنه وصل اليها من **الطريق الخاطيء** ، وكان أصل تفكيره واضحا في كل مرة يستند اليها ، وفي كل مرة يحاول أن يثبتها • وتوضح لنا هذه الفكرة أن ديدرو كان على حق تماما حين قال ان **عبارات** هلفيسيوس كانت أقوى كثيرا من **براهينه**•لقد كان المنهج الميتافيزيقي في مادية القرن الثامن عشر يصب جام نقمته على اجرأ أتباعه وأكثرهم منطقية •

اننا نشعر دائما برغبة في المتعة الفيزيائية ، ونحاول دائما تجنب الالم الفيزيائي • هذا قول هام • ولكن كيف يثبته ؟ ان هلفيسيوس يأخذ نقطة بدء له الانسان الناضج النامي ، وهو انسان له «عواطف» دوافعها متعددة ومركبة للغاية ، وتدين بأصلها بلا شك الى **البيئة الاجتماعية ، أي الى تاريخ النوع** ، ثم يحاول أن يستخلص هذه «العواطف» من الانطباعات الحسية • ان شيئا ينشأ مستقلا عن **الذهن** يعرض لنا وكأنه النتيجة الفورية المباشرة لهذا الذهن نفسه • وتتخذ **العادة والغريزة** شكل **الانعكاس** الذي يثيره في الانسان شعور أو آخر• وقد قلنا في بحثنا عن هولباخ ان هذا الخطأ كان يميز كل «الفلاسفة» الذين دافعوا عن الاخلاق النفعية • غير أن هذا الخطأ قد اتخذ عند هلفيسيوس أبعادا مؤسفة : ففي الصورة التي يعرضها اختفى **الانعكاس** بالمعنى الصحيح للكلمة ، وأخلى مكانه لعدد من **الصور الذهنية** التي ترجع جميعا دون استثناء «**للانطباعات ـ الحسية**»، التي وان تكن بلا شك **سببا فعالا ولكنه بعيد للغاية لعاداتنا الاخلاقية** فانها تصبح لديه **السبب النهائي لافعالنا** • وهكذا فان **خيالا يقدم كحل** للمشكلة •

غير أن من الجلي بذاته أن المشكلة لا يمكن أن تذوب في حامض الخيال • وفضلا عن هذا فان هلفيسيوس «بتحليله» يحرم مشاعرنا الاخلاقية من سماتها النوعية ، وبذا يحذف هذه الـ س ، هذا الكم المجهول ، الذي كان عليه أن يحدد دلالته ، لقد أراد أن يثبت أن كل

مشاعرنا مستمدة من الانطباعات الحسية : ولكي يثبت وجهة نظره صور الانسان وكأنه في مطاردة دائمة للذات الجسد و «الجواري الجميلات» وما الى ذلك · والحق أن عباراته أقوى من البراهين التي يقدمها ·

وليست بنا حاجة ـ بعد كل هذه الايضاحات ـ لان نؤكد كما فعل **لاهارب** وكثير غيره أن **نيوتن لم ينغمس في حساباته الرياضية الهائلة** كي يحصل على معشوقة جميلة · كلا بالطبع ! غير أن هذه الحقيقة لا تسير بنا خطوة واحدة الى الامام سواء في علم «الانسان» أو تاريخ الفلسفة · فثمة أمور أكثر أهمية من تأكيد مثل هذه « **الحقائق** » ·

هل يمكن أن نتصور بجدية أن هلفيسيوس لم يتصور الانسان الا ككائن ذكي ذي حس ؟ يكفي أن نقلب صفحات كتاباته لنرى أن الامر ليس كذلك · **فقد** كان يدرك تماما ـ على سبيل المثال ـ أن هناك أناسا «انتقلوا بالروح الى المستقبل ، وانتظروا ثناء وتقدير الاجيال المقبلة » ··· ونبذوا مجد اللحظة وتقديرها من أجل الامل البعيد في كسب مجد وتقدير أكبر ، انهم أناس « لا يريدون الا تقدير المواطنين الجديرين بالتقدير » (٢٩) · ولقد أدركوا بوضوح كامل انهم لن يتمتعوا **بكثير من اللذة الحسية** ·

ومضى **هلفيسيوس** ليقول ان هناك أناسا **لا يرون شيئا أسمى من العدالة** ، وأوضح أن فكرة العدالة ترتبط ارتباطا وثيقا في ذاكرة أمثال هؤلاء بفكرة السعادة ، وأن الفكرتين تشكلان كلا واحدا لا يتجزأ ·

« ونشأت عادة الجمع بينهما في نفس الوقت ، « وما أن تنشأ هذه العادة حتى يصبح من مصادر اعتزازهم أن يكونوا دائما عادلين فاضلين ، وما من شيء لا يضحي به المرء من أجل مثل هذه العزة النبيلة » (٣٠) ·

وبالطبع لا يعود أمثال هؤلاء في حاجة ـ كيما يسترشدوا

(٢٩) «عن الانسان» ـ القسم الرابع ـ الفصل السادس ·

(٣٠) المصدر السابق ـ الفصل العاشر ـ الملاحظة الاخيرة في هذا الفصل ·

بالعدالة ـ الى أن يستحضروا في أذهانهم صورا شهوانية ٠
كما أن فيلسوفنا قد عبر عن الرأي القائل ان الانسان يصبح عادلا أو غير عادل بحكم **تربيته** ، وأن قوة هذه الاخيرة بلا حدود ، وأن «**الانسان ذا الاخلاق هو كلية نتاج التربية والتقليد**» (٣١) ، وتحدث عن **آلية** مشاعرنا وقوة **تداعي الافكار** بالعبارات التالية :

«لو كان لدي ـ بسبب شكل الحكومة ـ كل ما اخشاه من الشخصيات الكبيرة فسأحترم العظمة اوتوماتيكيا،حتى لدى لورد اجنبي لا يستطيع أن يضيرني في شيء ٠ ولو تداعت في ذاكرتي فكرة الفضيلة مع فكرة السعادة فسأزرع الفضيلة حتى حين تكون موضعا للاضطهاد ٠ انني ادرك جيدا ان هاتين الفكرتين ستنفصلان في النهاية، لكن هذا سيكون فعل الزمن ، بل الزمن الطويل » ٠

ثم يضيف في النهاية :
« وبعد تفكير عميق في هذه الحقيقة نحسب يستطيع المرء أن يجد الحل لعدد لا نهائي من المشكلات الاخلاقية التي لا يمكن ان تحل دون معرفة بهذا التداعي للافكار » (٣٢) ٠

ولكن ماذا يعني هذا كله ؟ أيعني حشدا من التناقضات كل منها صارخ أكثر من الاخر ؟ لا شك في ذلك ! **فالميتافيزيقيون** دائما ما يقعون ضحايا لهذه التناقضات ٠ ان مناقضة أنفسهم في كل خطوة نوع من المرض المهني لديهم ، ووسيلتهم الوحيدة لتسوية مأزقهم المتأصل ٠ ولم يكن هلفيسيوس استثناء على هذه القاعدة العامة ٠ بالعكس كان عليه ـ كذهن متوقد باحث ـ أن يدفع اكثر من غيره مقابل مذهبه ٠ وينبغي ان نكشف هذه الاخطاء ، وبذا نبين مزايا المنهج الجدلي ٠ غير أن علينا ألا نعتقد أن مثل هذه الاخطاء يمكن أن تزال بالسخط الاخلاقي في غير موضعه ، أو بعدة حقائق متناهية في صغرها ، وفضلا عن هذا قديمة قدم العالم ٠

يقول لاهارب عن فيلسوفنا : « ويلاحظ المرء وهو يقرأه ان خياله لا

---

(٣١) المصدر السابق ـ الفصل الثاني والعشرون ٠
(٣٢) المصدر السابق ـ القسم الثامن ـ الفصل الرابع ٠

يستلهم الا افكارا براقة شهوانية ، وما من شيء اقل ملاءمة لذهن الفيلسوف » (٣٣) ·

ويعني هذا ان هلفيسيوس لم يتحدث عن «الانطباعات الحسية» ويجعلها نقطة البدء في بحثه الا لانه كان شغوفا بالدوافع الحسية · وهناك قصص كثيرة عن حبه «للعشيقات الجميلات» ، وقد صور هذا الحب كتكملة لغروره · وسنمتنع عن أي تقدير لمثل هذه الاساليب «الانتقادية» · غير أننا نعتبر من المهم أن نجري مقارنة ـ في هذا الصدد ـ بين **هلفيسيوس وتشيرنشيفيسكي** ·

لقد كان **رجل التنوير الروسي** العظيم أبعد عن أن يكون «ملتزما» أو «نبيلا» أو «مغرورا» (فلم يتهمه أحد أبدا بهذه النقيصة) أو محبا «للجواري الجميلات» · ورغم هذا فقد كان هلفيسيوس ـ من بين كل فلاسفة القرن الثامن عشر ـ هو اقربهم شبها به · فقد كان تشيرنشيفيسكي يتسم ـ في اثباته لرأي قاله ـ بنفس الجرأة المنطقية، ونفس الاحتقار للعاطفية ، ونفس المنهج ، ونفس الذوق ، ونفس الاسلوب العقلاني في تقديم البرهان ، وفي كثير من الاحيان بنفس الاستخلاصات والامثلة بأدق التفصيلات (٣٤) · فكيف يمكن أن

(٣٣) « دحض كتاب (عن الروح) » ـ ص ٨ ·

(٣٤) أوصى هلفيسيوس بالاقتداء بمثال علماء الهندسة « فماذا يفعلون حين تواجههم مشكلة معقدة في الميكانيكا ؟ انهم يبسطونها ، فهم يحسبون سرعة الاجسام المتحركة ، مغفلين كثافتها ومقاومة السوائل المحيطة ، واحتكاك الاجسام الاخرى » («عن الانسان» ـ القسم التاسع ـ الفصل الاول) · وبنفس العبارات تقريبا يوصي تشيرنشيفيسكي **بتبسيط** مشكلات الاقتصاد السياسي · وقد اتهم هلفيسيوس بالافتراء على سقراط وريجولوس لكن ما قاله تشيرنشيفيسكي عن انتحار العذراء لوكريسيا الشهير اذ لم ترد أن تعيش بعد اغتصابها، يشبه الى حد بعيد افكار هلفيسيوس عن أسير قرطاجنة البطل · وكان تشيرنشيفيسكي يؤمن بأن على الاقتصاد السياسي لا أن يتناول ما هو قائم بل ما **ينبغي** أن يقوم ، فلنقارن هذا بما كتبه هلفيسيوس في رسالة الى مونتسكيو « وتذكر انني خلال مناقشة في لابريد (حول كتاب مونتسكيو «المبادىء») اعترفت بأنها تنطبق على الظروف الراهنة ،

نفسر هذا التوافق ؟ أهو انتحال من جانب الكاتب الروسي؟ لم يجسر أحد حتى الان على توجيه مثل هذا الاتهام لتشيرنشيفيسكي · ولكن فلنتصور أن ثمة أساسا لذلك ، واذن فسيكون علينـــــا أن نقول ان تشيرنشيفيسكي سرق أفكار **هلفيسيوس** ، المستمدة من مزاج الاخير الشهواني وغروره اللانهائي · أي وضوح مذهل ! أية فلسفة عميقة لتاريخ الفكر الانساني ·

وعلينا ألا ننسى ونحن نلحظ اخطاء هلفيسيوس أنهكان مخطئا في نفس النقطة التي اخطأت فيها كل الفلسفة **المثالية** (او بالاحـــرى **الثنائية**) التي كانت تشن صراعا ضد المادية الفرنسية · وأحيانا ما كان سبينوزا وليبنتز يستخدمان السلاح الجدلي بمهارة (وبخاصـــة هذا الاخير في «أبحاث جديدة عن الفهم الانساني») غير ان موقفهما المشترك يظل ميتافيزيقيا · وفضلا عن ذلك فان **سبينوزا وليبنتز** لـــم يلعبا دورا قياديا في الفلسفة الفرنسية الرسمية في القـــرن الثامن عشر التي كان يسودها نوعمحور ومبتذل الى حد ما من الديكارتية· غير ان هذه الاخيرة لم تكن تحوي ادنى فكـــرة عن التطور (٣٥) · وكان عجز المنهج ــ الى حد ما ــ شيءورثته**المادية** عن سلفها **الثنائي**:

←

ولكن الكاتب الذي يريد أن يكون مفيدا للشعب ينبغي أن يشغل نفســه بالمباديء الحقة في وضع مقبل افضل وليس بتقنين مباديء تصبـــح خطرة حالما يستولي عليها التحيز بهدف استخدامها وابقائها » (انظر «مؤلفات **هلفيسيوس** الكاملة» ـ باريس ١٨١٨ ــ المجلد الثالث ــ ص ٢٦١) · ونستطيع ان نضيف كثيرا من الامثلة الى هذا المثـال الذي يثير الدهشة ، لكننا نفضل ألا نبين التوافق بين آراء هــذين الكاتبين الذين يفصل بينهما قرن من الزمان الا بقدر ما اتاحته لنا فرصةعرض نظرية هلفيسيوس ·

(٣٥) يقول **فلنت** «يكشف ديكارت بالمناسبة في كثير من فقـــرات كتاباته عن أنه قد نظر الى الحقائق الاجتماعية نظرة واضحة ثاقبة · وهكذا فعل **مالبرانسن** » · لكن **فلنت** هذا نفسه يعترف بأن «ديكارت لم تكن لديه أدنى فكرة عن علم للتاريخ » وأن «العلم التاريخي لم يبدأ في الازدهار في فرنسا الا مع انهيار الديكارتية ···» (انظر « فلسفـــة التاريخ في فرنسا وألمـــانيا » ــ ايدنبورغ ولندن ــ ١٨٧٤ ــ ص ٧٦ ــ ٧٨) ·

ولا ينبغي أن ننخدع في هذا الصدد· فاذا كان الماديون مخطئون فان هذا لا يعني بأي حال أن خصومهم كانوا على حق · لا شيء من هذا القبيل ! لقد كان خصومهم مخطئون خطأ مضاعفا مرتين وثلاث — وباختصار كانوا اكثر خطأ منهم بما لا يقاس ·

فماذا نعرف من لاهارب عن أصل مشاعرنا الاخلاقية وهو الذي لم يفوت فرصة في تصويب كل مدفعيته الثقيلة ضد هلفيسيوس ؟ القليل للغاية ويا للاسف ! انه يؤكد لنا أن «كل عواطفنا معطاة لنا **مباشرة من الطبيعة** » وانها « من **طبيعتنا** » (التأكيد للاهارب) «وان كانت لا تصبح افراطا الا نتيجة لفساد المجتمعات الكبيرة» · وهو يمضي ليقول لنا ان «المجتمع نظام طبيعي»، ومن هنا فان هلفيسيوس «مخطيء تماما حين يسمي بالمصطنع ما نتج عن نظام طبيعي وضروري» ، وأن «للانسان مقياسا آخر لاحكامه غير مصلحته» وأن «هذا المقياس هو حاسة العدالة» وأن «اللذة والالم يمكن أن يكونا القوة الدافعة الوحيدة لدى الحيوانات الدنيا وحدها» ولكن «الله والضمير والقوانين المستمدة منهما — هذا ما ينبغي أن يسترشد به الانسان » (٣٦) · عميق جدا ، أليس كذلك ؟ ها هي الامور تتضح في النهاية !

ولنلق الان نظرة تقدير على خصم آخر «السوفسطائيينا» ، هو هذه المرة رجل من رجال القرن التاسع عشر· فبعد أن قرأ هذا الرجل في «عن الروح» أن الصالح المشترك هو مقياس الفضيلة ، وأن أي مجتمع يعتبر الاعمال المفيدة له اعمالا فاضلة ، وأن احكام الناس عن افعال من حولهم تتغير بما يتمشى مع مصالحهم ، أطلق هذا الرجل — بهيئة ظافرة — سيلا من الكلمات :

« فاذا زعم أن الاحكام العامة عن افعال الافراد معصومة بقدر ما تساندها أغلبية الافراد فان علينا أن نعترف بعدد من الاستخلاصات من هذا المبدأ ، كل منها اكثر حماقة من الاخر ، وعلى سبيل المثال : ان آراء الاغلبية هي وحدها التي تتفق مع الحقيقة··· وتغدو الحقيقة وهما حين تكف عن أن تكون رأي الاغلبية وتصبح رأي الاقلية ، وبالعكس يغدو الوهم حقيقة حين يصبح رأي الاغلبية بعد أن ظل طويلا

(٣٦) « دحض كتاب (عن الروح) » — ص ٥٧ و ٦١ و ٦٣ و ٦٨ و ٦٩ ·

رأي الاقلية » (٣٧) ·

يا للرجل الساذج ! الحق أن دحضه لهلفيسيوس ـ الذي لم يتمكن أبدا من استيعاب نظرياته ـ يتسم «بالجدة» ·

وحتى أناس من عيار اكبر ـ وعلى سبيل المثال لانج ـ لا يرون في هذا المذهب الا دفاعا عن «المصلحة الشخصية» · ويعتبر من قبيل البديهيات أن مذهب آدم سميث الاخلاقي لا يتفق في شيء مع اخلاق الماديين الفرنسيين · فهذان المذهبان يقفان على طرفي نقيض· ولانج الذي لم يعبر الا عن الازدراء لهلفيسيوس يكن أكبر تقدير لادم سميث كأخلاقي ، فهو يقول «ان استخلاص آدم سميث للاخلاق من التعاطف، وان لم يكن مدعما بما يكفي حتى في حينه يظل حتى أيامنا هذه من اكثر المحاولات اثمارا لارساء أسس عقلية وطبيعية للاخلاق » · ويعتبره بودريلار ـ المؤلف الفرنسي لتعليق عن «نظرية المشاعر الاخلاقية» ـ رد فعل صحي ضد «مذاهب المادية والانانية» · ولم يكن سميث نفسه يشعر بأي «تعاطف» مع مذاهب الماديين الاخلاقية · ولا بد أنه ـ **كمانديفيل** ـ قد وجد نظرية هلفيسيوس «**منحلة**» · ونأمل ألا يكون القاريء قد نسي بعد كيف فسر هذا الاخير الاسى الذي نحس به عند فقد صديق · فلنقرأ الان ما كتبه الانجليزي الشهير في هذا الشأن :

«اننا نتعاطف حتى مع الموتى · فنحن نرى انه من المؤلم ان

(٣٧) «دحض جديد لكتاب (عن الروح)» ـ صدر في كليرمونت ـ فيران ـ ص ٤٦ · وان منهج الكاتب المجهول في تقديم البراهين يذكر المرء بالحجج التي يستخدمها العلامة ـ داميرون ـ « العلامة »! ـ ففي بداية «عن الروح» يقول هلفيسيوس ان الانسان يدين بتفوقه على الحيوانات ـ بين ما يدين به ـ الى تركيب اطرافه ، فيرعد داميرون قائلا «اتعتقد اننا لو اعطينا الحصان يدي الانسان فسنضفي عليه ذهن الانسان · انهما لن يعطياه شيئا اللهم الا أن يجعلا من المستحيل عليه أن يعيش كحصان » («مذكرات عن تاريخ الفلسفة في القرن الثامن عشر» ـ باريس ١٨٨٥ ـ المجلد الاول ـ ص ٤٠٦) · وبنفس الطريقة ناقش استاذ لاهوت ساذج في سان بطرسبورغ نظرية داروين قائلا «يقول داروين الق دجاجة في الماء وستنمو لها قدم ذات غشاء ، أما أنا فأؤكد ببساطة انها ستغرق » ·

يحرموا من ضوء الشمس ، وأن تغلق عنهم الحياة والحديث ، وأن يودعوا القبر البارد نهبا للعفن وزواحف الارض ، وألا يعود أحد يفكر فيهم في هذا العالم بل يزولون في وقت قليل من عواطف وربما من ذاكرة اعز اصدقائهم واقاربهم ··· أما أن تعاطفنا لا يوفر لهم ترضية ما فانه أمر يبدو اضافة الى الكارثة ··· الخ (٣٨) ·

وهذا بالطبع شيء مختلف تماما ! ولكن فلنلق نظرة أقرب على هذه الحجة · ماذا يعني «**تعاطف**» آدم سميث ؟

« ومهما افترضنا في الانسان من أنانية فمن الواضح أن ثمةمباديء في طبيعته ، تثير اهتمامه بنصيب الاخرين ، وتجعل سعادتهم ضرورية له ، رغم انه لا يستمد شيئا منها الا متعة مشاهدتها ··· ان شعورنا بالاسف نتيجة أسف الاخرين حقيقة اوضح من أن تحتاج الى مثال او برهان » ·

وهو يرى مصدر هذه الحساسية بأسف الاخرين فيما يلي :

« ··· ولما لم تكن لدينا تجربة مباشرة بما يشعر به الاخرون فاننا لا نستطيع أن نكون فكرة عن الطريقة التي يتأثرون بها ، وانما بتصور ما سنشعر به انفسنا في وضع مماثل » (٣٩) ·

أفتظن أنه ليس ثمة شيء شبيه بهذا في كتابات هلفيسيوس ؟ انه يتساءل في كتابه «عن الانسان» (القسم الثاني ـ الفصل السابع) ماذا يعني أن يكون الرجل انسانيا ، ويجيب : «**الرجل الذي يكون مشهد بؤس الاخرين لديه مشهدا حزينا**» · ولكن من أين تنبع هذه القدرة على الشعور بأسف الاخرين ؟ اننا ندين بها للذكريات التي تعلمنا أن نطابق بين أنفسنا والاخرين ·

« فاذا اكتسب الطفل عادة المطابقة بين نفسه وبين التعساء يكون

---

(٣٨) «نظرية المشاعر الاخلاقية» ـ لندن ـ ١٨٧٣ ـ ص ١٢ و ١٣ ، وقد نشر هذا الكتاب للمرة الاولى عام ١٧٥٧ ·

(٣٩) المصدر السابق ص ٩ و ١٠ ·

أكثر تأثيرا ببؤسهم بحيث أنه في أساه على محنتهم يكشف عن تعاطف مع البشرية ككل ، وبالتالي مع ذاته بوجه خاص · وعندئذ يمتزج عدد لا نهائي من مختلف المشاعر مع الشعور الاول ، ويشكل مجموع هذه المشاعر شعورا كليا باللذة التي تبهج الروح النبيلة ، في الوقت الذي تخفف فيه عن التعيس ، وهو شعور **ليس قادرا دائما على تحليله** » ·

وسيوافق القاريء على أن سميث ينظر الى نقطة البدء في استخلاصه ـ التعاطف ـ بنفس الطريقة بالتحديد · غير أن هلفيسيوس يربط التعاطف بمشاعر أخرى أقل جاذبية ففي رأيه ،

المرء يواسي التعساء : ١) كي يتخلص من الالام الفيزيائية التي يسببها مرأى معاناتهم · ٢) ليستمتع بمشهد الرفاق الذي يثير لدينا على الاقل الامل في فائدة بعيدة · ٣) ليمارس عملا من اعمال القوة ، وممارستها دائما ممتعة لانها تخلق في أذهاننا صورة المتع المرتبطة بالقوة · ٤) لان فكرة السعادة ترتبط دائما ـ بحكم التربية الجيدة ـ بفكرة فعل الخير ، ولان هذا الفعل اذ يكسبنا تقدير الناس ومحبتهم يمكن أن يعتبر ـ كالثروة ـ قوة أو وسيلة لتجنب الالم وبلوغ اللذة» ·

وليس هذا بالطبع ما قاله سميث تماما ، لكنه لا يغير شيئا فيما يتعلق بالتعاطف ، وهو يبين أن هلفيسيوس توصل الى نتائج على نقيض من الاستخلاصات التي توصل اليها مؤلف «نظرية المشاعر الاخلاقية»، فحاسة التعاطف ـ عند هذا الاخير ـ كامنة في «طبيعتنا»، أما عند هلفيسيوس فان طبيعتنا لا تحوي الا «انطباعا حسيا» · وقد وجد نفسه مجبرا على أن يحلل ما لم يفكر سميث حتى في لمسه · لقد تقدم سميث في طريق ، واختار هلفيسيوس الطريق **المضاد** · فأي سبب اذن للدهشة اذا ما تباعدا أكثر وأكثر ، ولم يلتقيا أبدا في النهاية ·

ولا شك أن هلفيسيوس لم يكن ليميل بأي حال لان يمرر مشاعرنا في مصفاة التعاطف كاحدى مراحل تطورها · فهو ـ في هذا الصدد ـ لم يكن «أحادي الجانب» · غير انه لا ينبغي الاعتقاد بأن «تعاطف» سميث قد جعله يتخلى تماما عن وجهة النظر النفعية · والمصلحة الاجتماعية لديه ـ كما عند هلفيسيوس ـ هي التي توفر أساس

الاخلاق وجزاءها (٤٠) غير انه لم يخطر له أبدا أن يستخلص هـذا الاساس والجزاء من العناصر الاولية للطبيعة الانسانية ٠ انـه لم يسأل نفسه ما الذي شكل أساس «الحكمة الاسمى» التي تحكمت في شبكة الميول الانسانية٠ لقد رأى **واقعة** عارية حيثما رأى هلفيسيوس بالفعل **عملية تطور**٠ويلاحظ سميث أن «هذا العرض للطبيعة الانسانية الذي يستخلص كل المشاعر والعواطف من حب الذات ٠٠٠ يبدو لي أنه قد نشأ نوع من سوء الفهم المشوش لمذهب التعاطف» (٤١) ٠ وقد كان عليه أن يقول ان هذا المذهب لم يكن سوى محـاولة للكشف عن **منشأ** عواطفنا ومشاعرنا ، في حين أنه قنع **بوصف** قدير الى حد ما لهذه المشاعر والعواطف (٤٢) ٠

ولقد كانت التناقضات التي وقع فيها هلفيسيوس ـ كمـا أشرنا أكثر مر مرة ـ نتيجة لمنهجه الميتافيزيقي ٠ وكان هنـــاك أيضا كثير من التناقضات التي ترجع الى أنه كثيراً ما ضيق **وجهة نظره النظرية**

٠(٤٠) « اننا لا نحب وطننا كمجرد جزء من مجتمع البشرية الكبير ، وانما نحبه لذاته ، وبغض النظر عن أي اعتبار من هذا النوع ٠ فتلك الحكمة التي استنبطت نظام العواطف الانسانية ـ فضلا عن كل جـزء آخر من الطبيعة ـ يبدو انها قدرت أن مصلحة مجتمع البشرية الكبيـر سيخدم على نحو افضل اذا ما وجه الاهتمام الرئيسي لكل فرد الـــى ذلك الجزء الخاص الذيبدخل بدرجة اكبر في نطاق قدراته وفهمه٠٠٠» (المصدر السابق ـ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤) ٠

(٤١) المصدر السابق ـ ص ٢٨١ ٠

(٤٢) وهذا كله واضح تماما الا انه يبدو صعب الفهم٠ يقول هكسلي «لا شك أن الفضيلة مفيدة ، لكنه جدير بالحسد هذا الانسان الذي تبدو له طرقها جذابة ٠٠٠ فحساب السعادة الكبرى لا يجري بنفس سهولة مسألة حسابية ٠٠٠ فالقانون الاخلاقي ٠٠٠ يستند في المدى الطويل الى الحدس الغريزي ٠٠٠ » (يقتبس بليخانوف عن الترجمة الفرنسية لكتاب هكسلي « هيوم ٠٠ حياته وفلسفته » ترجمـــة ج٠ كومبايري ـ باريس ـ ١٨٨٠ ـ ص ٢٨١ و ٢٨٤) ٠ واذا كان العــــالم الطبيعي الانجليزي يريد بمثل هذه الاعتبارات أن يدحض الاخلاق المادية فـــي القرن الثامن عشر فانه يكون مخطئا تماما ، ويكون قد نسي داروين٠ ولعله انما كان يفكر في أناس أقل شأنا مثـل بنتهام وجون ستيوارت ميل ٠ وفي هذه الحالة يكون على حق ٠

حتى يبرز امكانية وسهولة بلوغ اهـــداف عملية معينة • ونستطيع ـ بالمناسبة ـ أن نرى هذا في مثال «افتراء» كاتبنا على ريجولوس •

فقد أراد هلفيسيوس أن يثبت أن ريجولوس ـ كقائد عسكري ، وبما يتفق مع العـــادات الرومانية القديمة ـ لم يكن يستطيـــع أن يتصرف الا بالطريقـــة التي تصرف بها ، حتى وهو يتـــابع غاياته الخاصة • وكان هذا هو «الافتراء» الذي أثار سخط **جان جاك** • غير أن هلفيسيوس لم يقصد على الاطلاق أن ريجولوس قد تابع **حقـــا** غاياته الخاصة ، «**فلا شك أن فعل ريجولوس كان نتيجة حماس دافق يدفعه نحو الفضيلة**» • فماذا اذن كان الغرض من هذا « الافتراء » ؟ كان القصد منه هو اثبات أن «مثل هذا الحمـــــاس لم يكن يمكن أن يشتعل الا في روما وحدها» • فتشريع هذه الجمهورية «الكامل» كان يستطيع أن يربط ربطا وثيقا بين مصالح مواطنيها الخاصة ومصالح الدولة (٤٣) • ومن هنا جاءت بطولة الرومان القدامى •

والنتيجة العملية التي يمكن استخلاصها هي أنه اذا تعلم الناس أن يتصرفوا بنفس الطريقة فان ابطالا مثـــل ريجولوس سيظهرون بالتأكيد • ولكي تتجلى هـــذه النتيجة تماما للقـــاريء لم يبين له هلفيسيوس الا جانبا واحدا من المسألة ، لكن هذا ليس دليلا على أنه لم ير تأثير العادة وتداعي الافكار و «التعاطف» و «الحماس» والعزة النبيلة وما الى ذلك • لا شيء من هذا القبيل : وانما هو فحسب لم يكن قادرا دائما على أن يجد الروابط بين هـــذا التأثير والمصلحة الشخصية أو «الانطباعات الحسية»، رغم أنه حاول أن يفعل ذلك لانه لم ينس **أن الانسان ليس سوى حساسية** • واذا لـم يكن قادرا على أداء المهمة فما ذلك الا بسبب الطبيعـــة الميتافيزيقية لمادية عصره ، ولكن سيظل له دائما الفضل في أنه استخلص كـل النتائج من مبدئه الاساسي •

ونفس سيادة **الاتجاه العملي** هي المسؤولة عن موقفه المستخف من مسألة هل ولد كل الناس بنفس القدرات • فلم يكن قادراً حتى أن يطرح المسألة طرحا سليما •ولكن ماذا كان يريد أن يقولحين تناولها؟ لقد فهم هذا تماما **جريم** الذي لم يكن منظرا كبيرا • فقد كتب يقول في «المراسلات الادبية» (نوفمبر ١٧٧٣) عن كتاب «عن الانسان» :

---

(٤٣) «عن الروح» ـ المحاضرة الثالثة، الفصل الثاني والعشرون •

« ان غرضه الاساسي هو أن يبين ان العبقرية والفضائل والمواهب التي تدين لها الامم بعظمتها وسعادتها ليست نتيجة الاختلافات في الطعام او المزاج او الحواس الخمس ـ التي لا تمارس عليها القوانين والادارة أي تأثير ـ وانما نتيجة للتربية التي تتحكم فيها القوانين والحكومة تماما » (٤٤) ·

ومن السهل أن نفهم **القيمة العملية** لمثل هذا النوع من الافكار في اوقات **الاختمار الثوري** ·

فاذا لم يكن الانسان سوى آلة تدفعها «الانطباعات الحسية» ، آلة **مجبرة** على أن تفعل كل ما تفعله هذه الاخيرة ، عندئذ فان دور «**الارادة الحرة**» في حياة أي شعب أو فرد يعادل الصفر · واذا كانت «الانطباعات الحسية» تشكلمبدأ ارادة الناس واحتياجاتهموعواطفهم واجتماعيتهم وأفكارهم وأحكامهم وأفعالهم فان من الواضح أنهينبغي ألا نبحث عن مفتاح مصائر البشرية في الانسان و «**طبيعته**» ، واذا كان كل الناس متساوين في المواهب الروحية فان السمات المتخيلة لطابع العنصر أو القومية لا يمكن بالطبع أن تفسر شيئا في ظروف الامة الحالية أو الماضية · هذه الاستنتاجات الثلاثة التي لا مهرب

---

(٤٤) لم يكن هولباخ يشاطر هلفيسيوس رأيه هذا رغم انه كانيصفه بأنه «**اخلاقي بارز**»· ففي رأيه ان «من الخطأ ان تعتقد ان التربية يمكن ان تفعل كل شيء بالانسان ، انها لا تستطيع الا أن تستخدم المادة التي تقدمها الطبيعة ، ولا تستطيع ان تبذر بذارا ناجحا الا في التربة التي تقدمها الطبيعة » (أنظر « الاخلاق الكلية » ـ القسم الخامس ـ الفصل الثالث وانظر ايضا المصدر السابق ـ القسم الاول ـ الفصل الرابع)· كما ان هولباخ لم يسأل أي دور يلعبه **المجتمع** فيما يسميه **طبيعة** الفرد· وبالمناسبة فقد كان هلفيسيوس ذاته يدرك جيدا أن وجهة نظره لا يمكن أن تثبت بالدقة ، وانما اعتقد ان من الممكن على الاقل تأكيد أن « هذا التأثير » (أي تأثير التنظيم على اذهان شعب متطور الى حد ما) «من الصغر بحيث يمكن اعتباره كما مهملا في معادلة جبرية ، بحيث أن ما كان يعزى من قبل لتأثير الخواص الفيزيائية ، ولم يكن من الممكن تفسيره بهذا السبب ،تفسره تماما الاسباب المعنوية » (أي تأثير البيئة الاجتماعية ـ ج·ب·)· وبنفس العبارات تقريبا تحدث تشيرنشيفيسكي عن تأثير العنصر على مصائر الشعوب ·

منها منطقيا تمثل بالفعل **مقدمة** بالغة الاهمية لفلسفة التاريخ ككل ·
ويرى هللفيسيوس أن كل الامم التـــي تعيش **في نفس الظروف** ولديها **نفس النوع من القوانين** ، تتسم بنفس الروح ، وتدفعها نفس العواطف · «ولهذا السبب **فاننا نجد لدى الهنود الامريكيين عادات الالمان القدامى**» ، ولهذا السبب فان «**آسيا التي يقطن الجانب الاكبر منها ابناء الملايو تحكمها قوانيننا الاقطاعية القديمة**».لهذا السبب فأن «**الوثنية لم تكن فحسب أول الاديان بل ان عبادتها التي ما زالتقائمة اليوم في كل افريقيا تقريبـــــا ··· كانت ذات يوم الدين الكلي** » ، لهذا السبب توجـــد سمات شبه كبيـــرة بين **الميثولوجيا الاغريقية** والميثولوجيا **السلتية** ، وأخيرا فلهذا السبب نجد نفس **الامثال** عنــد مختلف الشعوب · وبشكل عام يوجد تشابه مذهـــل بين مؤسسات الشعوب البدائية وروحهـــــا ومعتقداتها · فالشعوب ــ كالافراد ــ تشبه بعضها البعض **أكثر كثيرا مما يبدو** ·

المصلحة **والحاجات** ــ تلك هي المعلم العظيم والوحيـد للجنس البشري · لماذا كان الجوع السبب المألوف للاعمــال الانسانية ؟ لانه ــ من بين كل احتياجات الانسان ــ اكثرها تكرارا والحاحا وأشدها ايلاما · والجوع يزيـــد حدة ذكـــاء الحيوانات ، ويجبرنا على أن نمارس قدراتنا ــ نحن بني الانسان الذين نتصور انفسنا أرقى كثيرا من الحيوانات · انه يعلم المتوحش أن يثني القوس ، وينسج الشباك، ويضع الفخاخ · « كما أن الجوع هو الذي يجعل كل المواطنين ــ في الشعوب المتمدينة ــ يعملون ، ويفلحون الارض ، ويتعلمون الحرف ، ويؤدون أي واجب» · وتدين له البشرية بفن استصلاح الارض وصنع المحاريث ، بنفس الطريقة التي نشأ بها فن البناء وصنع الثيـــاب من الحاجة الى أن نحمي أنفسنا من قوى الطبيعة · **فلولا الحاجات لمـا وجد الانسان حافزا للعمل** ·

« فمن الاسباب الرئيسية لجهل الافريقيين وخمولهم خصوبة ذلـــك الجزء من العالم· انه يشبع كل الاحتياجات دون زراعة للارض تقريبا· ومن هنا فليس لدى الافريقيين حافز للتفكير، وهم لا يفكرون الا قليلا· ونستطيع أن نقول نفس الشيء عن ابناء الكاريبي فهم اذا كانوا أقل دأبا من متوحشي امريكا الشمالية فما ذلك الا لان على هؤلاء الاخيرين ان يعملوا بجد اكبر ليعولوا أنفسهم » ·

والحاجات توفر مقياسا دقيقا لقوة الروح الانسانية ٠

« فسكان كامتشاتكا الذين لا يضارعهم احد في غبائهم في بعض النواحي ، ماهرون الى حد رائع في بعضها الاخر ، فهم في مسألة اعداد الثياب يفوقون الاوروبيين مهارة ٠ لماذا ؟ لانهم يقطنون جزءا من العالم بالغ القسوة في ظروفه المناخية ، وبالتالي يشعرون على الدوام بالحاجة الى الثياب ٠ والحاجة المعتادة حافز دائم » (٤٥) ٠

ولكن اذا كنا ندين «بفن فلاحة الارض» لوجود الحاجات فان هذا الفن ـ ما أن يكتشف ويمارس ـ حتى يبدأ في ممارسة تأثير هام بل حاسم على مؤسساتنا وأفكارنا ومشاعرنا ٠

« فقد تكون لدى ساكن الغابة العادي فكرة واضحة عن القوة او الضعف ، الا انه ليست لديه فكرة عن العدالة والقانون » ٠

فمثل هذه الافكار تفترض وجود المجتمع ، وهي تتغير مع تغير مصالح المجتمع ٠ لماذا كانت السرقة مباحة في اسبارطة ؟ ولماذا كان اللصوص الذين يقبض عليهم هناك متلبسين يعاقبون فقط لافتقارهم الى المهارة ؟ أيمكن أن توجد عادة أغرب من هذه ؟

« غير اننا لو استرجعنا قوانين ليكورجوس ، والاحتقار الذي كان ينظر به الى الذهب والفضة في جمهورية لم تكن القوانين فيها تسمح الا بتداول عملات الحديد الثقيلة الهشة فسندرك ان السرقات الوحيدة التي كان ممكن ان ترتكب هي سرقات الدواجن والخضروات ٠ ومثل هذه السرقات ـ وهي دائما ما ترتكب بمهارة، وعادة ما تنكر تماما ـ تنمي لدى سكان اللاكيدومنيون ممارسة الشجاعة واليقظة : والقانون الذي يبيح السرقة يمكن أن يكون مفيدا للغاية لشعب كهذا ٠٠٠ » ٠

---

(٤٥) ويقودنا هذا الى مسألة تأثير المناخ ٠ وكما سيرى القاريء فان الاشارة هنا **ليست الى التأثير المباشر** للمناخ على اخلاق الناس كما تحدث مونتسكيو ٠ فهلفيسيوس يرى ان هذا التأثير يجد تعبيرا عنه من خلال وساطة الفنون اي بفضل التطور السريع بدرجة او أخرى للقوى الانتاجية ٠ وهاتان وجهتا نظر مختلفتان تماما ٠

ولنر من الناحية الاخرى موقف **السكايث** (٤٦) . لقد كانوا يعتبرون السرقة أبشع الجرائم ، وهو أمر كان حتميا مع أسلوب حياتهم .

« كانت قطعانهم تطوف هنا وهناك في المراعي . فبأي سهولة كان يمكن ان تسرق ، وأي فوضى يمكن أن تنشأ لو ابيحت مثل هذه السرقات؟ وهكذايقول ارسطو ان قوانينهم قد سنت لحماية قطعانهم ».

والشعوب التي لا تتألف ثرواتها الا من الماشية لا تشعر بحاجة الى **الملكية الخاصة للارض** ، التي ظهرت أول ما ظهرت لدى الشعوب التي تفلح الارض ، والتي كانت بالنسبة لها أمرا أساسيا . والشعوب المتوحشة التي تطوف الغابات لا تعرف سوى علاقات عابرة عارضة بين الرجل والمرأة . وقد كانت الشعوب المستقرة الزراعية هي التي أدخلت **الزواج الذي لا ينفصم** .

« ففي حين كان الرجل يحرث الارض ويفلح الحقول كانت الزوجة ترعى الدواجن ، وتسقي الماشية ، وتجز الخراف ، وتعمل في المنزل أو حظيرة الدواجن ، وتعد الطعام للزوج والاطفال والخدم » .

ومن هنا لم يكن الزواج الذي لا ينفصم عبئا وانما كانتله فائدة كبيرة ، وقد وضعت قوانين الزواج في البلاد الكاثوليكية لهذا النوع من العلاقة ، ومن ثم فانها تتمشى مع مصالح **اولئك العاملين في الزراعة** . لكنها في نفس الوقت تمثل عبئا على ابناء المهن الاخرى ـ وبخاصة «النبلاء» «الاثرياء» «الكسالى» ، الذين لا يرون في الحب وسيلة لاشباع احتياجات فعلية ملحة وانما تسلية **ووسيلة لمحاربة الملل** . والواقع أن مشاهد الاخلاق العائلية بين طبقات المجتمع الطفيلية كما وصفها الكونت **ليو تولستوي** في «سوناتا كرويتزر» أو كما وصفها **فورييه** من قبله تعيد الى ذهننا في الاساس ما قاله هلفيسيوس عن الزواج والحب بين «**الكسالى**» .

وتختلف **شخصية** الشعب الزراعي بالضرورة عن شخصية الشعوب الرحل .

---

(٤٦) شعب بربري قديم اغلبه من الرحل ، وكان يعيش في شمال شرق اوروبا وشمال غرب آسيا ـ المترجم .

« ففي كل بلد يوجد عدد من الموضوعات التي توفرها التربية للجميع على قدم المساواة · وتولد الانطباعات المتطابقة عن هذه الموضوعات ذلك التشابه في أفكار المواطنين ومشاعرهم الذي نسميه الروح أو الطابع القومي » ·

ومن السهل أن نفهم أن مثل هذه «**الموضوعات**» التي لها هذا التأثير الحاسم في التربية **تختلف** باختلاف الشعوب التي تعيش في ظروف بالغة الاختلاف ، وعلى سبيل المثال تلك التي تعمل **بالزراعة** والتي تعمل **بالصيد**··ومن الواضح بالمثل أن شخصية شعب ما يمكن أن تختلف · فالفرنسيون يعتبرون ذو ميل الى **المرح**، لكنهم لم يكونوا كذلك دائما · فالامبراطور السابق جوليان يقول عن ابناء باريس «اني أحبهم لان شخصيتهم مثلي متقشفة جادة » (٤٧) · ولكن فلننظر الى الرومان · بأية قوة وفضيلة وحب للحرية وكراهية للعبودية كانوا يتسمون في ظل الجمهورية ! وبأي ضعف وجبن ودناءة حين استولى الاباطرة على أعنة الحكم ! لقد كانت دناءتهم لا تطاق حتى بالنسبة للامبراطور تيبيزيوس (٤٨) · وفضلا عن هذا فان شخصية شعب ما لا تتغير فحسب **تبعا للاحداث التاريخية** : فانها ليست نفسها في كل فترة بالنسبة لابناء **مختلف المهن**·فأذواق المحاربين وعاداتهم تختلف

---

(٤٧) أما عن معاصريه الفرنسيين فقد لاحظ هلفيسيوس أن الامة الفرنسية لا يمكن أن تكون مرحة « لان كوارث الزمن اجبرت الامراء على ان يفرضوا ضرائب فادحة على البلاد، بحيث أن طبقة الفلاحين ـ التي تشكل وحدها ثلثي الامة ـ تعيش في الفقر ، والفقر لا يكون مرحا أبدا ··· » · وهو يسخر من أسلوب وصف الطابع القومي : «وبشكل عام ليس ثمة شيء اكثر زيفا واكثر اثارة للسخرية من الاوصاف التي تقدم لطابع مختلف الشعوب· فالبعض يصور أمته على مثال مجتمعهم هم ، وبذا يصفونها بالحزن أو المرح او الخشونة او الذكاء ··· والبعض الاخر يردد ما كتبه الف كاتب قبلهم ، وهم لا يدرسون أبدا التغير الذي لا بد انه طرأ بالضرورة على أمة ما ، والتحولات التي جرت في الحكومة والاخلاق » (« عن الروح » ـ المحاضرة الثالثة ـ الفصل الثلاثون) ·

(٤٨) ثاني امبراطور روماني وابن اغسطس بالتبني (٤٢ ق·م ـ ٣٧ م) ـ المترجم ·

عن أذواق الكهنة وعاداتهم ، وأذواق «الكسالى» وعاداتهم ليست هي أذواق فالحي الارض والحرفيين وعاداتهم · وكل هذا يتوقف على التربية ،فهذه الاخيرة هي التي أخضعت المرأة للرجل · وهذا النوع من التبعية لا يسير بنفس الطريقة في كل المراتب الاجتماعية·فالنساء اللواتي أصبحن ملكات حاكمات («نساء مثل اليزابيث وكاترين الثانية » الخ (٤٩) لسن بأي حال أدنى من الرجال في مواهبهن الفكرية · ونفس الامر صحيح بالنسبة « لنساء البلاط » اللواتي «يتسمن بنفس الذكاء الذي يتسم به ازواجهن» ، والسبب في ذلك هو أن الجنسين هنا ـ ورغم الاختلاف في الوضع الاجتماعي ـ « يتلقين تربية على **نفس الدرجة من السوء**» ·

وتتوقف الافكار المختلفة عن الجمال على انطباعات الطفولة :

« فاذا أنا اعجبت اعجابا خاصا بامرأة ما فانها تحفر طابعها في ذاكرتي كنموذج للجمال بحيث سأحكم على غيرها من النساء بمقدار درجة شبههن بهذه الصورة ، ومن هنا يأتي التنوع في الاذواق » ·

وهكذا فالامر كله أمر عادة · ولكن لما كانت عادات أي شعب معين لا تبقى دائما على ما هي عليه فان أذواقه وأحكامه عن الجمال في موضوعات الفن والطبيعة تتغير (٥٠) · لماذا لا نحب روايات القرون الوسطى ؟

« لماذا كان اسلوب كورني من خلال حياة هذا الشاعر البارز يحظى بتقدير اكبر مما يحظى به اليوم ؟ » (الاشارة بالطبع الى ايام هلفيسيوس ـ ج· ب·) ·

---

(٤٩) استطاعت كاترين الثانية ان تخدع هلفيسيوس كما خدعت كثيرين غيره · فقد كان يتحدث عنها دائما بأكثر العبارات حرارة ، وكان مقتنعا بأن ميسيلينا الشمال.هذههاجمت **بولندا** من أجل**التسامح**·

(٥٠) يحوي ما يقوله هلفيسيوس عن حكم الجمال الى حد ما بذرة نظرية تشيرنشيفيسكي الجمالية وانما البذرة **فحسب**· ففي هذا المجال مضى تحليل الكاتب الروسي الى مدى ابعد ، وتوصل الى نتائج أكثر اهمية ·

«ذلك أن ايام العصبة والفروند (٥١) بكل ما فيها من اضطراب كانت تنتهي حينئذ ، وكانت الاذهان التي ما زالت تشتعل بنيران التمرد اكثر جسارة ، واكثر اعجابا بمشاعر الجرأة ، واستجابة للطموح · وهكذا كانت الشخصيات التي اضفاها كورني على ابطاله ، والمشروعات التي جعل اطماحهم تصبو اليها ، أكثر اتفاقا مع روح ذلك العصر منها مع أيامنا حيث لا نجد سوى القليل من الابطال ، والقليل من المواطنيـــن والطموحين ، وحيث حل الهدوء السعيد محل العاصفة ، وجفت براكين التمرد في كل مكان » ·

وحتى نستطيع أن نفهم على نحو أفضل أفكار هلفيسيوس عن دور «**االمصلحة**» في تاريـــخ البشرية · سنتـــوقف قليلا عنـــد **روبنسونية** (٥٢) طرحها ·

وتمثل روبنسون عنده «**عدة عائلات** اعتزلت في **جزيرة** » ، ان همها االاول هو اقامة الكبائن وزراعة الارض اللازمة لمعيشتها·واذا كان بالجزيـــرة من الارض الصالحة للزراعـــة أكثر مما يحتاج المستوطنون الاوائل فسيتساوون تقريبا في الثراء ، وسيكون الاقوى يدا والاشد دأبا **أكثر ثروة · وبالتالي فان مصالحهم لن تكون بالغــة التعقيد** ، « ومن ثم » فسيكفيهم «بضع قوانين» · واذا اضطروا الى اختيار قائد فسيظل هـــذا الاخير مزارعا كالباقين · « والامتيـــاز الوحيد الذي قد يحصل عليه هو اختيار قطعة الارض · **وفيما عــدا هذا لن تكون له سلطة اخرى** » ·

ولكن مع ازدياد حجم السكان وكثافتهم لن تبقــى ارض خالية للاستيطان · فماذا سيصنع هذا الذي لا يملــك أرضا على الاطلاق ؟ اذا ما استبعدنا أمورا مثل السرقة أو النهب أو الهجرة فان الامـــر الوحيد الذي يستطيعه هو أن يلجأ الى **اختراعات جديدة**·وسيستطيع من أن يتمكن من اختراع مـــادة استهلاك أو ترف جديدة أن يعيش بمقايضة عمل يده بما ينتجهالمزارعون والحرفيون·وقد يقوم بتأسيس

---

(٥١) العصبة (الكاثوليكية) ـ اتحاد كاثوليكي رجعي تأسس عــام ١٥٧٦ في فرنسا لمحاربة الهوجونوت · والفروند حركة ضمت عددا من النبلاء والبورجوازيين لمحاربة الحكم المطلق في فرنسا (١٨٤٨ــ١٨٥٣) ـ المترجم ·

(٥٢) نسبة الى روبنسون كروزو ـ المترجم ·

مصنع « يقيمه في مكان مناسب ملائم عادة ما يكون على ضفة نهر يمتد بعيدا الى داخل البلاد مما يسهل نقل سلعه » ولن يظل بالطبع الصناعي الوحيد في الجزيرة ، **فاستمرار تزايد السكان** سيؤدي الى اختراع مواد أخرى للترف أو الاستهلاك ، وستنشأ صناعات جديدة · وسيشكل عدد من هذه الصناعات مستوطنة ثم مدينة كبيرة ·

«وسرعان ما ستضم هذه المدينة اغنى المواطنين، لان ارباح التجارة دائما ما تكون هائلة حين يكون التجار قليلي العدد، والمنافسة ضئيلة»·

وتخلق الثروة كل أنواع المتع ، ويغادر ملاك الارض الاغنياء ضياعهم كي يقضوا على الاقل بضعة أشهر في المدينة كل عام ، حيث يأتي في اعقابهم الفقراء آملين في أن يجدوا عيشا هناك ، وباختصار أصبحت مدينتنا **عاصمة** ·

وهكذا فان لدينا الان اغنياء وفقراء ، مستخدمي عمل وعاملين بسطاء · لقد انقضت المساواة الاولى · وأمامنا الان شعب يتألف ـ تحت نفس الاسم ـ من «**عدد لا ينتهي من الشعوب المختلفة التي تتناقض مصالحها بشكل أو بآخر** » · **ان هناك أمما بقدر ما هناك من طبقات**· وعملية تشكيل طبقات ذات مصالح مختلفة بل حتى متناقضة عملية حتمية في تاريخ الشعوب،وهي تحدث بقدر مختلف من السرعة لكنها تحدث دائما ، وستحدث دائما ·

« فلا بد لرجل أكثر دأبا أن يكسب أكثر ، وللاكثر ادخارا أن يوفر اكثر ، وهو يستطيع بما اكتسب بذلك من ثروة أن يكتسب مزيدا من الثروة · كل هذا حتمي · ثم هناك الورثة الذين يرثون ثروات كبيرة، وهناك تجار يستثمرون مبالغ طائلة في سفن تجلب لهم ارباحا كبيرة، ذلك ان النقود ـ في أي نوع من التجارة ـ تجذب النقود · وهكذا فان التوزيع غير المتساوي للنقود هو النتيجة الحتمية لاستخدامها في دولة ما » ·

لكن هذه النتيجة الحتمية تجلب في اعقابها آثارا أخرى لا تقل عنها ضرورة · فأولئك الذين لا يملكون شيئا ـ وسيزيد عددهم على الدوام نتيجة تكاثر المواطنين ـ سيتنافسون فيما بينهم اكثر وأكثر بحثا عن عمل ما· **وسيضطرون الى أن يضيقوا حاجاتهم أكثر وأكثر**·

وبالتالي يزداد عدم المساواة اتساعا ، ويزداد البؤس انتشارا : «··· **والفقير يبيع والغني يشتري**» ، ويتناقص عدد الملاك على الدوام · **وعندئذ تصبح القوانين أكثر شدة** · فالقوانين المتساهلة تكفي لحكم شعب من الملاك « ولدى الجرمان وابناء الغال والاسكندينافيين كانت الغرامات الخفيفة أو الثقيلة هي العقوبة الوحيدة التي توقع على مختلف الجرائم » · لكن الامر يختلف حين يشكل **غير الملاك** الجانب الاكبر من االامة · فالفقير لا يمكن أن يعاقب في ملكيته ، ولا بد أن يعاقب في شخصه ، ومن هنا جاءت **العقوبة الجسدية** · وكلما زاد عدد الفقراء زاد عدد ما يرتكب من سرقات ونهب وجرائم · ولا بد من استخدام **العنف** لمواجهتها · ويستطيع من لا يملك شيئا أن يغير محل اقامته بسهولة بحيث يستطيع المذنب أن يتهرب من العقاب · وعندئذ يصبح من الضروري القبض على المواطنين دون تقيد الا بعدد محدود من الشكليات ، وكثيرا ما يكون ذلك عند أدنى ريبة · «··· والقاء القبض عقوبة تعسفية سرعان ما تمارس على الملاك أنفسهم ، وتحل العبودية محل الحرية » · كذلك فان العقوبات الجسدية بدورها ــ وهي التي كانت توقع في البداية على الفقراء ــ تمتد الى الملاك «ويخضع كل المواطنين على السواء لقوانين الدم ، ويسهم كل شيء في ارسائها » ·

ويؤدي تزايد عدد المواطنين الى ظهور الحكومة **التمثيلية** اذ لم يعد من الممكن تجميع كل المواطنين في مكان واحد لمناقشة الشؤون العامة · وطالما ظل المواطنون متساوون تقريبا فيما بينهم فان ممثليهم يسنون القوانين **بما يتفق مع الصالح العام** · ولكن مع تناقص المساواة الاولى ، وازدياد تعقد مصالح المواطنين ، **يبدأ الممثلون في فصل مصالحهم عن مصالح من يمثلونهم ، ويغدون أكثر استقلالا ممن فوضوهم ، ويكتسبون بالتدريج سلطة تعادل سلطة الامة بأسرها** ·

* « أفليس من الواضح أن انقسام مصالح المحكومين ــ في بلد واسع كثيف السكان ــ سيزود الحكومات دائما بالوسيلة للاستيلاء على السلطة التي يرغبها الانسان دائما بحكم حبه الطبيعي للسلطة » ·

فالواقع أن الملاك ــ المستغرقين في ملكيتهم ــ « **يكفون عن أن يكونوا مواطنين** » من ناحية ، ومن ناحية أخرى يصبح غير الملاك

أعداء مستترين لهم ، ويمكن لطاغية أو طغاة أن يسلحهم ـ حيثما أراد ـ ضد الملاك ، وهكذا فان :

« الخمول الذهني لاولئك الذين يفوضون السلطة ، والرغبة النشطة في السلطة لدى اولئك الذين فوضوها ، تعلن تغييرا كبيرا في الدولة. وفي مثل هذه الاوقات يشجع كل شيء طموح هؤلاء الاخيرين » .

وتذوي **الحرية** ، وتتسع الفرص أمام **الحكم المطلق** ، وهكذا فان **تضاعف عدد السكان** يؤدي الى ظهور الحكومة التمثيلية. ويؤدي تناقض **مصالحهم** الى الحكم التعسفي .

ويقول هلفيسيوس في احدى فقرات كتابه « عن الانسان » ـ وهي الفقرة التي رجعنا اليها أساسا في عرضنا السابق ـ أنه قد استند في الاستخلاصات التي توصل اليها الى **الخبرة واكسينوفون**. وهذا تعبير باغ الدلالة . فلقد استطاع **هلفيسيوس** ـ شأنه شأن هولباخ وغيره من «فلاسفة» عصره ـ أن يرى بوضوح الصراع الطبقي في التاريخ ، لكنه في تقديره لهذا الصراع لم يمض الى أبعد مما ذهب اليه «اكسينوفون» ، أي **كتاب العصر القديم** . فالبنسبة له لم يكن «**غير المالكين**» سوى سلاح خطير في أيدي الاغنياء الطموحين، وهم لا يستطيعون الا أن يبيعوا أنفسهم «**لكل من يريد شراءهم**»، والا أن يتطلعوا الى ذلك . انه لم يكن يشير الى بروليتاريا اليوم ، وانما الى بروليتاريا العصر القديم ، وبخاصة في **روما** . وبالتالي فانه لم ير التطور الاجتماعي الا **كدائرة لا مخرج منها** .

« ان رجلا ما يثرى بالتجارة ، ويضيف عددا لا ينتهي من الملكيات الصغيرة الى ملكيته . وعندئذ يتناقص عدد الملاك وبخاصة اولئك الذين ترتبط مصالحهم أوثق الارتباط بالمصلحة القومية ، وبالعكس يتزايد عدد من لا يملكون ومن ليست لهم أي مصلحة في الشؤون العامة . واذا كان امثال هؤلاء مستعدين على الدوام لخدمة كل من يدفع لهم فكيف يمكن أن نتصور أن من في السلطة لن يستخدموهم كيما يخضعوا مواطنيهم لانفسهم . تلك هي النتيجة الضرورية لتضاعف عدد السكان في امبراطورية ما . وهي دائرة مفرغة لم تتمكن أية حكومة حتى الان من الافلات منها » .

وكان **هلفيسيوس** أبعد من أن ينظر الى الانجليز بنفس عدم الثقة التي كان ينظر بها **هولباخ** · لقد رأى أن الظروف الاجتماعية والسياسية في بريطانيا ليست في مستوى الكمال لكنه اعتبرها أكثر بلدان العالم حرية وتنورا · غير أنه لم يعتبر الحرية البريطانية ـ التي كانت تروق له كثيرا ـ حرية مستقرة فقد كان يؤمن بأن اختلاف المصالح الذي تطور حتىالان في بريطانيا سيؤدي عاجلا أو آجلا الى نتيجته الحتمية وهي ـ ظهور **الحكم المطلق** · ولا بد أن نعترف بأن تاريخ ايرلندا على الاقل لم يدحضه كثيرا ·

ومرة أخرى تثبت أفكار فيلسوفنا عن تضاعف عدد السكان مدى قلة الاصالة في مذهب مالتس · ولن ننتقد هنا هذه الافكار، ولا أفكار هلفيسيوس عن أصل الملكية والعائلة ، وانما يكفينا ببساطة أن نلاحظ نظرته الفلسفية التاريخية العامة (٥٣) · غير أن استكمال عرض خصائصها يتطلب أن ندرس بعض النتائج الاخرى «لتضاعف عدد السكان» ، او بتعبير أدق للنمو الدائم الحتمي لعدم المساواة في الملكية ·

ما من شيء أخطر على المجتمع **ممن لا يملكون** ! وما من شيء أفيد لاصحاب العمل من مثل هؤلاء الناس ، ما من شيء يتفق اكثر مع مصالحهم ، «**فكلما زاد عدد الفقراء قل ما يدفعه لهم أصحاب العمل مقابل عملهم** » · لكن اصحاب العمل هم الان القوة الحقيقية في «البلد التجاري» ، وتضحي بالمصلحة العامة من أجل مصلحتهم «الخاصة» ، التي تحرك كل أفعالهم ، وتعتبر معيار احكامهم · هذا أمر نراه في أي مجتمع يحوي مصالح معقدة متناقضة ، انه ينقسم الى مجتمعات صغيرة ، تحكم على فضائل المواطنين وأذهانهم ومزاياهم من زاوية مصالحهم · **ومصالح الاقوى** هي التي تسيطر على الامة في المدى الطويل ، وتحظى بأكبر اعتبار ·

ولقد رأينا من قبل أن **فساد الاخلاق** يظهر في كل مكان حيثما انفصلت **المصلحة الخاصة** عن **المصلحة العامة** · ومن هنا فان عدم المساواة المتزايدة في الملكية لا بد أن **يولد** فساد الاخلاق **وتضاعفه** ·

---

(٥٣) سنكتفي بأن نلاحظ عرضا ان هولباخ، كان ينظر الى «تضاعف عدد السكان» من الموقف المضاد تماما ، فهو لم يكن يعني لديه سوى تضاعف قوة الدولة وثروتها · وكان يتفق في هذا مع غالبية كتاب القرن الثامن عشر ·

وهـذا ما يحدث في الواقع · **فالنقود** ـ التي تشجع تزايد عـدم المساواة ـ تؤدي في ذات الوقت الى انحطاط **الفضيلة** · ففي بلـد «**ليس به تداول للنقود**» تكون الامـة هي الموزع الوحيد والعـادل للمكافآت ·

« فالتقدير العام ـ منحة الاعتراف العام هذه ـ لا يمنح الا للافكار والافعال المفيدة للامة· وبالتالي يرى كل مواطن في الفضيلة ضرورة»·

وفي البلاد التي **تتداول فيها النقود** يستطيع مالكها أن يعطيها لكل شخص أو اشخاص يوفرون له اكبر متعة ، وعادة ما يفعل ذلك· غير أن مثل هذا الشخص أو الاشخاص ليسوا دائما الاكثر جدارة بالاحترام ، بحيث أن المكافآت كثيرا ما تعطى مقابل اعمال « لا تفيد الا الاغنياء لكنها تضر بالمجتمع » · والمكـافآت التي تعطى **للرذيلة** تخلق شعبا منحطا ، كما أن حب المال ــ الذي يخنق الروح وكـل الفضائل الوطنية ـ لا يخلق الا طبائع منحطة ودجالين وغشاشين ·

« فحب الثروات لا يمتد الى كل طبقات المواطنين دون ان يثير فـي الطرف الحاكم الرغبة في السرقة والمضايقة · ومنذ هذه اللحظة ينتهز فرصة اقامة ميناء ، او انتاج الاسلحة ، او الحمـلات التجارية ، او الحرب التي يزعم انها بدأت دفاعا عن شرف الامة ـ وباختصار كـل ذريعة لسلب الشعب · وعندئذ تفرض كل الرذائل ـ التي ولدها الجشع ـ نفسها على الامبراطورية، وتصيب كل افرادها على التوالي، واخيرا تقود الى دمارها » ·

وقد اعتبر هولباخ بدوره الجشع أبا لكل الرذائل وسبب دمار الامة كما رأينـا في بحثنا عنه · لكننـا لا نجد عند **هولباخ** سوى **خطابات حماسية** عن هذا الموضوع ، أما هلفيسيوس فقـد حاول أن ينفذ الى قوانين التطور الاجتماعي · كان هولباخ يرغي ويزبد ضـد «الترف» أما **هلفيسيوس فقـد** لاحظ أن الترف ليس سوى نتيجـة للتوزيع غير المتساوي للثروة · دعا هولباخ المشـرعين الى محاربة أي ميل الى الترف أما هلفيسيوس فانه لم يجـد مثل هذه المحاربة عقيمة فحسب بل ضارة بالمجتمع· ففي المقام الاول تعد القوانين المضادة للترف ـ التي يسهل التهرب منها ـ عدوانـا شديدا على حق الملكية

وهو «أقدس الحقوق» ، وثانيا من الضروري للقضاء على الترف «أن **نلغي النقود**» · «وما من أمير يمكن أن يخامره مثل هذا المشروع · واذا هو فعل فما من أمة ـ في ظروف أوروبا الحالية ـ يمكن أن تخضع لرغبته » فتنفيذ مثل هذا المشروع يعني دمار الامة تماما ·

ولا يوجد الترف الا حيثما تكون عدم المساواة في الملكية كبيرة للغاية · ففي بلد يتساوى مواطنوها تقريبا في الملكية لا يمكن أن يوجد **الترف** أيا كانت درجة الازدهار التي يحققونها ، أو بالاحرى لن يكون الترف كارثة وانما نعمة اجتماعية كبيرة في مثل هذا البلد · ولكن لما كانت الملكية موزعة توزيعا متساويا فان الغاء الترف سيعني انهاء انتاج الكثير من الاشياء ، ويؤدي بالتالي الى **حرمان عدد كبير من الفقراء من عملهم** · ومن هنا فستكون الحصيلة النهائية هي النقيض تماما مما أردنا بلوغه · ويستخلص هلفيسيوس من ذلك أن «الحدة التي يهاجم بها «الاخلاقيون» الترف انما تنبع من جهلهم» (٥٤) ·

وهكذا فان لدينا هنا قانونا دائما للتطور الاجتماعي · فشعب ما يرتفع من الفقر الى الثراء ، ومن الثراء يصل الى التوزيع غير المتساوي للثروة ، وفساد الاخلاق ، والترف ، والانحطاط ، ومن هنا يصل الى الحكم المطلق ، ومن الحكم المطلق الى الانهيار ·

«ان مبدأ الحياة الذي يتطور في شجرة البلوط الجليلة فيرفع نبتتها ، وينشر فروعها ، ويقوي جذعها ، ويجعلها تسود الغابة ، هو في ذات الوقت مبدأ ذبولها » ·

ولا تستطيع الشعوب « في ظل شكل الحكم القائم » تجنب هذا الطريق بالغ الخطورة للتطور · فحتى **ابطاء خطاها على هذا الطريق** خطر عليها · فالركود سيؤدي الى كوارث لا تحصى ، وربما الى

---

(٥٤) هذا ما يقوله في كتابه «عن الانسان» · أما في كتاب « عن الروح » فان هلفيسيوس يعبر عن رأيه بعبارات غامضة ، الا أنه يشير هناك ايضا الى أن مسألة الترف لا يمكن ان تحل بالسهولة التي يتصورها «الاخلاقيون» · ويرى ديدرو أن الفقرة التي تتناول الترف من افضل ما يحويه الكتاب (انظر مؤلفاته الكاملة ـ المجلد الاول ـ القسم الاول ـ مقال « حول كتاب (عن الروح) ») ·

توقف الحياة ذاتها ·

ويتوقف عدد مصانع النسيج ـ وبوجه خاص نوعها ـ في أي بلد على ثروتها وأسلوب توزيعها · فاذا كان كل مواطنيها متيسرين فسيرغبون جميعا في زي حسن ، مما سيؤدي الى ظهور كثير من مصانع النسيج التي تنتج منسوجات **ليست بالغة الجودة ولا شديدة الخشونة** · أما اذا كان أغلب المواطنين على العكس فقراء ، فلن توجد سوى تلك المنشآت التي توفر احتياجات الطبقة الغنية ، ولن تنتج سوى منسوجات فاخرة زاهية غير متينة · وهكذا « ففي ظل أي شكل للحكومة تترابط كل الظواهر » ·

ان انتاج **المنسوجات القطنية** من أهم فروع الصناعة الحالية · ومثل هذه المنسوجات ليست موجهة الى المستهلكين الاثرياء· وهكذا فان **فكرة هلفيسيوس لا تتفق مع الواقع** (٥٥) · ورغم هذا يظل صحيحا أنه **في ظل أي «حكومة» تترابط كل الظواهر** · وقد رأينا من قبل أمثلة لذلك · وسنستشهد الان بمثال آخر ·

تعلم الحاجة الناس زراعة الارض ، وهي التي **تولد** الفنون والعلوم ، كما أن الحاجة هي التي تقود الى ركود هذه الاخيرة أو تقدمها في فرع أو آخر · وما أن تظهر عدم مساواة كبيرة حتى يظهر الكثير من **فنون المتعة** التي تستهدف تسلية الاثرياء وتبديد مللهم · ولا تكف المصلحة عن أن تكون معلم البشرية الكبير الوحيد · وكيف يمكن أن يكون الامر على غير ذلك ؟ ان علينا ألا ننسى أن «أية مقارنة بين الاشياء تفترض الانتباه ، والانتباه يفترض الجهد ، وأي جهد يفترض الحافز الذي ينشطه » · ولا نزاع في أن تشجيع التعليم في صالح أي مجتمع ، ولكن لما لم يكن جزاء الخدمات يمضي دائما الى من يخدمون المصالح العامة بل كثيرا ما يذهب الى من يخدمون مصالح القوي فاننا نستطيع أن نفهم بسهولة لماذا تتخذ العلوم والفنون والاداب اتجاها يتمشى مع مصالح هذا الاخير ·

---

(٥٥) يتحدث هلفيسيوس عن مجتمعات «**تتداول فيها النقود**» وأخرى لا تتداول فيها · الا ان كل المنتجات لديه تتخذ **شكل السلع** في كلتا الحالتين · ويبدو له هذا طبيعيا تماما كالملكية الخاصة · وبشكل عام لم تكن أفكاره الاقتصادية على المستوى المطلوب · فحتى اكثرها رسوخا ونضجا لا يرتفع عن افكار دافيد هيوم الاقتصادية ·

« فكيف كان يمكن ألا تتألق العلوم والفنون في بلد كاليونـان حيث كانت تحظى بالتبجيل الشامل الدائم ؟ » ٠

ولماذا كانت ايطاليا غنية بخطبائها ؟ أكان ذلك راجعا الى تأثير مناخها « كما تؤكد البلاهة المثقفة لعدد من الاكاديمين المتحذلقين » ؟ ان الرد القاطع هو أن روما قد فقدت بلاغتها وحريتها في نفس الوقت ٠

« فلنحاول أن نكتشف اسباب الاتهامات بالوحشية والغباء التـي وجهها الاغريق والرومان وكل الاوروبيين لشعوب الشـرق وستجد ان شعوب الشرق قد اعتبرت متوحشة غبية من جانب كل شعوب اوروبـا المتنورة ، وموضع ازدراء الامم الحرة والاجيال المتلاحقة لان تلـك الشعوب لم تكن تفهم من كلمة «الفكر» الا افكارا متفرقـة غير متصلة كانت ذات فائدة لها ، وكذلك لان الحكم المطلق في كل آسيا تقريبـا قد حظر دراسة الاخلاق والمتيافيزيقا والفقه والسياسة ، وباختصـار كل العلوم ذات الاهمية للبشرية تقريبا » ٠

واذا كان صحيحا ـ كما قلنا من قبل ـ أن كل الامم التي تعيش في نفس الظروف تكون لها نفس القوانين ونفس **الروح** ونفس الميول فما ذلك الا لانها تخضع لنفس المصالح ، فتجميعة المصالح هي التي تقرر مسيرة الروح الانساني ٠

وتخضع مصالح الدول ـ شأنها شأن مصالح مواطنيها وشأن كل الامور الانسانية ـ لآلاف التحـولات ٠ فنفس القوانين ، ونفس العادات ، ونفس الافعال، تصبح مفيدة في وقت وضارة في وقت آخر بنفس الشعب ٠ وينتج عن ذلك أن قوانينـا ما تسن أحيانا وتلغى أحيانا أخرى ، وأن نفس الافعـال تسمى أحيانا **فضيلة** وأحيانـا **رذيلة** ٠ « وتلك قضية لا يمكن انكارها الا بالقول بأن هناك أفعالا هي في ذات الوقت فاضلة وضارة بالدولة ، وهذا يعني تقويض أسس كل تشريع وكل مجتمع » ٠

فكثير من الشعوب البدائية تعتاد قتل المسنين ٠ ولدى الوهلة الاولى لا يبدو شيء اكثر بشاعة من هذه العادة ، لكن القليـل من التفكير سيقودنا الى الاعتراف بأن مثل هذه الشعوب ـ في ظروفها المحددة ـ كانت مجبرة على اعتبار قتل المسنين عمـلا فاضلا ، وأن حب الشباب لابائهم المسنين الضعاف كان لا بد أن يدفعهم الى هـذا

السلوك · فليس لدى المتوحشين ما يكفي للعيش ، والمسنون عاجزون عن أن يقيموا أودهم بالصيد لانه يحتاج قدرة بدنية كبيرة ، ومن هنا فسيكون عليهم اما أن يتعرضوا لموت بطيء قاس نتيجة الجوع، أو أن يصبحوا عبئا على ابنائهم أو على كل المجتمع الذي لا يستطيع ــ **بحكم فقره** ــ أن يتحمل هذا العبء ، ولهذا فان من الافضل أن نوفر هذه الالام عليهم بقتل الاباء السريع الضروري ·

« هذا هو مصدر عادة بهذه البشاعة · وهكذا يجد شعب من الرحل تجبره الحاجة الى الصيد ونقص ضروريات الحياة على أن يقضي ستة اشهر كل عام في الغابات الهائلة ، يجد « نفسه مضطرا ــ اذا جاز التعبير ــ الى ان يقوم بمثل هذا العمل الوحشي ، هذا هو السبب في ان قتل الاباء في مثل هذه البلدان يستلهم ويلتزم نفس المبدأ الانساني الذي يجعلنا ننظر اليه في فزع » ·

للقد تساءل **هولباخ** لماذا تتناقض قوانين الناس الوضيعةكثيرا مع قوانين «**الطبيعة**» و «**العدالة**» · وخرج بنتيجة بسيطة ·

« ان هذه القوانين المنحطة ترجع اما الى اخلاق شاذة او اخطاء وقعت فيها المجتمعات ، او الطغيان الذي اجبر الطبيعة على أن تنحني لسلطانه » (٥٦) ·

غير ان مثل هذه الاجابة لم تقنع هلفيسيوس الذي كان يرى أن «**المنفعة الحقيقية أو الظاهرية على الاقل**» هي أساس القوانين والعادات التي تعزى ببساطة الى «الانحطاط» أو «الاخطاء» ·

« فمهما افترضنا في شعب ما من الغباء فان من المؤكد انه ــ مسترشدا بمصالحه ــ لا يمكن أن يكون قد تبنى العادات الغريبة التي نجدها بين بعض هذه الشعوب دون دوافع كافية · ان غرابة مثل هذه العادات تنبع من تنوع مصالح الشعوب » ·

ولا تستحق الكراهية الا تلك العادات والقوانين التي تستمر في

---

(٥٦) «السياسة الطبيعية» ــ لندن ــ ١٧٧٣ ــ المجلد الاول ــ ص ٣٧ ــ ٣٨ ·

الوجود بعد أن اختفت أسباب وجودها، وبذا تصبح ضارة بالمجتمع.

« فكل العادات التي لا تجلب سوى مزايا عابرة هي اشبه بالسقالات التي ينبغي أن تزال بعد اقامة القصر » .

ان امامنا نظرية لا تترك مكانا كبيرا **للقانون الطبيعي**و **العدالة المطلقة** اذا كانت تترك لهما مكانا أصلا ، وفي البداية بدت مثل هذه النظرية خطيزة حتى لرجال من أمثال ديدرو الذي رأى فيها **مفارقة** . «فالحق أن المصلحة العامة والخاصة هي التي تحول فكرة العادل وغير العادل ، لكن ماهيتها مستقلة عنهما » . ولكن ما هي **ماهية** هذه الفكرة ؟ علام **تتوقف** . لم يقل ديدرو شيئا عن الموضوع ، وانما استشهد بعدة أمثلة تستهدف ايضاح أن العدالة مطلقة . غير أن هذه الامثلة غير مقنعة على الاطلاق . أليس **تقديم الماء لشخص يموت عطشا** شيئا جديرا بالثناء **دائما وفي كل مكان** ؟ أجل بالطبع ، لكن أقصى ما يستطيع هذا أن يثبته هو أن هناك مصالح مشتركة بين الناس في كل زمان ومكان وفي كل مراحل التطور . و «**تقديم الماء**» لن يأخذنا الى أبعد كثيرا من حجة فولتير التالية .

« دعوني اطالب تركيا او مجوسيا او هنديا بالنقود التي اقرضته اياها ... وسيقر على الفور أن من العدل أن يردها لي ... » .

لا شك في ذلك ! ولكن ما اضأل هذه الاخلاق المطلقة مهما كانت الهة **موقرة**. فكما يقول لوك « ان اولئك الذين يزعمون وجود مباديء عملية فطرية لا يقولون لنا ما هي...» . وكان في وسع هلفيسيوس ان يقول نفس الشيء عمن يدعون الى «**اخلاق كلية**» .

ومن الواضح تماما أن افكار هلفيسيوس عن مسألة الاخلاق هي وحدها التي تتفق كلية مع مباديء المادية الحسية. فالحق أنه لم يفعل أكثر من ترديد وتطوير افكار لوك الذي كان استاذه كما كان استاذ هولباخ وديدرو وفولتير . فالخير والشر ـ عند الفيلسوف الانجليزي ـ ليسا الا اللذة والالم . أو ما يصاحب أو يحدث اللذة والالم لدينا . واذن فان **الخير والشر الاخلاقيين** ليسا سوى التوافق أو عدم التوافق بين أفعالنا الارادية والقانون الذي يحدد لنا الخير والشر بارادة المشرع وسلطته ، **وقد قال لوك قبل هلفيسيوس بأمد طويل أن :**

« الفضيلة تحترم عموما ··· لانها مفيدة ··· ومن يتابع تاريخ البشرية بعناية ، وينظر في الخارج الى مختلف قبائل البشر سيستطيع أن يقتنع بأنه لا يكاد يوجد مبدأ اخلاقي أو قاعدة للفضيلة(اذا استثنينا فحسب تلك اللازمة تماما للابقاء على المجتمع قائما ، والتي عادة ما تهمل ايضا بين المجتمعات المتمايزة) لا يستخف به أو يدينه العرف العام لمجتمعات بأسرها من البشر ، تحكمها آراء عملية وقواعد حياة تتناقض تماما مع المجتمعات الاخرى » ·

وهذا بالدقة ما يقوله لنا هلفيسيوس ، مع فارق واضح هو أن هلفيسيوس يعرف كيف يضع النقط فوق الحروف في المكان الصحيح · فعلى أساس «اللذة» و «الالم» اخذ على عاتقه أن ينسب التغيرات التاريخية في **ارادة المشرع** الى المصالح · وكان هذا منطقيا تماما ، بل منطقيا أكثر مما يجب ، بالنسبة «لفلاسفة» القرن الثامن عشر الفرنسيين ، فقد كان حزبهم حزبا مناضلا · وقد شعروا في نضالهم ضد النظام القائم حينئذ بالحاجة الى أن يستهدوا بمرجع أقل اثارة للجدال من مصالح الناس المتغيرة دائما · ورأوا في «الطبيعة» هذا المرجع · ولم تكن الاخلاق والسياسة القائمين على هذا الاساس أقل نفعية بأي حال : وظلت **مصلحة الشعب** هي القانون الاسمى لديهم (٥٧) · لكنهم رأوا في ذلك الحين أن هذه المصلحة ترتبط ارتباطا وثيقا بقوانين خاصة ثابتة تنطبق بالمثل على كل «المخلوقات ذات الحس والعقل» · وسميت تلك القوانين التي تريدها البورجوازية بحرارة وتدعو لها ، وترى فيها التعبير النموذجي عن تطلعاتها الاجتماعية والسياسية **قوانين طبيعية** · ولما لم يكن المصدر **السيكولوجي** للافكار التي تجعل هذه القوانين مطلوبة أمرا معروفا ، وكان مصدرها المنطقي قد نسي ، فقد زعموا ــ كما فعل ديدرو في المقال سالف الذكر ــ أن **ماهيتها مستقلة عن أي مصلحة** · وقد عاد

(٥٧) وعلينا ان نقول ان **الشعب** الذي يريدون **مصلحته** لم يكن يعني دائما اولئك الذين يعملون وينتجون · ففولتير يرى أن الجنس البشري لا يمكن أن يوجد دون «عدد هائل من الناس المفيدين الذين لا يمتلكون شيئا » ··· « وهناك حاجة الى أناس ليست لديهم سوى ايديهم ونيتهم الطيبة ··· وهم احرار في ان يبيعوا عملهم لمن يدفع لهم اكثر » (انظر «القاموس الفلسفي» ــ موضوع المساواة والملكية) ·

هذا بالفلاسفة الى ذات **الافكار الفطرية** التي ساءت سمعتها منذ أيام لوك ·

«**ليس ثمة افكار عملية فطرية**»، ليس ثمة افكار تحفرها الطبيعة في اذهاننا · هذا ما قاله لوك ، الذي اضاف أن كل فئة تعتبر الافكار التي تتفق مع معتقداتها افكارا فطرية · ولم يسع الفلاسفة الى اكثر من هذا ، فقد كان الاعتراف بالمبادىء الفطرية يعادل بالنسبة لهم الانحناء «للمبادىء» «الطائفية» التي يعتنقها أنصار الماضي والتي كانوا هم ينظرون اليها بازدراء · ولما **لم تكن** الطبيعة **تحفر** شيئا في اذهاننا فان المؤسسات **البائدة** والاخلاق **البائدة** لا تدين بوجودها للطبيعة · غير أن هناك قانونا طبيعيا ـ قانونا كليا مطلقا ـ يمكن **لعقل** الانسان أن يكتشفه **بمساعدة التجربة** · وبالتالي كان على الطبيعة أن تعبر عن نفسها في صف امانيهم · ومن هنا فان «**المبادىء الفطرية**» تنتمي الى «**الماضي**» الذي ينبغي تحطيمه ، أما **القانون الطبيعي** فهو **المستقبل** الذي كان هؤلاء الدعاة الجدد يعملون على استحضاره · انهم لم يرفضوا **الدوغماطيقية** وانما وسعوا حدودها حتى تمهد الطريق للبورجوازية · وكانت أفكار هلفيسيوس تمثل خطرا على هذا النوع من الدوغماطيقية ، ولهذا لم يتقبلها أغلب «الفلاسفة» · الا أن هذا لم يمنعه من أن يكون أكثر تلاميذ جون لوك اتساقا ·

وبنفس الدرجة كانت افكاره تهدد النظرة ـ التي كانت واسعة الانتشار في القرن الثامن عشر ـ والتي كانت ترى أن **الرأي العام** يحكم العالم · وقد رأينا من قبل أن آراء الناس ـ عند هلفيسيوس ـ تمليها مصالحهم ، كما رأينا أن هذه الاخيرة لا تتوقف على الارادة الانسانية (ولنذكر مثال المتوحشين الذين يقتلون المسنين بسبب الضرورة الاقتصادية) · ان «**تقدم التنوير**» الذي كان الفلاسفة يفسرون به كل مسار التاريخ أبعد من أن يفسر أي شيء بل انه نفسه بحاجة الى تفسير · **وكان الوصول الى هذا التفسير يعني ثورة فعليةفي مملكة «الفلسفة»** · ومن الواضح أن هلفيسيوس قد استطاع أن يلمح نتائج مثل هذه الثورة · فهو يعترف بأنه في دراسته لطريق تطور الروح الانساني كثيرا ما لمح أن «**كل ما في الطبيعة يحدث ويفعل بذاته**» ، وأن «**اكمال الفنون والعلوم ليس عمل العباقرة بقدر ما هو عمل الزمن والضرورة**» · وبدا له التقدم «**الموحد**» للعلوم في كل البلدان تأكيدا لهذا الرأي ·

« فالحق أنه اذا كان الناس في كل الامم ـ كما لاحظ هيوم ـ **لا يبدأون في الكتابة نثرا الا بعد ان يتعلموا الكتابة شعرا** فانني أرى في التقدم الثابت للعقل البشري نتيجة لسبب عام غامض » (٥٨) ٠

وبعد كل ما عرفه القارىء عن آراء فيلسوفنا التاريخية فلا شك أن هذه اللغة ستبدو له بالغة الحذر والتردد ٠ لكن هذه اللغة **غير المحددة** هي التي تكشف مدى **غموض** الافكار التي كان ذهن هلفيسيوس يضيفها على كلمات **المصلحة واحتياجات الناس** التي يبدو معناها واضحا لا يحتمل لبسا ٠

فمهما بدت لنا القوانين والعادات غريبة فانها تضرب بجذورها دائما في «**المنفعة الحقيقية أو الظاهرية على الاقل**» ٠ ولكن ما هي **المنفعة الظاهرية** ؟ وعلام تتوقف ؟ ومن أين نشأت ؟ واضح أنها نشأت عن **الرأي العام**٠ ويقودنا هذا ثانية الى تلك **الحلقة المفرغة** التي أردنا أن نفلت منها : **الرأي يتوقف على المصلحة ، والمصلحة تتوقف على الرأي** ٠ والجدير بالذكر هو أن **هلفيسيوس لم يستطع الا أن يعود الى هذه الحلقة** ٠ صحيح أنه ربط أصول أكثر القوانين والعادات والاراء غرابة باحتياجات المجتمع الفعلية لكنه كان يواجه دائما في تحليله بعنصر متبق لم تستطع التفاعلات الميتافيزيقية أن تختزله ٠ **وكان هذا العنصر المتبقي هو في المقام الاول الدين** ٠

فكل الاديان تنبعث من خوف الانسان من قوة خفية ما ، من الجهل بقوى الطبيعة ٠ وكل الاديان الزائفة تشبه بعضها بعضا ٠ فمن أين جاء هذا **التوافق** ؟ انه نتيجة لان الناس الذين يعيشون في نفس الظروف تكون لهم دائما أرواح متشابهة ، وقوانين متشابهة، وطابع متشابه ٠

« ذلك أن الناس الذين تحركهم تقريبا نفس المصلحة ، ولديهم تقريبا نفس المصالح التي يجرون المقارنة بينها ، ونفس الاداة أي نفس الذهن للمقارنة بينها، كان لا بد لهم بالضرورة أن يصلوا الى نفس النتائج٠٠ لانهم جميعا يسوقهم الغرور٠٠٠ جميعهم ينظرون الى الانسان باعتباره الاثير لدى السماء ، وموضع عنايتها الرئيسي » ٠

---

(٥٨) « عن الانسان » ـ القسم الثامن ـ الفصل الثالث والعشرون٠

وهذا الغرور هو الذي يقود الناس الى الايمان بالحماقات التي يريد لهم **الدجالون** الايمان بها · افتح القرآن (فحرصا على المظاهر لم يكن هلفيسيوس يتحدث الا عن «**الاديان الزائفة**») · ان من الممكن تفسيره بألف طريقة مختلفة ، انه غامض غير مفهوم · لكن العمى الانساني بلغ حدا يجعل هذا الكتاب ـ المليء بالزيف والهراء ، والذي يصور الاله طاغية يستحق اللعنة ـ ما يزال يعتبر حتى اليوم كتابا مقدسا · ومن هنا فان المصلحة التي تولد السذاجة الدينية هي مصلحة الغرور ـ **مصلحة التحيز** · وهذه المصلحة لا تفسر لنا من أين تنبعث المشاعر الانسانية وانما هي ذاتها تعبير عن هذه المشاعر ، «فمنفعة» الدين ليست سوى «**منفعة متخيلة**» · وما كان في وسع فيلسوف في القرن الثامن عشر أن ينظر الى هذا العدو «الشرير» للعقل بطريقة أخرى ·

وما أن نسلم بالغرور والجهل ـ وهما أبوا الخوف ـ حتى يمكن بسهولة أن نفهم بأي وسيلة استطاع كهنة الاديان أن يرفعوا شأنهم ويحافظوا عليه ·

« فالهدف الاول الذي يستهدفه الكهنة ـ في أي دين ـ هو أن يخدروا فضول الانسان ، ويديروا عينيه عن فحص أي دوغما ما كان يمكن لغموضها الملموس أن يفلت من انتباهه · وكان من الضروري من اجل ذلك تملق العواطف الانسانية، فلكي يدوم عمى الناس كان لا بد لهم أن يرغبوا في أن يكونوا عميانا ، وأن تكون لهم مصلحة في ذلك ، وما من شيء أيسر على الراهب البوذي » ·

وهكذا نرى ـ في المقام الاول ـ أن الدوغما والطقوس الدينية قد ابتدعها قصدا بضعة محتالين ماكرين جشعين مغامرين·ونرى في المقام الثاني أن **مصلحة** الناس التي كان ينبغي لها أن تفسر لنا على الاقل النجاح المذهل لامثال هؤلاء المحتالين كثيرا ما لا تكون سوى المصلحة «المتخيلة» لاناس عميان · ومن الواضح أن هذه ليست مصلحة فعلية ، وليست «**حاجة**» تولد كل الفنون والعلوم ·

وحيثما كان هلفيسيوس يعرض أفكاره عن التاريخ فقد كان يتذبذب دائما ـ دون أن يدرك ذلك ـ بين هذين التفسيرين اللذين يقفان على طرفي نقيض **للمصلحة** · ولهذا فقد عجز عن أن يواجه النظرية التي تقول ان العالم يحكمه **الرأي العام** · فهو حينا يقول لنا ان الناس يدينون بفكرهم للظرف الذي يجدون أنفسهم فيه ، وحينا

يجد أن من الواضح وضوح البللور أن الناس لا يدينون بظروفهم الا لفكرهم · هو حينا يقول لنا أن **الجوع** مصدر كثير من الفنون ، وأن **الحاجات المعتادة** تقود دائما الى الاختراع ، أي أن أي اختراع كبير الى حد ما ليس سوى تجميع عدد لا ينتهي من الاختراعات الصغيرة، وحينا يؤكـــــد لنا ـ في جدالــــــه مع روسو ـ أن فن الزراعــــة

« **يفترض** اختراع المحراث ، والمحراث يفترض الحـداد ، وبالتالي عددا لا يحصى من المهارات في التعدين واقامة افران الصهروالميكانيكا والهيدروليكا » ·

وهكذا فان الروح ـ العلم ـ هو هذه المرة مصدر الاختراعات، في حين أن تقدم البشرية يحدده في التحليل الاخير «الرأي العام» · حينا يرينا هلفيسيوس كيف تستمد قوانين شعب ما وعاداته واذواقه من «ظرفه» ، أي من «الفنون» ، من القوى الانتاجية المتاحة له ، ومن العلاقات الاقتصادية التي تقوم على أساسها ، وحينا يعلن أنــــه

« على اكتمال القوانين تتوقـــف الفضائل المدنية ، وعلى العقـــل الانساني يتوقف اكتمال هذه القوانين » ·

هو حينا يصور السلطة التعسفية كنتيجة حتمية لعدم المساواة المتزايد في الملكية ، وحينا يصل الى النتيجة التالية ·

« فالحكم المطلق ـ هذه النقيصة البشعة للبشرية ـ كثيرا ما تكون نتيجة غباء الامة · فكل شعب يبدأ بأن يكون حـــرا · فالى أي سبب يمكن أن نعزو فقده للحرية ؟ الى جهله وثقته الحمقاء في الطامعين · ومثل هؤلاء ومثل الشعب مثل الطفلة والاسد في (الحدوتة) الشهيرة· وحالما ستقنع الطفلة الاسد بأن تقص مخالبه ، وتقلم انيـابه فستقوده الى كلاب الحراسة » ·

ورغم أن هلفيسيوس قد أخذ على عاتقه أن يبحث عن المصلحة في التاريخ كله ، وأن يرى فيها «المحرك الوحيد للناس» فانه يعود الى «الرأي العام» الذي يصبح ـ اذ يضفي على موضوعات قدرا أو آخر من المصلحة ـ الحاكم المطلق للعالم · وكانت «المصلحة المتخيلة» هي

الصخرة المستترة التي حطمت محاولته الهائلة حقا لتقديم تفسير مادي للتطور الانساني • وقد اثبتت هذه المشكلة ـ سواء في التاريخ أو في الاخلاق ـ أنها غير قابلة للحل من **وجهة النظر الميتافيزيقية** •

وبنفس الطريقة التي أخذت فيها **المصلحة المتخيلة** في كثير من الاحيان مكان **المصلحة الفعلية** التي كان هلفيسيوس يريد حقا أن يتناولها كان هذا ـ كما سنرى ـ هو مصير **المصلحة العامة** التي أخلت المكان لمصلحة «أقوياء هذا العالم» • وما من شك في أن مصلحة الاقوياء في هذا العالم كانت هي السائدة دائما في أي مجتمع منقسم الى طبقات • ولكن كيف فسر هلفيسيوس هذه الحقيقة التي لا نزاع فيها ؟ لقد تحدث احيانا عن **القوة** لكنه غالبا ما كان يلجأ الى «الرأي العام» مدركا أن القوة لا تفسر شيئا لانها في أغلب الاحيان – ان لم يكن في كل الاحيان ـ في جانب المقهورين • ان غباء الامم هو الذي يجعلها تطيع الطغاة و «الاغنياء الكسالى» ، واولئك الذين لا يفكرون الا في أنفسهم • ورغم أنه كان واحدا من ألمع ممثلي البورجوازية الفرنسية في عصر ازدهارها فانه لم يدر بخلده أنه يأتي وقت في تاريخ حياة كل طبقة من «اقوياء هذا العالم» تتوافق فيه مصالحها مع مصالح الحركة التقدمية ، وبالتالي مع مصالح **المجتمع كله** • لقد بلغ هلفيسيوس من الميتافيزيقية ما لم يجعله يتبين جدلية المصالح هذه • فرغم أنه ردد أن أي قانون ـ مهما بدا غريبا ـ يقوم أو قام على مصلحة فعلية ما للمجتمع فانه لم ير في **القرون الوسطى** الا زمنا **تحول فيه الناس الى وحوش مثل نبوخذنصر**، وبدت له القوانين الاقطاعية «**قمة الحماقة**» (٥٩) •

ان الاحتياجات الفعلية هي التي تؤدي الى اكتشاف الفنون المفيدة • وحالما يولد الفن ويستخدم فانه يولد ـ بقدر أو آخر من النجاح ـ «فنونا» جديدة وفقا لعلاقات الانتاج في المجتمع الذي ظهر فيه • ولم يتوقف هلفيسيوس الا لماما أمام ظاهرة «الفنون» التي تنشأ عن **الاحتياجات** «الفعلية» ، وتولد حاجات جديدة لا تقل عنها فعلية، وتولد فنونا لا تقل **فائدة** • فقد تعجل الانتقال الى «فنون المتعة» التي تستهدف تسلية الاغنياء وتبديد مللهم • وصاح «كم من الفنون كنا

---

(٥٩) انظر « افكار وتأملات » في المجلد الثالث من « المؤلفات الكاملة » ـ باريس ١٨١٨ ـ ص ٣١٤ •

سنجهل لولا الحب» · وربما كان الامر كذلك ! ولكن كم من الفنون كنا سنجهل لولا الانتاج الرأسمالي للاشياء الضرورية ·

ماذا تعني «الحاجة الفعلية» ؟ انها تعني ـ عند فيلسوفنا ـ الحاجة **الفسيولوجية** بالدرجة الاولى · لكن الناس كي يشبعوا حاجاتهم الفسيولوجية لا بد أن ينتجوا أشياء معينة ، ولا بد **لعملية هذا الانتاج** أن تولد **حاجات** جديدة، في نفس فعلية الحاجات السابقة لكن طبيعتها لم تعد **فسيولوجية** وانما **اقتصادية** ، لان مثل هذه الحاجات تنبعث من تطور الانتاج **والعلاقات المتبادلة التي يدخل فيها الناس في عملية الانتاج** · وقد أشار هلفيسيوس الى بعض هذه الحاجات الاقتصادية ، وانما الى عدد قليل **فحسب** : أما أغلبها فقد **أفلت** من ملاحظته · وهذا هو السبب في أن **تضاعف عدد المواطنين** أي زيادة عدد البطون التي ينبغي أن تملأ ، والاجساد التي ينبغي ان تكسى الخ ··· كان لديه عاملا من أقوى عوامل تطور المجتمع التاريخي · فتضاعف عدد المواطنين يعني نمو المجموع الكلي **للحاجات الفسيولوجية** · ولم يرد هلفيسيوس أن يأخذ في اعتباره أن «تضاعف عدد» المواطنين يتوقف بدوره على ظروف المجتمع الاقتصادية وان كان قد أدلى بعدة عبارات واضحة في هذا الصدد · غير انه كان بعيدا عن أن يشاطر في هذا الشأن الرأي الواضح المحدد الذي كان لدى معاصره **السير جيمس ستيوارت** الذي عزا «**تضاعف عدد المواطنين**» ـ في كتابه « بحث في مبادىء الاقتصاد السياسي» ـ (لندن ١٧٦٧) ـ الى أسباب **أخلاقية** أي **اجتماعية** ، والذي أدرك بالفعل أن قانون السكان لاي **مجتمع** خاص يتغير بتغير **أسلوب الانتاج** · على أن أفكار هلفيسيوس لم تكن تحوي ما تحويه كتابات مالتس من ابتذال ·

ان كل ما في الطبيعة يحدث ويفعل بذاته : تلك هي وجهة النظر الجدلية · ولم يزد هلفيسيوس على أن **يحس** أن وجهة النظر هذه هي أكثر وجهات النظر اثمارا وصحة في العلم · فقد ظل سبب التقدم «الموحد» للروح الانساني «**غير واضح**» له · وكثيرا ما توقف عن التفكير فيه ، ولم يلجأ اليه الا عند الصدف ·

« ففي الاخلاق كما في المملكة الفيزيائية لا يلفت نظرنا سوى العظيم ، ودائما ما يتصور المرء أن النتائج العظيمة تنبعث عن أسباب عظيمة ، ويتوقع المرء علامات سماوية تعلن سقوط الامبراطوريات أو

وقوع ثورات فيها · ولكن كم من حملات صليبية شنت أو أوقفت ، كم من ثورات نشبت أو منعت ، كم من حروب بدأت أو انتهت ، نتيجة مكيدة كاهن ما أو امرأة ما أو وزير ما ! ان غياب المذكرات أو الاقاصيص السرية هو وحده الذي يمنعنا من أن نجد قفاز دوقة مارلبورو في كل مكان » (٦٠) ·

ووجهة النظر هذه هي على النقيض تماما من وجهة النظر القائلة أن «**كل ما في الطبيعة يحدث ويفعل بذاته**» ·

« ان مبدأ الحياة الذي يتطور في شجرة البلوط الجليلة فيرفع نبتتها ، وينشر فروعها ، ويقوي جذعها ، ويجعلها تسود الغابة ، هو في ذات الوقت مبدأ ذبولها » ·

هنا يتحدث هلفيسيوس مرة أخرى كجدلي يفهم حماقة هذه **المقابلة** المجردة المطلقة **بين المفيد والضار** · وهنا يذكر مرة اخرى أن لاية عملية تطور قوانينها الجوهرية الثابتة · وانطلاقا من هذا الموقف يصل الى استخلاص أنه ليس ثمة «**وسائل خاصة**» ضد عدم المساواة في «الملكية» ، وهو عدم مساواة لا بد له ـ في المدى الطويل ـ أن يدمر أي مجتمع · لكن هذه ليست **نتيجته النهائية** · ففي ظل «شكل الحكم القائم» فحسب لا توجد **وسائل خاصة** ضد هذا الشر · أما في ظل شكل اكثر عقلانية فاننا نستطيع أن نقوم بالكثير ضده · فما هو اذن هذا الشكل المفيد للحكم ؟ انه شكل سيكتشفه **العقل استنادا الى التجربة** · وتستطيع الفلسفة أن تحل تماما «**مشكلة التشريع الكامل الثابت**» الذي يمكن أن يصبح ـ حالما تقره أية أمة ـ مصدرا **لسعادتها** · ولن يقضي التشريع الكامل على عدم المساواة في الملكية، لكنه سيمنع ظهور آثاره الضارة · وبصفته «فيلسوفا» وضع هلفيسيوس أمامنا ـ في شكل «**تعاليم اخلاقية**» « قواعد ومباديء العدالة» التي تثبت لنا **خبرتنا اليومية** «نفعها وصدقها» (٦١) ،

(٦٠) اضطر جون تشرشل ـ دوق مارلبورو الاول ، والفارس ورجل السياسة الانجليزي الشهير ـ الى مغادرة البلاط نتيجة مكائد زوجته ومشاجراتها · وكانت زوجته احدى وصيفات الملكة آن ـ وقد عزا فولتير سقوط مارلبورو الى حادثة ترتبط بقفاز ـ المترجم ·

(٦١) «عن الانسان» ـ القسم العاشر ـ الفصل السابع ·

والتي تصلح أساسا للتشريع «الكامل» · وفضلا عن هذا فانه يرفق بتعاليمه عديدا من السمات الاخرى لهذا التشريع ·

ولقد أفزع كتاب «عن الروح» دعاة **القانون الطبيعي** الذين رأوا في كاتبه خصما لهذا القانون · الا أن مخاوفهم كانت نصف مبررة فحسب ، لان هلفيسيوس لم يكن سوى حمل ضال سيعود الى الحظيرة عاجلا أو آجلا، فهو الذي يبدو وكأنه لم يترك مكانا للقانون الطبيعي، هو الذي كان يرى القوانين والعادات التي تبدو شديدة الحماقة قوانين وعادات معقولة ، قد انتهى بالقول بأنه كلما اقترب الناس بمؤسساتهم من **القانون الطبيعي** زاد تقدم العقل فيهم · وهكذا فقد تاب وعاد الى حظيرة **الكنيسة الفلسفية** · ان الايمان المقدس المخلص «بالعقل» قد خرج ظافرا على أية وجهة نظر أخرى ·

« لقد حان الوقت لكي لا يصغي اولئك الذين لا يولون أذنا لكل التناقضات اللاهوتية الا لتعاليم الحكمة ! لقد استيقظنا ··· من سباتنا ، وانقضى ليل الجهل ، وجاء نهار العلم » ·

فلنصغ الى صوت «العقل» ، ولنقلب صفحات «التعاليم الاخلاقية» ، الناطقة بأسم هذا الصوت :

سؤال : ما الذي يضفي على حق الملكية هذه القداسة ، ولاي سبب تحول ـ تحت اسم «تيرم» الى اله في كل مكان تقريبا ؟ (٦٢) ·

اجابة : ذلك ان المحافظة على الملكية هي الرب الاخلاقي للامبراطوريات، فهي التي تبقي على السلام الداخلي، وتجعل الانصاف يسود ، ذلك أن الناس لم يتحدوا الا ليؤمنوا ملكيتهم ، ذلك أن العدالة ـ وهي بذاتها تشمل كل الفضائل ـ تعني أن تعطي لكل انسان ما له ، ومن ثم فانها تختزل الى حماية حق الملكية ، وأخيرا فذلك لان القوانين لم تكن أبدا سوى وسائل مختلفة لتأمين هذا الحق للمواطنين ·

(٦٢) « تيرم اوتيرمينوس » هو اله الحدود في الاساطير الرومانية، وكان يعبد في شكل حجر أو عمود يرسم الحدود · كما كان كل حجر للحدود يعتبر شيئا مقدسا تحل اللعنة على كل من يحركة ـ المترجم ·

سؤال : أليس بين مختلف القوانين قوانين يمكن أن تسمى القوانين الطبيعية ؟

اجابة : كما سبق أن قلت هناك مثل هذه القوانين المتعلقة بالملكية ، والتي أرسيت لدى كل الامم والمجتمعات المتمدينة تقريبا لان المجتمعات لا يمكن ان تتشكل الا على أساس مثل هذه القوانين ·

سؤال : ماذا على الامير أن يفعل اذا افترضنا أنه يريد اكمال علم القوانين ؟

اجابة : عليه ان يشجـــع الموهوبين في دراسة هــذا العلم ، وان يكلفهم بحل مختلف المشكلات فيه ·

سؤال : وماذا سيحدث عندئذ ؟

اجابة : ستكف القوانين المتغيرة التي لم تبلغ بعد مرتبة الكمال عن ان تكون كذلك وتصبح ثابتة ومقدسة ·

ولكن كفى ! فليست ايتوبيا «التشريع الكامل» عند هلفيسيوس ــ كما هي عند هولباخ وكل «فلاسفة» القرن الثـــامن عشر ــ سوى ايتوبيا بورجوازية· وبضع الملامح الخاصة بكاتبنا لا تغير جوهرها· وسنورد فحسب بعضا من الملامح حتى نكمل صورة رجل كثيرا مــا شوه ايديولوجيو البورجوازية الجحود صورته ·

فهلفيسيوس ــ في مجتمعه الكامل ــ لا يجعــل العمال يعملون يوم عمل طويل كما يعملون الان ، فهو يقول :

« ولا شك أن القوانين الحكيمة يمكن أن تخلق معجــزة من السعادة الكلية · فلو أن كل المواطنين يمتلكون شيئا ما ، ولو أنهـــم يتمتعون بقدر من الكفاية ، ويستطيعون **بالعمل سبع ساعات او ثماني ساعات** أن يكفلوا بوفرة حاجاتهم وحاجـــات عائلاتهم فسيبلغون من السعادة اقصى مداها » ··· « واذا كان العمل يعتبر عموما شرا فمــا ذلك الا لان المرء لا يستطيع في أغلب الدول ان يوفر الضرورات الا بالعمـــل المفرط ، ولان فكرة العمل ترتبط دائما بفكرة الكدح » (٦٣) ·

---

(٦٣) «عن الانسان» ــ القسم الثامن ــ الفصل الاول والثاني ·

ولم تكن فكرة **فورييه** عن **العمل الجذاب** الا تطويرا لفكرة هلفيسيوس هذه، تماما كما أن يوم عمل من ثماني ساعات ليس سوى حل البروليتاريا لمشكلة آثارها هذا الفيلسوف **البورجوازي** ، مع فارق واحد هو أن البروليتاريا لن تتوقف عنده في تقدمها نحو « **السعادة** » ·

وكان **هلفيسيوس** يقف مع **التعليم العام** · وفي رأيه أن هناك اسبابا عديدة لتفضيله التعليم الخاص · وهو لم يستشهد الا بواحد من هذه الاسباب ، وهو سبب كاف : ان التعليم العام هو وحده الذي يربي وطنيين ، لانه وحده الذي يستطيع أن يربط ــ في أذهان المواطنين ــ بين فكرة السعادة الشخصية وسعادة الامة ·

وتلك فكرة أخرى لهذا الفيلسوف البورجوازي ستعالجها **البروليتاريا** التي ستطورها بما يواكب الزمن ·

لكن **هلفيسيوس** نفسه ــ كما نعرف ــ لم يكن ينتظر شيئا من البروليتاريا · فالى من اذن كان يعهد بتنفيذ خطته ؟ بالطبع **لامير حكيم** ما · ولكن لما لم يكن الانسان سوى نتاج لبيئته ، ولما كانت بيئة الامراء فاسدة للغاية، فأية أسباب معقولة تدفعنا لانتظار وصول **حكيم الى العرش** ؟ كان فيلسوفنا يدرك جيدا صعوبة الاجابة على هذا السؤال ، واذ وجد من الصعب عليه أن يصل الى اجابة فقد لجأ الى نظرية **الاحتمالات** ·

« فبعد زمن يطول أو يقصر لا بد ــ كما يقول الحكماء ــ من أن تتحقق كل الامكانات ، فلماذا نيأس من مستقبل الانسانية السعيد· من ذا الذي يستطيع أن يثبت أن الحقائق الواردة فيما سبق ستكون دائما غير مجدية لها ؟ ان من القادر ــ ولكن من الضروري ــ أن يخلق زمن ما واحدا مثل بن (٦٤) (!) أو مانكو ــ كاباك (٦٥) (!) يضع القوانين لمجتمعات ناشئة · ولكن لنفترض··· أن مثل هذا الرجل ــ سعيا وراء مجد جديد ــ أراد أن يخلد اسمه لدى الاجيال المقبلة كصديق للبشرية،

---

(٦٤) ويليم بن (١٦٤٤ ــ ١٧١٨) احد المهاجرين الاوائل الى امريكا ومؤسس بنسلفانيا ــ المترجم ·

(٦٥) مانكو ــ كاباك مؤسس امبراطورية بيرو (حوالي القرن العاشر الميلادي) ، وأقام حكم اسرة الانكاس الذي استمر حتى الغزو الاسباني في القرن السادس عشر ــ المترجم ·

وأنه بالتالي كان أكثر حرصا على وضع قوانينه وسعادة النـاس منه على توسيع سلطته· ان مثل هذا الرجل سيريد أن يجعل الناس سعداء لا عبيدا ، وعندئذ فلا شك ··· أنه سيدرك في المباديء التي طرحتهـا فيما سبق جنين تشريع جديد ، اكثر توافقا مع سعادة البشرية» (٦٦)·

وبقدر ما كان «الفلاسفة» يتناولون مسألة تأثير البيئـــة على الفرد كانوا يختزلون فعلها الى أفعال «الحكومة»· غير انهلفيسيوس لم يفعل ذلك في عجلة كالاخرين · فقد كان ثمة وقت رأى فيه وقـرر بوضوح أن الحكومة بدورها ليست سوى نتـاج للبيئة الاجتماعية ، وتمكن بقدر أو آخر من النجاح أن يستخلص **قوانينه المدنية والجنائية والعامة** ـ في الجزيرة التـــي افترضها ـ من **ظروفها الاقتصادية** · لكنه ما أن تحول الى دراسة تطور «التربية» ، أي العلم والادب حتى لم يلحظ ـ كما سيذكر القاريء من عرضنا فيما سبق ـ سوى تأثير الحكومة · غير أن فكرة التأثير الذي لا يقاوم للحكومة نوع مـــن **الطريق المسدود** لا يمكن الافلات منه الا بمعجزة أي بحكومة تقـــرر فجأة لأم كل الجراح التي خلقتها هي نفسها أو الحكومـات السابقة عليها · وقد لجأ هلفيسيوس أيضا الى هذه المعجزة ، لكنه لكي يحيي ايمانه وايمان قرائه بحث عن الخلاص في ميدان يبدو بـلا حدود هو ـ ميدان «**الامكانات**» ·

لكن النظرية لا تخلق ايمانا ، ومن باب أولى نظـرية لا توفر الا أساسا ضيقا للثقة كنظرية الامكانات التي تحـدث في فترة تطول أو تقصر · وهكذا ظل هلفيسيوس ـ على الاقل بالنسبة **لفرنسا ـ غيـر مؤمن اطلاقا** · فهو يقول في مقدمة كتابه «عن الانسان» ·

« لقد وقعت بلادي أخيرا في ربقة الحكم المطلق· ومنذ الان لن تعود تنتج كتابا مشهورين ··· لن يعود هذا الشعب يجلب الشهرة لاســـم الفرنسي · فهذه الامة المتدهورة اليوم هي موضع ازدراء اوروبا ، وما من ازمة خلاص ستعيد لها حريتها ··· يقال أن السعادة ـ كالعلوم ـ تطوف العالم ، وهي الان تتجه نحو الشمال : فالامـراء العظام يدعون العباقرة الى هناك ، والعبقرية تدعو السعادة ··· ولمثـل هؤلاء الملوك

(٦٦) المصدر السابق ـ الفصل السادس والعشرون ·

أهدي كتابي هذا » (٦٧) ·

ويبدو لنا أن عدم الثقة هذا ـ الذي وجد معادلا ضئيلا في الامال المعلقة على ملوك الشمال ـ قد مكنه من ان يمضي بتحليله للظواهر الاخلاقية والاجتماعية الى أبعد من سائر «الفلاسفة» · لقد كان هولباخ ـ شأنه شأن فولتير ـ رجل دعاية لا يكل، وقد نشر عددا كبيرا من الكتب التي كان يعزف فيها ـ في الجوهر ـ على نفس الوتر · أما هلفيسيوس فقد وضع كتابا واحدا هو «عن الروح»، وليس الكتاب الاخر «عن الانسان» الا تعليقا مستفيضا عليه · ولم يرد الكاتب أبدا أن ينشر الكتاب في حياته ، وهو يقول :

« ان من يريد ان يتعلم مبادىء الاخلاق الحقة لا بد له أن يرتفع الى مبدأ الحساسية الفيزيائية ، ويبحث في حاجات الجوع والعطش وما اليهما عن السبب الذي يجعل الناس ـ الذين تضاعفوا بالفعل ـ يفلحون الارض ، ويتحدون في مجتمع ، ويتوصلون فيما بينهم الى اتفاقات تجعل مراعاتها الناس عادلين ، ويجعلهم انتهاكها غير عادلين » ·

وهكذا فقد قام بتحليله بهدف اكتشاف **مبادىء الاخلاق الحقة** وفي الوقت نفسه مبادىء **السياسة** · وأوضح بتقديمه مبدأ «الانطباعات الحسية» أنه كان أكثر ماديي القرن الثامن عشر اتساقا ومنطقية ، فهو «ببحثه في حاجات الجوع والعطش وما اليهما» عن أسباب تقدم البشرية التاريخي قد أخذ على عاتقه مهمة تقديم تفسير مادي لهذا التقدم · وقد توصل الى كثير من الحقائق أكثر قيمة من خطته لوضع تشريع كامل أو من «**حقائقه العظيمة**» الثابتة المطلقة التي أهداها الى ملوك «الشمال» · لقد فهم أن «سببا مشتركا» ما لا

(٦٧) كان هلفيسيوس يعني «بالامراء العظام» كاترين الثانية امبراطورة روسيا والملك فريدريك الثاني ملك بروسيا اللذان كانا يتخذان مظهر الملوك «المستنيرين» ورعاة العلوم والفلسفة · وقد عاش لاميتري وفولتير في بلاط فريدريك الثاني ، وكانت كاترين الثانية تتراسل مع فولتير والانسكلوبيديين كما دعت ديدرو و دالمبيرت وغيرهما الى سان بطرسبورغ ـ المترجم ·

بد أن يوجد في التطور الانساني ، لكنه لم يعرف ـ ولم يكن يستطيع أن يعرف ـ هذا السبب اذ لم تكن لديه الوقائع الكافية ولا المنهج اللازم • وظل هذا السبب «**خبيئا**» و «**غير واضح**» له • لكن هذا لم يفت في عضده ، فقد كان الطوباوي الكامن فيه يهديء الفيلسوف • لقد تحقق الهدف الرئيسي : ووضعت مباديء التشريع «**الرائع**» •

ويكفي مثلا لكي يبينا لنا كيف كان هلفيسيوس يستخدم أحيانا في رسمه لخططه الطوباوية مبدأ الانطباعات الحسية •

« لست عدوا للعروض المسرحية ، كما اني ـ في هذا الصدد ـ لا اتقبل نصيحة روسو • فلا شك أن مثل هذه العروض تجلب المتعة• غير انه ليس ثمة متعة لا يمكن ان تصبح ـ في ايدي حكومة حكيمة ـ مبدأ مفضيا الى الفضيلة اذا رأت هذه في المتعة جزاء لها » (٦٨) •

وهذا ما قاله دفاعا عن **الطلاق** •

« واذا كان صحيحا ان الرغبة في التغيير كامنة في الطبيعةالانسانية كما يقولون فان امكانية مثل هذا التغيير يمكن أن توضع كمكافأة للفضائل • وعلى المرء أن يسعى بهذه الطريقة لجعل المحاربين اكثر شجاعة ، والقضاة اكثر عدلا ، والعمال أكثر دأبا ، والموهوبين اكثر جدا » •

الطلاق كمكافأة للفضيلة ! أيمكن أن يوجد شيء أكثر فكاهة ؟ ونحن نعرف أنه لو نفذت مباديء التشريع الكامل فان«القوانين المتغيرة التي لم تبلغ بعد مرتبة الكمال ستكف عن أن تكون كذلك وتصبح ثابتة» • وهكذا سيكون المجتمع في حالة من **السكون**• فماذا ستكون آثار مثل هذا الظرف ؟

« لنتصور أن الناس سيستطيعون ـ في كل فرع للعلم أو الفن ـ ان يقارنوا فيما بينهم كل الموضوعات والوقائع المعروفة ، وسيكتشفون في النهاية كل علاقات هذه الاخيرة • فما دام لم يعد لدى الناس تجميعات أخرى يقومون بها فان ما يعرف باسم الذهن سيكف عن الوجود •

(٦٨) «عن الانسان» ـ القسم الاول ـ الفصل العاشر ـ ملاحظة •

وعندئذ سيتحول كل شيء الى علم ، وسيجبر الذهن الانساني على الراحة حتى يتيح له اكتشاف وقائع غير معروفة أن يقارن بينها ويجمعها ، تماما كما يترك المنجم المستنفد يرتاح الى أن تتشكل عروق جديدة » (٦٩) ٠

وهكذا فان هذه **الراحة** وهذا **الاستنفاد** للروح الانساني لا بد أن يؤدي حتما ــ على الاقل في مملكة العلاقات الاجتماعية ــ الى تحقق مبادىء هلفيسيوس الاخلاقية والسياسية ٠ وهكذا كان **الركود** هو المثل الاعلى لهذا الفيلسوف الذي كان نصيرا متحمسا للتقدم ! **فالمادية الميتافيزيقية لم تكن الا نصف ثورية** ٠

وبالنسبة له لم تكن الثورة الا وسيلة **(وذلك فحسب نظرا لغياب الوسائل السلمية)** لبلوغ سماوات **آمنة** و **هادئة** مرة والى الابد ٠٠٠ وفي صدره كانت هناك ــ ويا للاسف ــ روحان ، شأنه شأن فاوست، وشأن البورجوازية التي كان ماديو القرن الثامن عشر هم آخر ممثليها التقدميين ٠

---

(٦٩) «عن الانسان» ــ القسم الثاني ــ الفصل الخامس عشر ٠
ويعني هلفيسيوس **بالذهن** هنا **«تركيب افكار جديدة» وبالعلم** اكتساب الافكار المعروفة فعلا للبشرية ٠

٣ - ماركس

ظن ماديو القرن الثامن عشر أنهم قضوا على المثالية · لقد ماتت الميتافيزيقا القديمة ودفنت وما عاد العقل ليقبل أن يسمع شيئا عنها ، غير أن الامور سرعان ما اتخذت منحى آخر : فحتى في عصر «الفلاسفة» بدأ في المانيا انبعاث للفلسفة النظرية ، وخلال العقود الاربعة الاولى من القرن التاسع عشر أوليت المادية أذنا صماء ، وبدأت هي ذاتها تعتبر بائدة دفنت الى الابد · وبدا المذهب المادي للعالم الفلسفي بأسره مذهبا «جافا» و «كيبئا» و «موحشا» كما كان يبدو لغوته : « لقد جعل الناس يرتجفون وكأنه شبح » (١) · ورأت الفلسفة النظرية بدورها انها تغلبت على خصمها الى الابد ·

ولا بد أن نعترف بأنه كانت للفلسفة النظرية ميزة كبيرة على المادية · فقد كانت تدرس الاشياء في **تطورها** ، في **مولدها ودمارها**· غير أن دراسة الاشياء من وجهة النظر الاخيرة هذه يعني تنحية أسلوب الدراسة الذي كان يميز رجال التنوير ، هذا الاسلوب الذي كان يحول الظواهر ــ بازالته منها كل حركة داخلية للحياة ــ الى حفريات متحجرة لا يمكن فهم طبيعتها وعلاقاتها · ولم يكف هيغل ــ عملاق المثالية في القرن التاسع عشر ــ عن شن الصراع ضد هذا الاسلوب في الدراسة،فهو بالنسبة له«ليس تفكيرا حرا موضوعيا لانه **لا يسمح للموضوع بأن يحدد ذاته بحرية من داخله وانما يفترضه كشيء جاهز** » (٢) · واحتفت الفلسفة المثالية المنبعثة بمنهج هو النقيض تماما ــ **الجدل** ــ واستخدمته بنجاح مذهل · ولما كنا قد

---

(١) انظر الباب الحادي عشر من «الشعر والحقيقة» الذي يصف فيه غوته انطباعاته عن كتاب «نظام الطبيعة» ·

(٢) «الانسكلوبيديا» ــ قام بنشرها فون ل·ف· هينينج ــ الفقرة٣١·

أشرنا مرارا الى هذا المنهج ، وسيكون علينا أن نتناوله أيضا فيما بعد، فقد يكون من المفيد أن نصفه بعبارات هيغل أستاذ الجدل المثالي نفسه • يقول هيغل :

« عادة ما ينظر الى الجدل كمهارة خارجية تثير البلبلة بتعسف في الافكار المحددة ، وتخلق فيها مجرد **مظهر للتناقضات** ، بحيث أن هذا المظهر هو الموهوم وليس هذه التحديدات ، في حين أن تحديدات الفكر بالعكس صادقة• والحق أن الجدل كثيرا ما لا يكون أكثر من لهو ذاتي يقدم بصورة متعسفة أحيانا براهين وأحيانا انكارات لقضية محددة ـ تدليل يخلو من المضمون ويختفي خواؤه خلف المهارة التي تخلق هذا النوع من التدليل • غير ان الجدل في طابعه الحق **هو** الطبيعة الذاتية الحقيقية لتحديدات الفكر ، للاشياء ، وللمحدود بشكل عام • والتفكير reflection هو بذاته حركة للفكر تتجاوز التحدد المعزول وتربطه بغيره ، وبفضل هذا يجلب هذا التحدد الى صلة معينة لكنه الى جانب هذا يحتفظ بدلالته المعزولة السابقة• ان الجدل ـ على العكس ـ انتقال محايث من تحديد الى آخر ، ينكشف فيه أن هذه التحديدات للفكر أحادية الجانب ومحدودة ، أي أنها تحوي نفيا لها • **ان كل محدود مقيض له أن يدمر ذاته** •وبالتالي فان الجدل هو الروح المحركة لاي تقدم علمي للفكر ، وهو المبدأ الذي يجلب وحده الى مضمون العلم **صلة وضرورة محايثتين** » •

وكل ما يحيط بنا يمكن أن يستخدم كمثال للجدل :

« فكوكب ما يقف الان في هذا المكان ، لكنه يميل بذاته الى أن يكون في مكان آخر ، مولدا بحركته الاخر الذي هو آخره هو ••• أما عن وجود الجدل في العالم الروحي ، وبوجه خاص في المجالات القانونية والاخلاقية ، فيكفي أن نذكر هنا أن خبرة الناس جميعا تبين أن أي وضع أو فعل يدفع الى حده الاقصى يتغير الى ضده ،ونلاحظ ـ عابرين ـ أن كثيرا من الامثال تعترف بهذا الجدل • وهكذا فان هناك مثلا يقول : summun jus, summa injuria (٣) مما يعني أن الحق المجرد اذا ما دفع الى حده الاقصى يتحول الى

(٣) اقصى عدالة هي اقصى ظلم ـ المترجم •

ظلم » الخ ··· (٤) ·

ان الصلة بين منهج الماديين الفرنسيين الميتافيزيقي ومنهج المثالية الالمانية الجدلي أشبه بالصلة بين الرياضة الاولية والرياضة العليا · فالافكار ــ في الاولى ــ بالمغة الضيق تفصلها «هوة» عن بعضها البعض : فالمضلع مضلع ولا شيء آخر ، والدائرة دائرة ولا شيء آخر · غير أننا حتى في قياس المساحات مضطرون الى استخدام ما يسمى **أسلوب الحدود** الذي يهز أفكارنا الموقرة غير المتحركة ويقرب بينها بشكل غريب · فكيف نثبت أن مساحة الدائرة تعادل حاصل ضرب المحيط في نصف القطر ؟ نقول ان الفرق بين مساحة مضلع منتظم مرسوم داخل الدائرة وبين مساحة هذه الدائرة يمكن أن يجعل مقدارا صغيرا للغاية بشرط أن نعطيه عددا كافيا من الاضلاع · فاذا نحن عبرنا عن مساحة مضلع منتظم مرسوم داخل دائرة ومحيطه وقطره بالرموز م و ط و ق فسنصل الى المعادلة م = ط × ١/٢ · و ط و ١/٢ ق مقداران يتغيران مع عدد الاضلاع لكنهما يظلان دائما متساويين فيما بينهما وبالتالي فان **حدودهما** ستكون أيضا متساوية·واذا نحن عبرنا عن مساحة الدائرة ومحيطها وقطرها بالرموز م١ وط١ وق١ فان م١ ستكون حد م و ط١ ستكون حد ط وق١ ستكون حد ق· ومن ثم فان م١ = ط١ × ١/٢ ق١ · وهكذا **يتحول المضلع** الى دائرة ، وبهذه الطريقة نرى الدائرة **في عملية صيرورتها** · وكانت هذه بالفعل ثورة بارزة في الافكار الرياضية ، وهذه الثورة هي التي اخذها التحليل الاعلى **نقطة بدء** له · فالحساب التفاضلي يعالج المقادير **الدقيقة** ، أو على حد تعبير هيغل «ان عليه أن ينشغل بالمقادير التي **هي في عملية اختفاء ــ لا قبل** اختفائها لانها تكون عندئذ مقادير محدودة ، ولا **بعد** اختفائها لانها عندئذ لا تكون شيئا » (٥) ·

ومهما بدا في هذه الوسيلة من غرابة ومفارقة فقد قدمت للرياضة خدمات لا تقدر ، وأثبتت بذلك انها الضد تماما من **الحماقة** التي قد تبدو عليها في البداية · وكان «فلاسفة» القرن الثامن عشر

---

(٤) المصدر السابق ــ الفقرة ٨١ و الملحق

(٥) «علم المنطق» ــ نورنبرج ــ ١٨١٢ ــ المجلد الاول ــ الجزء الاول ــ ص ٤٢ ·

يقدرون مزاياها أبلغ التقدير ، وقد انغمسوا كثيرا في التحليل الاعلى · لكن نفس هؤلاء الناس الذين استخدموا هذا السلاح استخداما رائعا في حساباتهم ـ مثل كوندورسيه ـ كانوا سيشعرون بالدهشة الشديدة لو علموا أن هذا الاسلوب الجدلي ينبغي أن يطبق في دراسة **كل الظواهر التي يتناولها العلم بغض النظر عن المجال الذي تنتمي اليه** · وكانوا سيجيبون بأن **الطبيعة الانسانية** على الاقل من الثبات والخلود قدر حقوق الشعب والمواطنين وواجباتهم المستمدة من هذه الطبيعة · أما هيغل فقد أكد أنه «**ما من شيء ليس ظرفا ٠٠٠ بين الوجود والعدم**» ·

وطالما ظلت سائدة في **الجيولوجيا** نظرية التغيرات الفجائية ، الثورات الفجائية التي تغير بضربة مطرقة سطح الكرة الارضية، وتدمر الانواع القديمة من الحيوانات والنباتات لتخلي المكان لانواع جديدة، فقد كان اسلوب التفكير ميتافيزيقيا ، ولكن حين نبذت هذه النظرية ، تاركة مكانها لفكرة التطور البطيء للقشرة الارضية تحت التأثير طويل الامد لنفس القوى التي تعمل في أيامنا فقد اعتنقت عندئذ وجهة النظر **الجدلية** ·

وطالما ظلت الفكرة في **البيولوجيا** أن الانواع ثابتة كان أسلوب التفكير **ميتافيزيقيا** · وكانت هذه هي نظرة الماديين الفرنسيين التي كانوا يعودون اليها على الدوام حتى وهم يحاولون التخلي عنها · وقد نبذت البيولوجيا المعاصرة هذه النظرة مرة والى الابد، والنظرية التي تحمل اسم داروين نظرية **جدلية** في جوهرها ·

وعند هذه النقطة ينبغي أن ندلي بالملاحظة التالية · فمهما كانت سلامة رد الفعل ضد النظريات الميتافيزيقية في العلوم الطبيعية فانها خلقت بدورها كثيرا من البلبلة المؤسفة ، وظهر اتجاه الى تفسير النظريات الجديدة انطلاقا من التعبير القديم natura non fa cit saltum (٦) ، مما أدى الى الوقوع في النقيض الاخر : فلم يعد الاهتمام يولى الان الا الى عملية **التغير الكمي التدريجي** في الظاهرة المعطاة، وظل تحولها الى ظاهرة أخرى أمرا غير مفهوم على الاطلاق · **وكانت هذه هي الميتافيزيقا القديمة وانما موضوعة على رأسها** · فبنفس الطريقة القديمة ظلت الظواهر منفصلة عن بعضها البعض **بهوة لا اجتياز لها** · وقد بلغ من رسوخ هذه الميتافيزيقا في أذهان

---

(٦) الطبيعة لا تعرف الوثبات ـ المترجم ·

التطوريين المعاصرين أن هناك اليوم عددا من «**علماء الاجتماع**» الذين يكشفون عن عجز كامل عن الفهم حيثما تصل أبحاثهم الى موضوع **الثورة** • **فالثورة** كما يرونها لا تتمشى مع **التطور** : historia non facit saltum (٧) وهم لا يشعرون على الاطلاق باضطراب حين تحدث الثورات ـ وحتى الثورات العظيمة ـ على الرغم من حكمتهم التاريخية • انهم يتمسكون بنظريتهم : واللعنة على الثورات التي تثير الاضطراب في هدوء هذه النظرية ، فهم يعتبرونها نوعا من «**الامراض**» • وقد أدانت المثالية **الجدلية** هذه البلبلة الفظيعة في الافكار وحاربتها • وهذا ما يقوله هيغل عن التعبير سالف الذكر :

«يقال ان natura non facit saltum : وحين يكون على الخيال العادي أن يتصور **صيرورة** أو **انقضاء** فانه يعتقد أنه قد تصورها اذا ما تخيلها **كظهور** او اختفاء **تدريجي** » •

غيران الجدل اوضح بجلاء أن :

« التغيرات في الوجود لا تقتصر عموما على أن كمية ما تتحول الى كمية أخرى ، وانما تنسحب كذلك على أن الكيف يتحول الى كم والعكس بالعكس : عملية تحول تمثل **انقطاعا في التدرج**، وتعتبر كيفا جيدا يختلف عن الكيف السابق •

فالماء حين يبرد لا يتجمد بالتدريج ، ولا يصل بالتدريج الى تماسك الثلج بعد أن يمر بتماسك العجينة مرة واحدة • وحين يبرد بالفعل الى درجة التجمد يمكنه أن يظل سائلا لو أنه حافظ على حالة هدوئه ، ثم تكفي أدنى هزة ليصبح جامدا فجأة• «وتقوم فكرة التدرج في الصيرورة على فكرة أن ما يولد موجود هناك بالفعل بشكل محسوس او غير محسوس ، وهو لا يدرك حسيا لسبب واحد هو صغره ، ويقوم التدرج في الاختفاء على فكرة أن اللاوجود أو الاخر الذي يأخذ مكانه موجود بالمثل الا انه ليس ملحوظا بعد ، موجود لا بمعنى أن الاخر محتوى **في** ذاته في الاخر الموجود هناك، بل كوجود محدد وانما غير ملحوظ»(٨)•

وهكذا فان :

١) كل ما هو محدود من شأنه أن يلغي نفسه ، أن يتحول الى

(٧) التاريخ لا يعرف الوثبات ـ المترجم •

(٨) «المنطق» ـ المجلد الاول ـ الجزء الاول ـ ص ٣١٣ •

ضده • ويجري هذا التحول بمساعدة الطبيعة الكامنة في كل ظاهرة، التي تحوي قوى تولد نقيضها •

٢) التغيرات **الكمية** التدريجية في محتوى معين تتحول في النهاية الى تمايزات **كيفية** ، وسمات هذا التحول هي سمات **الوثبة** ، **الانقطاع في التدرج** • ومن الخطأ تماما أن نعتقد أنه ليس ثمة وثبات في الطبيعة أو التاريخ •

تلك هي السمات المميزة للنظرة الجدلية الى العالم التي نعتبر من المفيد ذكرها هنا •

وقد خلق المنهج الجدلي في تطبيقه على الظواهر الاجتماعية (ونحن لا نتناول الا هذه الظواهر) ثورة حقيقية • وليس من قبيل المبالغة أن نقول اننا ندين له بفهم التاريخ الانساني **كعملية يحكمها قانون** • «فالفلاسفة» الماديون لم يروا في التاريخ البشري الا الافعال **الواعية** لاناس حكماء فاضلين الى حد أو آخر ، لكنهم ليسوا في الاساس شديدي الحكمة والفضيلة • أما المثالية الجدلية فقد أدركت وجود الناس وأهدافهم • وحتى هلفيسيوس الذي يقترب من وجهة النظر الجدلية «**بافتراضه**» ان كل شيء في التاريخ كما في الطبيعة «**يحدثويفعل بذاته**» (وتلك هي عباراته بذاتها) ، حتى هلفيسيوس لم يفسر الاحداث التاريخية الا بواسطة صفات **الافراد** الذين يمتلكون السلطة السياسية • ففي رأيه أن مونتسكيو كان على خطأ حين **تجاهل التأثير السعيد للظروف التي خدمت روما** في كتابه «عن عظمة وانحلال الرومانيين» • وقال هلفيسيوس ان مونتسكيو :

« وقع في الخطأ الذي يميز المفكرين الذين يريدون أن يفسروا كل شيء ، وفي خطأ الاساتذة المنعزلين الذين ينسون البشرية ، وينسبون بيسر زائد آراء لا تتغير ومباديء موحدةالى كل الهيئات» (وهلفيسيوس يتحدث هنا عن «هيئات» سياسية مثل مجلس الشيوخ في روما) «بيد أنه كثيرا ما قاد فرد واحد وفق هواه المجالس الهامة التي تسمى مجالس الشيوخ » (٩) •

وكم تختلف عن هذا نظرية شيلنغ الذي أكد أن **الحرية** (أي

(٩) انظر « افكار وتأملات » ـ المؤلفات الكاملة ـ المجلد الثالث ـ باريس ١٨١٨ ـ ص ٣٠٧ •

افعال الناس الواعية تتحول في التاريخ **الى ضرورة في حين تتحول الضرورة الى حرية** ٠ واعتبر شيلنغ المسألة التالية أهم **مشــــكلات** الفلسفة :

« كيف يمكن في الوقت الذي نتصرف فيه بحرية كاملة ـ أي بوعي ـ أن يظهر لدينا دون وعي شيء لم نقصده أبدا، ولم يكن في وسع الحرية بذاتها أن تنتجه ؟ » (١٠) ٠

يقول **هيغل** ان «تاريخ العالم هو تقدم الوعي بالحرية ، وهــو تقدم يجب أن نفهمه في ضرورته » ٠ وهو ـ شأنه شأن شيلنغ ـ يرى أنه ٠

« في تاريخ العالم ، وبفضل أفعال الناس عموما ، نصل أيضا الــى نتائج تختلف الى حد ما عن تلك النتائج التي سعوا لها وحققوها٠ فمن النتائج التي يعرفونها معرفة مباشرةويريدونها ينطلقون ليكفلوا تحقيق مصالحهم ، ولكن بفضل ذلك يتحقق شيء أبعد ، شيء كامن فيهم، لكنه ليس مدركا بوعي، ولا يمثل جزءا من نواياهم » (١١) ٠

وواضح أنه من وجهة النظر هذه ليست «آراء» الناس هي التي «تحكم العــــالم» ، ولا ينبغي أن نبحث فيهـــــا عن مفتاح الاحداث التاريخية ٠ «فالرأي العام» في تطوره يتبــــع قوانين تصوغه بنفس الضرورة التي تحدد حركة الاجرام السماوية ٠ وبهذه الطريقة أمكن التوصل الى حل للنقيضة التي كان «الفلاسفة» يصطدمون بهــا على الدوام :

١) الرأي العام يحكم العالم ، انه يحدد العلاقــات بين افراد المجتمع ، ويخلق البيئة الاجتماعية ٠

٢) الانسان نتاج للبيئة الاجتماعية ، واراؤه تتحــدد بسمات

---

(١٠) « مذهب المثالية الترانسندنتالية » ـ توبنجـــن ـ ١٨٠٠ ـ ص ٤٢٦ وما بعدها ٠

(١١) «محاضرات في فلسفة التاريخ» ـ المجلد التاسع من مؤلفات هيغل الكاملة باشراف فون أ٠ جانز ـ ص ٢٢ و ٣٠ وانظــر شيلنغ ـ المصدر السابق ص ٤٢٤ ٠

هذه البيئة (١٢) ٠

«**كل شيء يتوقف على التشريع**»، هذا ما كان الفلاسفة يرددونه، مقتنعين كل الاقتناع بأن اخلاق أي شعب تتوقف على تشريعه ٠ وفي الوقت نفسه فقد رددوا بنفس الدرجة أن الاخلاق الفاسدة هي التي أدت الى انهيار حضارة العصر القديم ٠ وما لدينا هنا ليس سوى **نقيضة** أخرى : (١) التشريع يخلق الاخلاق ٠ (٢) الاخلاق تخلق التشريع ٠ ونستطيع أن نقول ان مثل هذه النقائض تحوي كلا من جوهر الفكر الفلسفي في القرن الثامن عشر ونقيصته التي عجز عن حلها ، أو التخلص منها ، أو تفهم أسباب هذا الاضطراب الرهيب الذي وجد نفسه فيه مرة بعد الاخرى ٠

ان **الميتافيزيقي** ينظر الى الاشياء ويدرسها واحدة بعد الاخرى، وفي عزلة عن بعضها البعض٠وحين يشعر بالحاجة الى تقديم صورة شاملة يدرس الاشياء في **فعلها المتبادل** ٠ وعند هذه النقطة يتوقف ، انه لا يمضي ــ ولا يستطيع أن يمضي ــ الى أبعد من ذلك،لان الاشياء عنده تظل مفصولة عن بعضها بهوة واسعة ، ولانه ليس لديه أي تصور لتطورها كيما يفسر أصولها أو العلاقات القائمة فيما بينها ٠

وتعبر المثالية **الجدلية** هذه الحدود التي يراها الميتافيزيقيون حدودا لا اجتياز لها،انها تنظر الى كلا جانبي الفعل المتبادل لا كشيء « معطى مباشرة » وانما « كلحظات لحد ثالث أرقى هو الفكرة » ٠ وهكذا يدرس هيغل اخلاق اسبارطة وتركيب دولتها فيقول :

« فاذا نحن مثلا اعتبرنا **أخلاق** شعب اسبارطة نتيجة لتركيبدولتهم، وبالعكس تركيب دولتهم نتيجة **لاخلاقهم** فان هذا الاسلوب في الدراسة قد يكون صحيحا لكنه لا يؤدي الى الاقتناع الكامل لاننا في الواقع لا نكون قد فهمنا أيا من تركيب دولة هذا الشعب أو اخلاقه ٠ وليس هذا ممكنا الا اذا أدركنا أن الفكرة هي أساس هذين الجانبين ــ وكذلك كل الجوانب الاخرى التي تكشف عنها حياة شعب اسبارطة وتاريخه » (١٣) ٠

ولم يكن الفلاسفة الفرنسيون يشعرون حيال **العصور الوسطى**

(١٢) انظر بحثنا عن هولباخ فيما سبق ٠

(١٣)«الانسكلوبيديا» ــ المجلد الاول ــ فقرة ١٥٦ ــ تذييل ٠

الا **بالاحتقار** أو بالاحرى **الكراهية** · فقد رأى هلفيسيوس في الاقطاع **«قمة الحماقة»** · ورغم ان هيغل كان بعيدا كل البعد عن التمجيد الرومانسي لاخلاق العصور الوسطى ومؤسساتها فقد اعتبرها عنصرا ضروريا في تطور البشرية · **وفضلا عن هذا** فقد رأى بالفعل أن التناقضات الداخلية للحياة الاجتماعية في العصور الوسطى قد ولدت المجتمع الحالي ·

ولم يكن الفلاسفة الفرنسيون يرون في الدين سوى كتلة من الخرافات ، تنبعث من غباء البشرية وتدليس الكهنة والانبياء ، ولم يكونوا يستطيعون الا **شن الصراع** ضد الدين، ومهما كان هذا العمل مفيدا في وقتهم فانه لم يسهم أدنى اسهام في الدراسة العلمية للدين· وكانت المثالية الجدلية هي التي **مهدت** لهذه الدراسة· ويكفي أن نقارن كتاب شتراوس « حياة يسوع » بكتاب هولباخ « التاريخ النقدي ليسوع المسيح » كي نرى الخطوة الواسعة التي تحققت الى الامام في فلسفة الدين تحت التأثير الايجابي لمنهج هيغل الجدلي (١٤) ·

وحين كان «الفلاسفة» يدرسون تاريخ الفلسفة فانما كانوا يفعلون ذلك كي يستمدوا منه حججا تؤيد أفكارهم ، أو ليحطموا مذاهب اسلافهم المثاليين · أما هيغل فلم ينازع مذاهب أسلافه ـ التي اعتبرها مراحل مختلفة في تطور **«فلسفة واحدة»** · وكل فلسفة **بعينها هي ابنة عصرها** ·

« وأحدث الفلسفات هي حصيلة كل الفلسفات السابقة ، ولا بد بالتالي أن تحوي مبادئها جميعا ، ومن ثم فانها اذا كانت حقا فلسفة لا بد أن تكون اكثر الفلسفات تطورا وغنى وتعينا » (١٥) ·

(١٤) وبالمناسبة يستطيع القاريء الالماني بدلا من قراءة كتاب هولباخ أن يقلب اوراق «حياة يسوع» (هـ· ا· باولوس ـ هيدلبرغ ـ ١٨٢٨) الذي عرض نفس وجهة النظر · وكل ما في الامر أن رجل التنوير الالماني حاول أن يمجد ما كان يحاربه الفيلسوف الفرنسي بحماس · لقد رأى باولوس معجزة من معجزات الطيبة والحكمة في شخص ترك لدى هولباخ انطباعا بأنه كسول جاهل فاسد ·

(١٥) «الانسكلوبيديا» ـ الفقرة ١٣ ·

وكان «التشريع الكامل» الموضوع المفضل الذي درسه الفلاسفة، وكانت لكل منهم ايتوبياه في هذا الصدد . أما المثالية الجدلية فقد نحت جانبا مثل هذه الدراسات . يقول هيغل .

« فالدولة كلية مفردة لا يمكن أن تأخذ جانبا خاصا منها ــ وحتى جانبا بالغ الاهمية مثل الدستور السياسي ــ ثم تفكر وتقرر على أساسه بمعزل ... فلا بد للمرء أن يفهم روح الشعب التي ينبعث منها كل ما في الدولة ، وهي تتطور بذاتها ، ويستطيع المرء أن يميز في تطورها فترات معينة يلزم لكل منها دستور معين ، ليس أمرا اختياريا بل بما يتفق مع روح العصر... وثانيا فليس الدستور فحسب هو الذي يتحدد بروح الشعب بل ان روح الشعب حلقة في مجرى تطور روح العالم الذي تحدث فيه الدساتير المفردة » (١٦) .

وباختصار فقد اعتبرت المثالية الجدلية الكون كلا مفردا «**يتطور من فكرته هو**» . وكانت معرفة هذا التكامل وكشف عملية تطوره هي المهمة التي أخذتها هذه الفلسفة على عاتقها ــ وانها لمهمة نبيلة جليلة رائعة ! وفلسفة تأخذ على عاتقها مثل هذه المهمة لا يمكن أن تبدو «مقبضة» و «موحشة» لاحد . بالعكس تماما : لقد أثارت الاعجاب العام بكمال حياتها ، وقوة حركتها التي لا تقاوم ، وجمال ألوانها الزاهية . غير أن المحاولة النبيلة التي بدأتها الفلسفة المثالية الالمانية ظلت دون أن تكتمل ، فهي لم تكملها ولا كانت تستطيع أن تكملها . وبعد أن أدت المثالية الالمانية للروح الانساني خدمات لا تقدر عادت تتدهور كيما تقدم ــ ان امكن القول ــ براهين جديدة على نظريتها هي ، وتبني بالمثل الذي تضربه هي ذاتها أن «**كل ما هو محدود من شأنه أن يلغي ذاته ، أن يتحول الى ضده**» . فبعد عشر سنوات من وفاة هيغل عادت **المادية** ثانية الى ساحة التطور الفلسفي، ولم تكف حتى يومنا هذا عن احراز الانتصارات على خصمها القديم.

فما هو هذا **التصور** ، هذه الفكرة المطلقة ، روح العالم الذي ظلت تتحدث عنه الفلسفة النظرية الالمانية ؟ أثمة وسيلة لمعرفة هذه الماهية الغامضة التي كانت تعتقد أنها تعطي الحركة والحياة لكل شيء .

---

(١٦) «فلسفة التاريخ» ص ٥٠ــ٥١ .

هناك في الواقع مثل هذه الوسيلة ، وانها لوسيلة بسيطة للغاية ، وانما تتطلب دراسة متأنية · واذا تحقق ذلك فان تحولا بالغ الروعة سيحدث ، فهذه **الفكرة المطلقة** ، التي لا تقاوم في حركتها ، المشرقة المثمرة ، وأم كل ما وجد ويوجد وسيوجد في المستقبل ، هذه الفكرة المطلقة تفقد كل بهاء ، وتصبح غير متحركة ، ويتضح أنها **تجريد خالص** ، أبعد ما يكون عن تفسير كل شيء ، بل تسأل في تواضع عن أيسر تفسير لها ، sic transit gloria... ideae (١٧) ·

فليست الفكرة المطلقة ، بكل قوانينها الجوهرية ، سوى تشخيص **لعملية تفكيرنا** ، وكل من يلجأ الى هذه الفكرة بحثا عن تفسير لظواهر الطبيعة أو التطور الاجتماعي يبتعد عن أرض الوقائع الراسخة ويدخل **مملكة الاشباح** · وهذا بالتحديد ما حدث للمثاليين الالمان ·

ونجد في كتاب صدر في فرانكفورت على المين عام ١٨٤٥ ، ووضعه رجلان اشتهر اسماهما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، عرضا رائعا «**لسر الابنية النظرية**» ·

«فاذا استطعت من التفاح والكمثري والفراولة واللوز الواقعي أن اشكل الفكرة العامة «فاكهة» ، واذا مضيت الى ابعد من ذلك **وتخيلت** أن فكرتي المجردة «فاكهة» ، المستمدة من الفاكهة الواقعية ، هي كيان موجود خارجي،وانها في الحقيقة الماهية **الحقة** للكمثري والتفاح الخ·· عندئذ فانني بلغة الفلسفة النظرية أعلن أن «الفاكهة» هي «**جوهر**» الكمثري والتفاح واللوز الخ··· ومن هنا فاني أعلن أن الوجود كحبة كمثري ليس جوهريا للكمثري ، والوجود كحبة تفاح ليس جوهريا للتفاحة ، وأن ما هو جوهري لهذه الاشياء ليس وجودها الواقعي المدرك بالحواس بل هو الجوهر الذي جردته منها ثم فرضته عليها ، جوهر فكرتي ــ «الفاكهة» ــ ومن هنا فانني اعلن التفاح والكمثري واللوز الخ· كمجرد اشكال ــ أسلوب ــ لوجود «الفاكهة» · ان فهمي المحدود ــ تسانده حواسي ــ يميز بالطبع التفاحة من ثمرة الكمثري ، وثمرة الكمثري من اللوز ، لكن عقلي النظري يعلن أن هذه الفوارق الحسية ليست أساسية ، وغير هامة ، وهو يرى في التفاحة نفس ما يراه في الكمثري ، وفي الكمثري ما يراه في اللوزة ، أي «الفاكهة» ، وليست

(١٧) وهكذا ينتقل مجد ··· الفكرة ــ المترجم ·

الفواكه الواقعية الخاصة الا مظاهر اساسهـا الحق هو «الجوهر» ـ «فاكهة» (١٨) ٠

غير أن الفلسفة النظرية الالمانية لم تتمسك في الاساس بوجهة نظر الجوهر ، يقول أن :

« الجوهر المطلق حقيقة ، لكنه ليس بعد كل الحقيقة ، فلا بد أيضا أن يفهم كشيء فعال يعيش بذاته ، ولهذا السبب يحدده الروح» ٠

فلنر كيف يتم الوصول الى هذه الوجهة نظر الارقى والاكثر صدقا ٠

« اذا لم يكن التفاح والكمثري واللوز والفراولة في الحقيقة الا «**الجوهر**» ، «**الفاكهة**» فان السؤال يثور : لماذا تكشف **الفاكهة** عن نفسها أحيانا كتفاحة ، وأحيانا كثمرة كمثري ، وأحيانا كلوزة ؟ من أين جاء **مظهر التعدد** هذا الذي يتناقض بشكل صارخ مع مفهومي النظري عن «**الوحدة**» ، «**الجوهر**» ، «**الفاكهة**» ؟

« ويجيب الفيلسوف النظري ، سبب ذلك أن الفاكهة ليست ميتة ، غير متمايزة ، « وبلا حركة ، بل هي حية ، متمايزة ، متحركة ، فتعدد الفواكه المادية له دلالة لا بالنسبة لفهمي الحسي فحسب بل و «**للفاكهة**» ذاتها ، وللعقل النظري ، فالفواكه العادية المختلفة هي مظاهر مختلفة لحياة «الفاكهة **الواحدة**» ، انها بلورت «**الفاكهة**» ذاتها، وهكذا ففي التفاحة تكشف «**الفاكهة**» عن ذاتها في وجود على شكل تفاحة ، وفي ثمرة الكمثري في وجود على شكل ثمرة كمثري، ومن ثم ينبغي بعد ذلك ألا نقول ـ كما يمكن ان نفعل من زاوية الجوهر ـ أن الكمثري هي «**الفاكهة**» ، والتفاحة هي «**الفاكهة**» واللوزة هي «**الفاكهة**»، وانما أن «**الفاكهة**» تكشف عن نفسها كتفاحة ، «**الفاكهة**» تكشف عن نفسها كلوزة ، والفوارق التي تميز التفاح عن الكرثري عن اللوز هي التمايزات الذاتية «**للفاكهة**»، التي تجعل الفواكه الخاصة أعضاء تابعة

---

(١٨) «العائلة المقدسة ، أو نقد النقد النقدي ، ضد برونو باور وشركائه » ـ انجلز وماركس ـ فرانكفورت على المين ـ ١٨٤٥ ـ ص ٧٩ ٠

في عملية حياة الفاكهة ٠٠٠ » ٠

« ونحن نرى أنه اذا كانت الديانة المسيحية لا تعرف تجسيد **واحد** للرب فان لدى الفلسفة النظرية من التجسيدات بقدر ما هناك من اشياء، تماما كما أن لديها هنا في كل فاكهة تجسيدا للجوهر، للفاكهة المطلقة٠ ومن ثم فان الشاغل الرئيسي للفيلسوف النظري هو أن ينتج **وجود** الفواكه العادية الواقعية ، وأن يقول بطريقة غامضة، أن هناك تفاحات وحبات كمثري ولوز وعنب ٠٠٠ » ٠

« وغني عن البيان أن الفيلسوف النظري لا ينجز هذا الخلق المستمر الا بتصوير الصفات المعروفة للجميع للتفاحة والكمثري الخ ٠٠ التي توجد في الواقع كسمات محددة **ابتدعها** هو ، باعطاء **اسماء** الاشياء الواقعية لما لا يستطيع أن يخلقه سوى العقل المجرد ، لصيغ العقل المجردة ، وأخيرا باعلان أن نشاطه **هو** ، الذي **ينتقل** به من فكرة التفاحة الى فكرة حبة الكمثري ، هو **النشاط الذاتي** للذات المطلقة ، «الفاكهة» (١٩) ٠

وهذا النقد المادي للمثالية قاس بقدر ما هو صحيح ٠ فلم تكن «الفكرة المطلقة» ، «روح» الفلسفة النظرية الالمانية ، سوى تجريد ، غير أن التجريد الذي يعتبر الحل النهائي لاعمق مشكلات العلم لا يمكن الا أن يكون ضارا لتقدم هذا الاخير ، واذا كان هؤلاء المفكرين الذين توجهوا الى هذا التجريد قد قدموا خدمات عظيمة للفكر الانساني فقد فعلوا ذلك **رغم** تجريدهم وليس **بفضله**،وبقدر ما لم يكن هذا التجريد يعوق دراستهم لحركة الاشياء الفعلية ٠ فنحن نجد افكارا رائعة في فلسفة الطبيعة عند شيلنغ ، وقد كانت لديه معرفة واسعة في ميدان العلوم الطبيعية ، لكن «**العالم الطبيعي**» لم يكن لديه سوى «تجلي عالم الافكار» ٠ وربما لم يكن يناقض نفسه حين أكد أن

« **المغنطيسية** فعل عام مولد للحياة ، وهي غرس الوحدة في الكثرة، والفكرة في التنوع ، ان نفس هذا الاقحام لما هو ذاتي في ما هو موضوعي ، والذي هو في المثالي ٠٠٠ الوعي بالذات ، يظهر هنا في الوجود » ٠

---

(١٩) « العائلة المقدسة » ـ ص ٨٠ـ٨٤ ٠

ولكن أيأخذنا هذا خطوة واحدة الى الامام نحو معرفة الظواهر المغنطيسية أو فهم طبيعة المغنطيسة؟ أننا لم نعجز فحسب عن تحقيق أي تقدم بل اننا نتعرض لخطر هائل هو أن ننكر الوقائع الفعلية من أجل نظرية قد تبدو لنا ألمعية الى حد أو آخر ، لكنها على أي حال متعسفة تماما ·

ونستطيع أن نقول نفس الشيء عن التاريخ البشري· فكما قال السير الكسندر غرانت ذات مرة فإن استعارة الفلسفة من كتاب هيغل «فلسفة التاريخ» أشبه باستعارة الشعر من شيكسبير ، أي انها تكاد تكون أمرا حتميا · وفي بعض النواحي فان دراسة فلسفة التاريخ عند هيغل أو جمالياته أو فلسفة القانون عنده أو منطقه ضرورية اليوم أيضا · ولكن ليست وجهة النظر المثالية هي التي تعطي لكل هذه الاعمال قيمتها · بالعكس ان وجهة النظر هذه **عقيمة تماما** ، وهي ليست **مثمرة** الا في **توليد البلبلة** · وهكذا مثلا يصف هيغل ببراعة جديرة بالخبير تأثير البيئة الجغرافية على التطور التاريخي للمجتمعات الانسانية، ولكن أهو يستطيع أن يفسر شيئا على الاطلاق حين يقول ان «روح الشعب المحدد ـ لانه نشط وحريته مستمدة من الطبيعة ـ يحمل طابعا جغرافيا ومناخيا خاصا بفضل هذه الاخيرة»، أو هل هو ـ اذا اخذنا مثالا استخدمه هو نفسه ـ يقترب بنا خطوة واحدة من فهم تاريخ اسبرطة حين يقول ان اخلاق هذا البلد مثل تركيب دولته لم تكن سوى لحظات في تطور الفكرة ؟ صحيح بالطبع أن وجهة نظر «الفلاسفة الفرنسيين» الذين يورد هذا المثال ضدهم (وجهة نظر الفعل المتبادل التي تظل حاجزا لا اجتياز له أمام اكثر ابحاثهم اثمارا) غير كافية على الاطلاق ، الا أنه لا يكفي أن ننبذ وجهة النظر هذه ، فالامر الاساسي هو أن نبين الى أي حد يمكن «**للفكرة**» أن تكون الباعث الخفي الذي يدفع التطور الاجتماعي · ولم يكن هيغل فحسب **غير قادر أبدا** على أن يجيب على هذا السؤال المشروع تماما بل لقد كان يبدو غير قانع كثيرا بالضوء الذي يزعم أن هذه الفكرة تلقيه على تاريخ البشرية· لقد كان يشعر بالحاجة الى الوقوف على أرض صلبة،والقيام بدراسة متأنية **للعلاقات الاجتماعية**، وهكذا انتهى بأن يقرر بشكل قاطع «**لقد سقطت اللاكيديمون أساسا بسبب عدم التكافؤ في الملكية**· وكل هذا حقيقي ، لكن هذه الحقيقة لا

تحوي ذرة من **المثالية المطلقة** » (٢٠) ٠

حاول أن تتخيل أن شخصا ما قد شرح لنا بوضوح مذهل آلية حركات الحيوانات ثم مضى بعد ذلك يقول بكل وقار وجدية اننا نجد السبب الحيوي الخفي لهذه الحركات في **الظلال** التي تلقيها الاجسام المتحركة ٠ ان هذا الشخص مثالي «مطلق» ٠ وربما شاطرنا هـــذا المثالي أفكاره بعض الوقت لكني آمـــل اننا سنفهم في النهاية **علم الميكانيكا** ونقول **«وداعا الى الابد»** **«لفلسفته عن الميكانيكا»** ٠

وهكذا على الاقل تصرف مختلف تلاميذ هيغل ٠ فرغم أنهـــم كانوا يعرفون كيف يقدرون أعلى تقدير المزايا التي يوفرها منهـــج المفكر العظيم فقد انتقلوا الى**وجهة النظر المادية**٠وتكفي الاستشهادات التي أوردناها من قبل من«العائلة المقدسة»لتبين الى أي حد كان نقدهم للفلسفة النظرية المثالية نهائيا قاسيا ٠

والمنهج الجدلي هو أبرز سمات المادية المعـــاصرة ، وهنا يكمن الفارق الاساسي بينها وبين المادية الميتافيزيقية القديمة في القـــرن الثامن عشر ٠ ومن هنا يمكن للمرء أن يحكم على مـــدى عمق آراء وجدية مؤرخي الادب والفلسفة الذين لم يتفضلوا بملاحظة هـــذا الفارق ٠ فالراحل لانج يقسم كتابه «تاريـــخ المادية» الى قسمين ـ المادية **قبل** كانط والمادية **بعد** كانط ٠

ولا بد بالضرورة لنوع آخر من التقسيم أن يفرض نفســه على أي شخص لم تعمه بعد روح مدرسة ما أو المفهومات الجاهزة المعادة: فالمادية **بعد** هيغل لم تعد أبدا ما كانت عليه قبله ٠ ولكـــن أيمكن أن نتوقع شيئا آخر ؟ ان على المرء كي يحكم على تأثير مثالية القـــرن التاسع عشر على تطور المادية أن يدرك في المقام الاول ما اصبحت عليه هذه الاخيرة اليوم ٠ وهذا ما لم يفعله لانـــج أبدا ٠ فرغم أنه تحدث في كتابه عن الجميع ـ بما فيهم نكرات مثل هنريخ سزولبي ـ فانه لم يذكر المادية الجدلية على الاطلاق ٠ ان مؤرخ المادية المثقف هذا لم يدر بخلده على الاطلاق أن هنـــاك ماديين معاصرين بارزين بطريقة مختلفة تماما عن السادة فوجت وموليشوت وشركائهما (٢١)٠

---

(٢٠) نحيل القاريء الى مقالنا « في الذكـرى الستين لوفاة هيغل » حيث سيجد أمثلة اخرى من نفس النوع ٠

(٢١) وبهذه المناسبة فقد اتبع لانج آراء وعادات كل الكتاب المثقفين

وستبدو السهولة التي تمكنت بها المادية الجدلية من التغلب على المثالية أمرا غير مفهوم لكل من يفتقر الى فهم المسألة الاساسية التي تفصل الماديين على المثاليين • فعادة ما يفكر من يسترشدون بالتحيزات **الثنائية** مثلا بأن هناك **جوهرين مختلفين تماما في الانسان: الجسد** أو **المادة** من ناحية **والروح** أو **الذهن** من الناحية الاخرى • ورغم انهم لا يعرفون ، بل كثيرا ما لا يسألون ، كيف يمكن لكل من هذين الجوهرين أن يؤثر على الاخر الا أنهم يدركون تماما أن من «**أحادية الجانب**» أن يفسروا الظواهر بواسطة واحد فقط من هذين الجوهرين • ومثل هؤلاء الناس – يرون في اعتداد تفوقهم على الطرفين ، وهم **ليسوا** مثاليين **ولا ماديين** • ومهما كان الوقار الذي قد يكون قد جلبه طول العمر لهذا الاسلوب في النظر الى المسائل الفلسفية فانه ليس جديرا الا بالسوقيين • فلم تستطع الفلسفة أبدا أن تنظر بارتياح الى مثل «تعدد الجوانب» هذا ، بالعكس لقد حاولت أن تتخلص من هذه **الثنائية** العزيزة على العقول **الانتقائية** • وكانت ابرز المذاهب الفلسفية دائما مذاهب واحدية أي أنهما لم تنظر الى الروح والمادة الا كنوعين من الظواهر سببهما واحد لا ينفصل • وقد رأينا من قبل أن الماديين الفرنسيين قد اعتبروا «**ملكة الحس**» **صفة من صفات المادة** • وعند هيغل لم تكن الطبيعة سوى «**الوجود الاخر**» das anderssein للفكرة المطلقة ، وهذا «الوجود الاخر» هو الىحد ما سقوط الفكرة في الخطيئة الاصلية،فالطبيعة من خلق الروح، ولا توجد الا بفضل نعمتها • وهذا السقوط المتخيل لا يستبعد بأي

الذين ينتمون الى «**المجتمع الراقي**»• فكثيرا ما قارن هيتز بدوره مذهب **ديدرو** بمذهب **الماديين المحدثين** • ولكن من كان يعتبره ممثلا للماديين المحدثين ؟ موليشوت! ان هيتز لا يعرف الكثير عن وضع الماديةالحديثة حتى انه ليؤمن بأنه يعبر عن شيء بالغ العمق حين يقول: « وفي مذهب الاخلاق لم ترتفع المادية بعد عن مثل هذه المحاولات البائسة (أي المحاولات التي بذلها ماديو القرن الثامن عشر ـ ج• ب•) واذا كان على المادية أن تقدم الادلة على صحتها فان مهمتها المباشرة والاكثر أهمية تكمن في تطوير مذهب للاخلاق» («تاريخ الادب في القرنالثامن عشر ـ المجلد الثاني ـ برونزويك ـ ١٨٨١ ـ ص ٤٠٢) لقد تأخرت كثيرا يا سيدي العزيز !

حال هوية الجوهر بين الطبيعة والروح ، بالعكس انه **يفترض** هـذه الهوية • فروح هيغل المطلق ليس سوى الروح **المحدودة** لفلسفة الاذهان **المحدودة**• وقد استطاع هيغل أن يسخر من اولئك الذين رأوا في المادة والروح جوهرين مختلفين •

« لا يمكن لاحدهما أن ينفذ الى الاخر ، بنفس الطريقة التي يفترض بها أن كل مادة لا يمكن أن تنفذ في الاخرى • ولا يوجدان الا في عدم وجودهما المتبادل في مسام كل منهما ، تماما مثل أبيقور الذي أعطى الالهة وجودا في مسام الكون ، لكنه في اتساق كامل أثقلها بعدم الاتصال بالعالم » •

ورغم عداء هيغل للمادية فقد أبدى تقديره **لاتجاهها الواحدي**(٢٢) ولكن اذا نحن تبنينا وجهة النظر **الواحدية** فان الممارسة وحدها هي التي ستقرر أيا من النظريتين ـ **المثالية** أو **المادية** ـ هي التي تقدم أفضل تفسير للظواهر التي تقابلها في دراسة الطبيعة والمجتمعات الانسانية • وسنرى بسهولة انه حتى في ميدان **السيكولوجيا** ، وهو علم يدرس وقائع يمكن في أغلبها أن تسمى ظواهر روحية، فان عملنا يحقق نجاحا أكبر حين نقبل الطبيعة كعامل **أولي** ، ونعتبر افعال الروح نتائج ضرورية لحركة المادة • يقول هكسلي **اللاأدري** :

« من المؤكد أن احدا يدرك وقائع الحالة اليوم لن يشك في أن جذور السيكولوجيا تكمن في فسيولوجيا الجهاز العصبي•وما نسميه عمليات الذهن هي وظائف للمخ ، ومواد الوعي هي منتجات لنشاط القشرة المخية• وربما كان كابانيه قد استخدم عبارات فجة مضللة حين قال أن المخ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء، لكن المفهوم الذي تجسدههذه العبارة التي كثر التشهير بها هو رغم هذا أكثر اتساقا مع الواقع من الفكرة الشائعة أن الذهن كيان ميتافيزيقي يوجد في الرأس وانما

---

(٢٢) «الا اننا يجب أن نعترف بالرغبة الملهمة للماديين في أنيتخطوا الثنائية التي تقبل العالمين كشيئين متساويين في الجوهرية والصدق ، وأن يزيلوا هذا التقسيم للوحدة الاصلية » («الانسكلوبيديا» ـ المجلد الثالث ـ فقرة ٣٨٩ والاضافة) • ونلاحظ هنا عرضا أن هيغل في كتابه «تاريخ الفلسفة» قدم في بضع كلمات تقييما للمادية الفرنسية ولاناس من امثال هلفيسيوس افضل مما فعلمؤرخو المادية **المحترفون**•

مستقلا عن المخ بدرجة استقلال عامل التلغراف عن آلته » (٢٣) ٠

وفي مجال العلوم الاجتماعية ـ بأوسع معانيها ـ كثيرا ما وصلت المثالية كما سبق أن أشرنا الى الوعي بعجزها ، ولجأت الى تفسير مادي خالص للوقائع التاريخية ٠

وسنؤكد من جديد ان الثورة العظمى الالمانية في العقد الخامس من القرن التاسع عشر قد سهلتها كثيرا الطبيعة **الواحدية** للمثالية الالمانية ٠ يقول روبرت فيلنت :

« والواقع أن الهيغيلية رغم انها انضج المذاهب المثالية جميعا لا تمثل الا اضعف الحواجز حتى أمام المادية » ٠

وهذا صحيح تماما رغم أنه كان على فيلنت أن يقول «نتيجة أنها» بدلا من «رغم أنها» ٠ وفيلنت هذا نفسه على حق تماما حين يمضي قائلا :

« صحيح أنه (مذهب هيغل ـ ج٠ ب٠) يضع الفكر قبل المادة ، ويصور المادة كمرحلة في عملية للفكر ، ولكن لما كان الفكر الموضوع قبل المادة فكرا غير واع ـ فكرا ليس ذاتا ولا موضوعا ، وبالتالي فانه ليس فكرا واقعيا بل ليس حتى شبحا أو خيالا لفكر ـ فان **المادة لا تزال هي الواقع الاول** ، الوجود الفعلي الاول ٠ والقوة الموجودة في المادة ، الاتجاه الموجود فيها للارتفاع على نفسها ، هو جذر وأساس الروح والذاتي والموضوعي والمطلق » (٢٤) ٠

وستدرك بسهولة كيف سهل عدم الاتساق هذا ـ وهو **حتمي** في

---

(٢٣) يقتبس بليخانوف عن الترجمة الفرنسية لكتاب هكسلي «هيوم» (رجال الادب الانجليز) «هيوم ٠٠ صفاته وفلسفته» الذي ترجمه عن الانجليزية ج٠ كومبايري ـ باريس ١٨٨٠ ـ ص ١٠٨ ٠ ومن الصحيح أن نقول أن اللاأدارية ـ رغم كل شيء ـ ليست سوى مادية جبانة تحاول ان تحتفظ بقدر من ماء الوجه ٠

(٢٤) « فلسفة التاريخ في فرنسا والمانيا » ـ ادنبرغ ولندن ـ ١٨٧٤ ـ ص ٥٠٣ ٠

المثالية ـ الثورة التي نشير اليها في الفلسفة · ويتجلى عدم الاتساق هذا بوجه خاص في **فلسفة التاريخ** ·

« ولدى هيغل هنا تناقض مزدوج : أولا لانه وهو يعلن أن الفلسفة هي أسلوب وجود الروح المطلق يرفض أن يعترف بالفرد الفلسفي **الواقعي** باعتباره الروح المطلق ، وثانيا لانه لا يدع الروح المطلقكروح مطلق يصنع التاريخ الا **في الظاهر** ، لانه ما دام الروح المطلق لا **يعي** ذاته باعتباره روح العالم الخلاق الا في الفيلسوف ، وبعد انتهاء الحفل ، فانه لا يصنع التاريخ الا في وعي الفيلسوف ورأيه ومفهومه ، أي الا في مخيلته النظرية » ·

تلك هي عبارات **كارل ماركس** أبو المادية الجدلية المعاصرة (٢٥) وقد عبر هذا العبقري عن الثورة الفلسفية التي قام بها في العبارات الموجزة التالية :

« ان منهجي الجدلي ليس مختلفا فحسب عن منهج هيغل بل هو نقيضه المباشر ، فعند هيغل نجد أن عملية حياة المخ الانساني ، أي عملية التفكير التي يحولها تحت اسم «الفكرة» الى ذات مستقلة هي صانعة العالم الواقعي ، وليس العالم الواقعي الا الشكل الخارجي ، الظواهري ، «للفكرة» ، أما عندي فعلى العكس ليس المثالي سوى العالم المادي وقد عكسه الذهن الانساني وترجمه في أشكال الفكر » (٢٦) ·

وقبل أن نعرض النتائج التي توصل اليها ماركس بمعونة هذا المنهج ، سنلقي نظرة سريعة على الاتجاهات التي ظهرت في العلم التاريخي الفرنسي خلال فترة عودة الملكية ·

كان «الفلاسفة »الفرنسيون مقتنعين بأن الرأي العام هو الذي يحكم العالم ، وحين كانوا يتذكرون ان الانسان بكل آرائه ـ وفقا لنظريتهم الحسية ـ نتاج للبيئة الاجتماعية ، كانوا يؤكدون أن **كل**

(٢٥) « العائلة المقدسة » ـ ص ١٢٧ ·

(٢٦) « رأس المال » ـ المجلد الاول ـ الطبعة الثالثة ـ المقدمة مقدمة الطبعة الثانية ـ ص ١٩ ·

شيء يتوقف على التشريع» ، مفترضين أن هذا الرد الموجز ــ والمفيد ــ يحل المسألة . وفضلا عن ذلك فقد كان «التشريع» لديهم يعني في المقام الاول **القانون العام** ، «حكومة» كل بلد بعينه .

وقد أخذت وجهة النظر هذه تنبذ خلال العقود الاولى من قرننا، وبدأ التساؤل عما اذا لم يكن من الاوفق ان نبحث عنجذور **المؤسسات السياسية** في **القانون المدني** (٢٧) . وأصبحت الاجابة على هذا السؤال الان بالايجاب .

يقول جيزو : « حاول غالبية الكتاب والاساتذة والمؤرخين وفقهاء القانون العام أن يفسروا ظروف المجتمع ، ودرجة أو طبيعة مدنيته ، بدراسة مؤسساته السياسية،الا أنه من الاحكم أن نبدأ بدراسة المجتمع ذاته لكي نتعلم ونفهم تنظيماته السياسية . فقبل أن تصبح المؤسسات السياسية سببا كانت نتيجة ، لقد خلقها المجتمع قبل أن يبدأ في التغيير تحت تأثيرها،وبدلا من أن نحكم على ظروف شعب ما من نظام حكومته أو أشكالها يجب أولا أن نبحث ظروف الشعب لكي نحكم على ما يجب أن تكون عليه حكومته ، وما يمكن أن تكون عليه هذه الحكومة ... فالمجتمع وتكوينه وطريقة حياة الافراد وفقا لمركزهم الاجتماعي ، والعلاقات بين مختلف الاشخاص ، وبكلمة واحدة ، **الظروف المدنية للناس** ــ هذه بلا شك هي المسألة الاولى التي تسترعي انتباه المؤرخ

(٢٧) لم يعد من السهل بعد أحداث نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ان نعتقد أن «الرأي العام هو الذي يحكم العالم » : فهذه الاحداث كشفت عجز الرأي العام . كتبت مدام دي ستيل فيالعام الثامن من الجمهورية تقول : « كم من أحداث يقررها العنف ، وكم من جرائم يغفرها النجاح ، وكم من فضائل تتعرض للاستهجان ، وكم من كوارث تحقرها القوة ، وكم من مشاعر كريمة تصبح موضعا للسخرية، وكم من حسابات شريرة تحظى بتعليقات منافقة، وهذا كله يوهن الامل حتى في اولئك الاكثر اخلاصا لعبادة العقل ... » (« عن الادب منظورا اليه في علاقته بالمؤسسات الاجتماعية » ــ المجلد الاول ــ ص ٤ ــ المقدمة) . والحق أن كل الطوباويين في فترة عودة الملكية ولويس فيليب كانوا مقتنعين بأن الرأي العام يحكم العالم. وكان هذا هو المبدأ الكامن خلف فلسفتهم عن التاريخ. الا أن ما يعنينا هنا ليس سيكولوجية الطوباويين .

الذي يريد أن يعرف كيف عاشت الشعوب ، ودارس القانون العام الذي يريد أن يعرف كيف حكمت » (٢٨) ٠

وأمامنا هنا ثورة كاملة في الافكار التاريخية «للفلاسفة»، لكن جيزو يمضي حتى الى أبعد من هذا فيتحليله «لتكوين المجتمع» ٠ ففي رأيه أن الحياة المدنية لكل **الشعوب الحديثة** ترتبط ارتباطا وثيقـــا **بعلاقات ملكية الارض** ، وهذا هو السبب في أن هذه الاخيرة ينبغـي أن تدرس قبل الحياة المدنية ٠

« لكي نفهم المؤسسات السياسية يجب أن ندرس مختلف الفئـات القائمة في المجتمع وعلاقـــاتها المتبادلة ، ولكي نفهم هذه الفئـــات الاجتماعية المختلفة يجب أن نعرف طبيعة وعلاقات ملكية الارض»(٢٩)٠

ومن وجهة النظـــر هذه يدرس جيزو تاريخ فرنســـا في ظل الميروفينيين والكاروليين ٠ وفي تأريخه للثورة الانجليزية خطا خطوة جديدة الى الامام عارضا هذا الحدث كحلقة في الصراع الطبقـــي للمجتمع الحديث ، معتبرا **علاقات الملكية** وليس **علاقات ملكية الارض** العمود الفقري للحركات السياسية ٠

وتوصل **أوجستين تييري** الى نفس الاراء،ففي كتاباته عنتاريخ انجلترا وفرنسا يعتبر تطور المجتمع دافع الاحداث السياسية ، لقـد كان أبعد ما يكون عن الاعتقاد بأن الرأي العام يحكم العالم ، فهـــو لم يكن يعني لديـــه سوى تعبير اكثر او أقـــل ملاءمة عن المصالح الاجتماعية٠وهذا مثال لفهمه للصراع الذي خاضه البرلمان ضدشارل الاول ٠

« ان كل من عد أسلافه بين غزاة انجلترا قد ترك قلعته ورحـــل الى المعسكر الملكي ، ليأخذ مركزا يتفق مع رتبته ، وتدفق سكان المـــــدن والموانى الى المعسكر المضاد٠٠٠ فكل الكسالى ــ أيا كان منشأهم ــ كل اولئك الذين لا يسعون في الحياة الا وراء المتعة دون عمل قد انضموا

(٢٨) « بحث في تاريخ فرنسا » ــ الطبعة العاشرة ــ باريس ١٨٦٠ ــ ص ٧٣ــ٧٤ ٠ وقد ظهرت الطبعة الاولى لهذا الكتاب في عام ١٨٢٢٠

(٢٩) « بحث في تاريخ فرنسا » ــ ص ٧٥ ــ ٧٦ ٠

الى القوات الملكية مدافعين عن المصالح التي تماثـــل مصالحهم ، في حين أن عائلات طائفة الغزاة السابقين التي كسبتها الصناعة انضمت الى حزب العموم وفي كلا الجانبين كانت الحرب تشن من أجل مصالح وضعية ، وكان كل ما عدا ذلك اما تبريرا ظاهريا أو ذريعة . فالذين دافعوا عن قضية **الرعايا** كانوا في الاغلب من **المشيخيين** presbyterians أي أنهم لم يكونوا يريدون خضوعـــا حتى في الدين ، وهؤلاء الذين يساندون القضية المضادة كانوا ينتمون الى العقيـــدة الانجليكية أو العقيدة البابوية : وذلك لانهم بحثوا حتى في أشكال العبادة عن امكانية ممارسة فرض الضرائب على الاخرين » (٣٠) .

وهذا واضح الى حد كبير ، **لكنه يبدو أوضح مما هو عليه في الواقع** . فالحق أن الثورات السياسية نتيجة للصراع الذي تخوضه الطبقات من أجل مصالحها الوضيعة ، مصالحها **الاقتصادية** . لكن ما هو السبب الذي يعطي المصالح الاقتصادية لطبقة بعينها شكلا أو آخر ؟ ما هو السبب الذي يولد الطبقـــات في المجتمع ؟ صحيح أن أوجوستين تييري يتحدث عن «**الصناعات**» ، لكن هذا المفهوم لديـــه بالغ الغموض ، وكيما يتغلب على هذه الصعوبة فانه يعود الى الغزو النورماندي .وهكذا فان الطبقات التي ولد صراعها الثورة الانجليزية تدين بأصلها للغزو النورماندي . وهو يقول «**ان كل هذا يرجع الـى الغزو ، وهناك غزو في أساسه**» . ولكن ماذا نفهـــم من الغزو ؟ ألا يعود بنا الى نشاط «**الحكومات**» الذي حاولنا أن نجـــد له تفسيرا ؟ وحتى لو تغاضينا عن هذا فان واقعة الغزو لا يمكن أبدا أن تفســـر **النتائج الاجتماعية** لهذا الغزو . فقبل غزو البرابرة لبلاد الغال كان الرومان قد غزوها ، لكن الاثار الاجتماعية لهـــذين الغزوين كانت مختلفة تماما . فأين يكمن السبب ؟ لا شك أن ابناء الغال في عهـــد قيصر كانوا يعيشون في ظل ظروف مختلفة عن ظروف ابناء الغـــال في القرن الخامس ، كما لا شك في أن الغزاة الرومان لا يشبهون في شيء «البرابرة» ــ الفرانك والبورجنديين . ولكن أيمكن تفسير هذه

---

(٣٠) « المؤلفات الكاملة لاوجوستين تييري » ــ المجلد الســادس ــ الطبعة العاشرة ــ باريس ١٨٦٦ ــ ص ٦٦ . والمقال الذي نقتبس عنه ــ «نظرات على تاريخ انجلترا» ــ منشور في Censeur Européen في عام ١٨١٧ أي قبل ظهور كتاب جيزو « بحث في تاريخ فرنسا » .

التمايزات بغزوات أخرى ؟ نستطيع أن نعدد كل الغزوات **المعروفة** وكل الغزوات **الممكنة** ورغم هذا فسنظل في حلقة مفرغة ، وفي كل مرة سنعود الى نتيجة لا مهرب منها هيأنه يوجد في حياة الشعوب شيء ما ، (س) ، كم مجهول ما ، تدين له «قوة» الشعوب ذاتها والطبقات الموجودة فيها **بأصلها** ، **واتجاهها** ، **وتحوراتها** . وباختصار من الواضح أن هذه «القوة» تقوم على شيء ما ، بحيث يمكن اختزال المسألة الى تحديد طبيعة هذا الكم المجهول (٣١) .

ونفس هذه التناقضات تحاصر **جيزو** . فبم تدين «**علاقات الملكية**» لدى الشعوب التي تحدث عنها في كتابه بأصلها ؟ انها تنبع من أعمال **الغزاة** :

« فبعد الغزو أصبح الفرانك ملاك أرض ... وكان الاستقلال المطلق للملكية ارضهم حقا لهم ، تماما كاستقلال اشخاصهم . ولم يكن لهذا الاستقلال من ضمان سوى قوة المالك ، لكنه كان يظن ـ وهو يستخدم قوته للدفاع عنه ـ انه انما يمارس حقه » الخ .. (٣٢) .

ومن الامور التي تلفت النظر كذلك أن الحياة المدنية لم تكن مرتبطة ارتباطا وثيقا «بعلاقات ملكية الارض» الا بالنسبة «للشعوب الحديثة» **وحدها** .

ولم يستطع مينيه ولا أي مؤرخ فرنسي آخر في ذلك الحين (وقد كان المؤرخون الفرنسيون في ذلك الحين بارزين في اكثر من ناحية) أن ينتزع نفسه من الصعوبة التي وصلت بجيزو وأوجوستين تييري الى طريق مسدود . لقد كانوا يدركون بالفعل جيدا أنه ينبغي البحث عن تطور المجتمع في علاقاته الاقتصادية ، وأدركوا بالفعل أنه

---

(٣١) يعلن اوجوستين تييريبأوضح افكاره التاريخية **لسان سيمون** الذي قام بالكثير لتفسير تطور البشرية التاريخي ، الا أنه عجز عن تفسير هذه الـ (س) التي أشرنا اليها فيما سبق . فقد كانت **الطبيعة الانسانية** بالنسبة له سببا كافيا في الجوهر لتطور البشرية . وقد اصطدم بنفس العقبة الكئود التي اصطدم بها الفلاسفة الماديون في القرن الثامن عشر . ونأمل ان نتمكن من عرض افكار سان سيمون في بحث خاص .

(٣٢) جيزو ـ المرجع السابق ـ ص ٨١ ـ ٨٣ .

تكمن خلف **الحركات السياسية مصالح اقتصادية** تفرض نفسها من خلالها · فلقد كان من الصعب **بعد** الثورة الفرنسية ، هذه الملحمة التي خاضتها البورجوازية ضد النبلاء والكهنة ، ألا يفهم ذلك (٣٣)· الا أنهم لم يستطيعوا أن يفسروا **منشأ** بنية المجتمع الاقتصادية ، وأينما تناولوا هذا الموضوع كانوا يتجهون الى الغزو ، عائدين الى وجهة نظر القرن الثامن عشر، لأن الغازي كان أيضا «مشرعا» وانما قادم من الخارج ·

وهكذا توصل **هيغل** ـ رغم ارادته اذا أمكن القول ـ الى استخلاص أنه ينبغي البحث عن سر مصائر الشعوب التاريخية في **ظروفهم الاجتماعية (في «الملكية»)** · أما المؤرخون الفرنسيون في فترة عودة الملكية فانهم من جانبهم قد أشاروا **بصراحة** الى «**المصالح الوضعية**» ، الى الظروف الاقتصادية ، كتفسير لاصل وتطور مختلف اشكال «**الحكومة**»· غير أن أحدا من الجانبين ـ لا الفيلسوف المثالي ولا المؤرخون الوضعيون ـ كان قادرا على حل المشكلة الكبيرة التي لا مهرب لهم من مواجهتها : وعلام تتوقف بدورها **بنية المجتمع** ، **علاقات الملكية** · وطالما ظلت هذه المشكلة الكبيرة دون حل لم يكن أي بحث فيما يسمى في فرنسا les sciences morale et politique (العلوم الاخلاقية والسياسية ـ المترجم) ليقوم على أساس علمي حق ، وكان في وسع المرء حينئذ أن يقابل عن حق بين هذه العلوم الزائفة وبين الرياضة والعلوم الطبيعية باعتبارها العلوم «**الدقيقة**»

---

(٣٣) كثيرا ما تحدث المؤرخون الفرنسيون الليبراليون في فترةعودة الملكية عن **الصراع الطبقي** بل **وأشاروا اليه في تعاطف** ، ولم تفزعهم حتى اراقة الدماء « ··· وهكذا فانني أكرر أن الحرب ـ أي الثورة ـ كانت ضرورية » · هكذا يصيح تييري في ملحوظة في كتابه « تاريخ الثورة الفرنسية » (طبعة ١٨٣٤ ـ المجلد الاول ـ ص ٣٦٥) « فالله لم يعطنا العدالة الا مقابل النضال » · فطالما لم تكن **البورجوازية** قد اكملت بعد صراعها ضد **الارستقراطية** لم يكن لدى منظري البورجوازية اعتراض على الصراع الطبقي · وأدى ظهور **البروليتاريا** في الساحة التاريخية ، بصراعها ضد البورجوازية ، الى تغييرات كبيرة في افكار هؤلاء المنظرين الذين يرون اليوم أن وجهة نظر «الصراع الطبقي» «ضيقة الافق» للغاية ـ tempura mu tantur et mutamur in illis (الزمن يتغير ونحن نتغير فيه ـ المترجم) ·

الوحيدة التي تستحق اسم العلم ٠

وهكذا تحددت مقدما مهمة **المادية الجدلية** ٠ فقد كان على الفلسفة التي قدمت في القرون الماضية خدمات كبيرة **للعلم الطبيعي** أن تقود الان **العلوم الاجتماعية** للخروج من هذا التيه من التناقضات ٠ وبانجاز هذه المهمة يمكن للفلسفة أن تقول : «**لقد اديت واجبي ، واستطيع الان أن أرحل**» لان من المقيض **للعلم الدقيق** في المستقبل أن يجعل **افتراضات الفلسفة** عديمة الجدوى ٠

وتحوي مقالات ماركس وانجلز في «الحوليات الفرنسية والالمانية» ــ باريس ١٨٤٤ ، وكتاب «العائلة المقدسة» لنفس الكاتبين و «ظروف الطبقة العاملة في انجلترا» بقلم انجلز و «بؤس الفلسفة» لماركس و «بيان الحزب الشيوعي» بقلم ماركس وانجلز و «العمل المأجور ورأس المال » بقلم ماركس ، سمات فهم جديد للتاريخ ، صيغ صياغة رائعة ، وعرض بأقصى وضوح ٠ غير أننا نجد عرضا متسقا وان يكن موجزا له في كتاب ماركس «نقد الاقتصاد السياسي» ــ برلين ١٨٥٩ ٠

« وفي الانتاج الاجتماعي لحياتهم يدخل الناس حتما في علاقات محددة ، مستقلة عن ارادتهم ، علاقات انتاج تتفق مع مرحلة معينة من تطور قوى انتاجهم المادية ٠ ويشكل مجموع علاقات الانتاج هذه التركيب الاقتصادي للمجتمع ، الاساس الواقعي الذي يقوم عليه تركيب علوي قانوني وسياسي ، والذي يتمشى مع أشكال محددة للوعي الاجتماعي ٠ ويحكم أسلوب انتاج ظروف الحياة المادية العملية العامة للحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية ٠ فليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم ، بالعكس ان وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم » ٠

ولكن ماذا تعني **علاقات الانتاج**؟ انها ما يسمى باللغة القانونية علاقات الملكية التي تحدث عنها جيزو وهيغل ٠ وهكذا فان نظرية ماركس بتفسيرها منشأ هذه العلاقات تجيب على السؤال الذي عجز عن الاجابة عليه ممثلو العلم والفلسفة قبله ٠

فالانسان ، مع كل «**آرائه**» و «**تربيته**» ــ نتاج لبيئته الاجتماعية كما كان **الماديون الفرنسيون في القرن الثامن عشر** يعرفون جيدا وان كان هذا كثيرا ما غاب عن بصرهم ٠ والتطور التاريخي «للرأي العام» ــ شأنه شأن تاريخ البشرية بأسره ــ **عملية يحكمها القانون**

كما قرر **المثاليون الالمان** في القرن التاسع عشر · غير أن هذه العملية لا تتحدد بصفات «**روح العالم**» كما ظن هؤلاء المثاليون ، وانما **بالظروف الفعلية لوجود الانسان** ، وجذور «**الحكومة**» التي تحدث عنها الفلاسفةكثيرا تكمنفيما أسماهجيزو باختصار **المجتمع**وما أسماه هيغل **المجتمع المدني** · لكن تطور المجتمع المدني **يحدده تطور القوى الانتاجية الموجودة تحت تصرف الناس** · والحق ان فهم ماركس للتاريخ ـ الذي يراه الجهلة **ضيق الافق وأحادي الجانب** ـ هو الحصيلة المشروعة لقرون من تطور الافكار التاريخية ، انها تحويها جميعا بقدر ما فيها من قيمة حقيقية ، وتقيمها على أسس أكثر ثباتا من تلك التي وقفت عليها طيلة أية فترة من فترات ازدهارها ، وهذا هو السبب في أنها ـاذا استخدمنا تعبيرا سبق لنا اقتباسه عن هيغل ـ **أكثر تطورا وغنى وتعينا** ·

وكان فلاسفة القرن الثامن عشر يرجعون على الدوام الى **الطبيعة الانسانية** ، التي كان عليها أن تفسر تاريخ البشرية ، وتحدد الصفات التي ينبغي أن تتوفر «**للتشريع الكامل**» · وكانت تلك هي الفكرة الكامنة خلف كل الايتوبيات : فقد كان الطوباويون ينطلقون دائما ـ في تصورهم المثالي **للمجتمع الكامل** ـ من حجج تتصل بالطبيعة الانسانية · كما أن «**الغزو**» عند اوجوستين تييري وجيزو يعود بنا الى الطبيعة الانسانية ، أي «**طبيعة**» الغازي المتصورة بقدر أو آخر من المهارة ، والتحكمية الى هذا الحد او ذاك (٣٤) · ولكن

(٣٤) كثيرا ما يشير جيزو بشكل مباشر ـ في كتابه السابق «ابحاث في تاريخ انجلترا» ـ الى «**حاجات الطبيعة الانسانية**» · كما حاول تيير في الجزء الثاني من كتابه «عن الملكية» أن يثبت أن «··· ملاحظة الطبيعة الانسانية هي المنهج الحق الذي ينبغي أن يتبع لايضاح حقوق الانسان في المجتمع » · وما كان احد من «فلاسفة» القرن الثامن عشر ليثير أدنى اعتراض على مثل هذا «المنهج» · بل ان الشيوعيين والاشتراكيين الطوباويين الذين كان تيير يعارضهم ما كانوا ليقولون بدورهم شيئا ضد هذا المنهج ، فقد كانت حججهم عن التنظيمالاجتماعي تستند دائما الى فهم أو آخر للطبيعة الانسانية · وفي هذا الصدد لم تكن وجهة نظر الطوباويين تختلف في شيء عن وجهة نظر خصومهم· وغني عن البيان أن هذا لم يمنعهم بأي حال من «استخلاص» حقوق للانسان تختلف عن تلك التي «استخلصها» تيير على سبيل المثال ·

اذا كانت **الطبيعة الانسانية** شيئا **ثابتا** فان من الحماقة الواضحة أن نسعى بمعونتها الى تفسير **مصائر البشرية** وهي أمـــــر **متغير** في جوهره : واذا كانت الطبيعة الانسانية متغيرة فان على المرء أن يسأل نفسه السؤال التالي : **لماذا** يحدث هذا التغير ؟ لقد اعترف المثاليون الالمان ـ اساتذة المنطق ـ بأن الطبيعة الانسانية خيـال غير موفق ، وحاولوا أن يجدوا دافع التطور التاريخي **خارج الانسان** ، الذي كان في رأيهم انما يطيع الدفعات التي لا تقاوم لهذا الدافع ، غير أن هذه القوة المحركة كانت بالنسبة لهم هي **روح العالم** أي **جانب من جوانب الطبيعة الانسانية مر بمصفاة التجريد** • وقد وضعت نظرية ماركس حدا لكل أمثال هذه الخيالات والاخطاء والتناقضات • **فالانسان يغير طبيعته هو خـــلال تأثير عمله على الطبيعة التي توجـــد خارجه** • وبالتالي فان للطبيعة الانسانية بدورها تاريخها : وكيما نفهم هــــذا التاريخ علينا **أن نفهم كيف** يجري تأثير الانسان على **الطبيعة ، التي توجد خارجه** •

لقد قام **هلفيسيوس** بمحاولة لتفسير تطور المجتمعات الانسانية استنادا الى **حاجات الانسان الفيزيائية** ، وكان مقيضا لهذه المحاولة أن تبوء بالفشل لان ما كان ينبغي أن يدرس ــ على وجه الدقة ــ لـم يكن حاجات الناس وانما **الطرق** التي يمكن اشباعها بها •

فللحيوان احتياجات فيزيائية كالانسان • غير أن الحيوانات لا **تنتج** شيئا، وانما هي فحسب **تستولي** على اشياء تترك انتاجها ــ اذا جاز التعبير ــ للطبيعة • وللاستيلاء على هذه الاشياء تستخــــدم **اعضائها** ــ الانياب واللسان والاطراف وما الى ذلك • وهـــذا هو السبب في أن **تكيـــف** الحيوان مع بيئته الطبيعية يتم خـــلال تحول اعضائه ، خلال تغيرات في **بنيته التشريحية**• لكن الامور ليست بهذه السهولة بالنسبة للحيوان الذي يسمي نفسه باعتزاز الانسان العاقل•

« انه يواجه الطبيعة كواحد من قواها ، وهو يحرك ذراعيه وقدميه ورأسه ويديه ، القوى الطبيعية لجسده ، كيما **يمتلك منتجات الطبيعة في هيئة تتوافق مع حاجاته** » •

انه **ينتج** ، وهو يستخدم **الادوات** في عملية الانتاج :

« واذا نحينا من اعتبارنا وسائل المعيشة الجاهزة كالفاكهة التي

يستخدم الانسان في جمعها اطرافه كأدوات للعمل، فان اول ما يستحوذ عليه العامل ليس موضوع العمل وانما أداته ، وهكذا تصبح الطبيعة عضوا من اعضاء نشاطه ، عضوا يلحقه باعضائه الجسدية بحيث أن جسده يمتد رغم ما يقوله الكتاب المقدس » (٣٥) ٠

وبهذا المعنى يختلف صراعه من أجل الوجود اختلافا أساسيا عن صراع الحيوانات الاخرى: ان الحيوان صانع الادوات يتكيف مع بيئته الطبيعية بتغيير **اعضائه الصناعية** ، وبالمقارنة بهذه التغييرات **فقدت التغييرات في بنيته التشريحية كل دلالة** ٠ وهكذا يقول داروين انالاوروبيين الذين استقروا في امريكا سرعان ما يمرون بتغييرات فيزيائية ، غير أن هذه التغييرات ــ في رأي داروين نفسه ــ «**عديمة الشأن للغاية**» ، انها شيء **يمكن اهماله** بالمقارنة بالتغيرات التي لا تحصى في **الاعضاء الصناعية** للامريكيين ٠ وهكذا فحالما يصبح الانسان حيوانا صانعا للادوات يدخل مرحلة جديدة من تطوره : ان تطوره **الحيواني** zoological ينتهي ويبدأ طريق حياته **التاريخية** ٠

ويعارض داروين الرأي القائل أنه لا يوجد حيوان يصنع أدوات، ويورد كثيرا من الامثلة لاثبات العكس، فالشمبانزي يستخدم حجرا لكسر الجوزة البرية ذات القشرة الصلبة ، وفي الهند تنتزع الافيال المدربة الأغصان من الاشجار وتستخدمها لتهش الذباب ٠ وقد يكون هذا كله صحيحا ، غير أن علينا ألا ننسى في المقام الاول أن **التغيرات الكمية** تتحول الى تمايزات **كيفية**، فنحن لا نجد استخدام الادوات عند الحيوانات الا في **حالة جنينية** ، وتأثيره على أسلوب حياة الحيوانات **ضئيل للغاية** ، وبالعكس يمارس استخدام الادوات تأثيرا **حاسما** على اسلوب حياة الانسان ٠ وبهذا المعنى يقول ماركس :

« ان استخدام وصناعة الادوات ، وان وجدت بذرته لدى بعض أنواع الحيوانات خاصية نوعية لعملية العمل الانساني » (٣٦) ٠

---

(٣٥) «رأس المال» ــ المجلد الاول ــ الطبعة الثالثة ــ ص ١٥٧ ٠

(٣٦) المصدر السابق ــ ص ١٥٨ ٠

ومن الجلي بذاته أن الانسان لا يستخدم فقط وسائل العمل الميكانيكية ، لكن ماركس اعتبر هذه الاخيرة الاكثر تمييزا له : انها تشكل ما أسماه «**عظام وعضلات بنية الانتاج**» • ولاثارها في تقييم **نظم الاقتصاد الاجتماعي البائدة** ـ نفس الدلالة التي للعظام في دراسة أنواع الحيوانات البائدة •

«فما يميز عصرا اقتصاديا عن آخر ليس هو الاشياء المصنوعة بقدر ما هو كيف تصنع وبأية أدوات » (٣٧) •

وقبل ماركس لم يكن المؤرخون و «علماء الاجتماع» ـ المليئون بالتحيزات المثالية ـ ليدور بخلدهم مدى أهمية هذه **الحفريات التقنية** كوسيلة لاهم الاكتشافات •

« لقد لفت داروين الانتباه الى تاريخ تكنولوجيا الطبيعة أي الى تشكل اعضاء النباتات والحيوانات ، هذه الاعضاء التي تستخدم كأدوات انتاج للابقاء على الحياة• أفلا يستحق تاريخ اعضاء الانسان الانتاجية ، الاعضاء التي هي الاساس المادي لكل تنظيم اجتماعي اهتماما مماثلا ؟ أو ليس مثل هذا التاريخ أسهل في جمعه حيث أن التاريخ الانساني يختلف عن التاريخ الطبيعي ـ كما قال فيكو ـ في أننا صنعنا الاول ولم نصنع الثاني » (٣٨) •

ويتحدث مؤرخو الحضارة المعاصرون بيسر عن **العصر الحجري والبرونزي والحديدي** ، وهو تقسيم لعصور ما قبل التاريخ يستند الى المواد الاساسية المستخدمة في انتاج الاسلحة والاواني • وتقسم هذه العصور الى فترات مختلفة مثل فترة الشظايا الحجرية وفترة الحجر المصقول• ومن ثم فان المؤرخين لا يغلقون أعينهم تماما عن الحفريات التقنية ، لكنهم للاسف يقتصرون في هذا المجال على ملاحظات عامة لا يمكن أن تقود الا الى بضع أقوال مبتذلة • وهم لا ينسحبون الى هذا المجال الا لافتقارهم الى شيء افضل ، ويهجرونه حالما يكتشفون في التاريخ ـ بالمعنى الصحيح للكلمة ـ وقائع أخرى

---

(٣٧) المصدر السابق ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ ـ الهامش •

(٣٨) المصدر السابق ص ١٥٨ •

تبدو أكثر جدارة بالانسان وذهنه • وهم في هذا الصدد يحذون في الاساس حذو القرن الثامن عشر ، ويسلكون المسلك الذي اتبعه كوندورسيه منذ مائة عام •

فكتاب كوندورسيه الشهير «مجمل لوحة تاريخية لتقدم الذهن الانساني» يبدأ بوصف تطور قوى الانسان البدائي الانتاجية من «الفنون» البدائية للغاية حتى بدايات الزراعة • ويمضي كوندورسيه الى حد القول بأن :

« فن صناعة الاسلحة ، وطهي الطعام ، والحصول على الاواني اللازمة لهذا الطهي ، والمحافظة على الطعام المطهي لفترة من الزمن تحوطا للفصول التي يستحيل فيها الحصول على طعام طازج ••• كان أول سمة تميز المجتمع الانساني عن مجتمعات سائر انواع الحيوانات»•

وفي الوقت نفسه كان كوندورسيه يدرك تماما أن «فنا» هاما كالزراعة كان من شأنه أن يكون ذا تأثير واسع على **بنية المجتمع** • غير أن «عصره الثالث» لتاريخ البشرية يشمل «**تقدم الشعوب الزراعية حتى اختراع الكتابة بالحروف**» ،والعصر الرابع هو عصر تقدم الروح الانساني في اليونان حتى **تقسيم العلوم** في ايام الاسكندر، أما العصر الخامس فيتسم **بتقدم العلوم** وهلم جرا • ودون وعي تماما يغير كوندورسيه مبدأ تقسيمه، مبينا على الفور أنه انما تحدث أولا عن تطور القوى الانتاجية لانه لم يكن امامه خيار آخر • وبنفس الطريقة بالدقة يتضح أنه لم يكن يرى في «التقدم» المتحقق في مجال الانتاج وحياة الناس المادية بشكل عام الا **مقياسا** لتقدم الروح، الذي يدينون له بكل شيء ، دون أن يستطيعوا أبدا سداد دينهم هذا •

فلدى كوندورسيه كانت وسائل الانتاج نتيجة، وقدرات الانسان الروحية ، روحه ، **سببا** ولما كان كميتافيزيقي عاجزا عن أن يرى الجدلية الجوهرية في أي عملية في الطبيعة أو في المجتمع ، ووفقا لها لا يكون أي **سبب سببا** الا بعد أن كان نتيجة ، وتصبح أية **نتيجة** بدورها **سببا** ، ولما لم يكن قد لاحظ وجود مثل هذه الجدلية الا حين تتجلى في الشكل الخاص **للفعل المتبادل** ، فقد كان طبيعيا منه أن يفضل الامساك بالثور من قرنيه ، وأن يتوجه دائما ـ بقدر ما يستطيع ولا يكون مجبرا على أن يتصرف بطريقة أخرى ـ الى السبب• فالروح الانساني عنده هو المحرك الاول للتطور التاريخي ، ولهذا

الروح عزا كوندورسيه ـ شأن كل «**الفلاسفة**» ـ ميلا «طبيعيا» الى **التقدم** . وقد كانت هذه بالطبع وجهة نظر بالغة السطحية، لكننا منصفين ونسأل : هل ابتعد مؤرخو الحضارة المعاصرون كثيرا عن وجهة نظر كوندورسيه (٣٩) ؟

ومن الواضح كضوء النهار أن استخدام الادوات ـ مهما كان غير كامل ـ يفترض التطور الهائل نسبيا للملكات الفكرية . فقد مر زمان طويل قبل أن يصل اسلافنا من اشباه الانسان الى هذه الدرجة من تطور **الروح**» . فكيف بلغوها ؟ علينا أن نوجه هذا السؤال لا الى علم التاريخ بل الى علم **الحيوان** . وبالنسبة لهذا الاخير قدم داروين الاجابة ، حيث أوضح على الاقل كيف **أمكن** لتطور الانسان الحيواني أن يصل الى النقطة التي تهمنا . صحيح أن «روح» أشباه الانسان قد لعبت دورا سلبيا الى حد كبير في فرضية داروين ، لان هذه الفرضية لا تتناول اتجاهها الطبيعي المزعوم نحو التقدم ، من حيث أن هذا الاخير يجري خلال سياق من الظروف ليست ذات طبيعة سامية للغاية . وهكذا فعند داروين : « لم يكن بوسع الانسان أن يبلغ مركزه السائد الحالي في العالم دون استخدام يديه ، اللذين يتكيفان بشكل رائع ليعملا طوع ارادته » (٤٠) . وكان هلفيسيوس

(٣٩) وبالمناسبة لم يتخلف الاقتصاديون كثيرا وراء مؤرخي الحضارة فى هذا الصدد . ويعطينا مثالا على ذلك ما يقوله ميشيل شيفالييه عن التقدم المتحقق في انتاجية العمل : « تتطور قوى الانسان الانتاجية على الدوام في تتابع عصور المدنية . وهذا التطور واحد من الاشكال الكثيرة بالغة الجاذبية التي يتخذها تطور المجتمع ذاته » (المعرض العالمى عام ١٨٧٦ « تقرير هيئة المحلفين الدولية » ـ مقدمة ميشيل شيفالييه ص ٢٩) وهكذا فان **التقدم** هو الذي يأخذ البشرية الى الامام ، وهو كيان ميتافيزيقي يتخذ بين اشكاله الكثيرة كذلك شكل تطور القوى الانتاجية . وتلك هي نفس القصة القديمة عن التجسد المثالي لموضوعات الفكر ، لمنتجات التجريد ، نفس القصة القديمة عن الظلال التي تلقيها الاجسام ، والتي يطلب منها أن تفسر لنا سر حركة هذه الاخيرة .

(٤٠) «انحدار الانسان» ـ الجزء الاول ـ الفصل الثاني . (٢) ويا للقول البشع ـ المترجم .

قد أكد هذا من قبل ، فقد اعتبر تطور الاطراف horribile dicta (٢) سبب تطور المخ ، والاسوأ من هذا ان تطور الاطراف لم تسببه روح اشباه الانسان وانما تأثير البيئة الطبيعية ٠

وأيا كان الامر فان علم الحيوان يسلم الانسان للتاريخ وهو يمتلك بالفعل الملكات اللازمة لاختراع اكثر الادوات بدائية واستخدامها ، وهذا هو السبب في أن كل ما على التاريخ هو أن يتتبع تطور الاعضاء الصناعية ، ويوضح تأثيرها على تطور الروح، كما فعل علم الحيوان بالنسبة **للاعضاء الطبيعية** ٠ ولما كان هذا التطور الاخير قد جرى تحت تأثير البيئة الطبيعية فان من السهل أن نفهم أن الامر كذلك بالنسبة **للاعضاء الصناعية** ٠

فسكان بلد لا توجد فيه معادن لا يمكن ان يخترعوا معدات أفضل من الادوات الحجرية ، وكيما يستطيع الانسان أن يؤنس الخيول والابقار والاغنام وغيرها من الحيوانات ـ التي لعبت دورا هاما في تطور قواه الانتاجية ـ كان عليه أن يعيش في أرض توجد فيها هذه الحيوانات ـ أو بالاحرى أسلافها الحيوانيون ـ في حالة متوحشة ، ولم ينشأ فن الملاحة بالطبع في سهوب **الاستبس** وهلمجرا ٠ وبالتالي فان البيئة الطبيعية ، **البيئة الجغرافية** ، **فقرها** أو **ثروتها** ، قد مارست تأثيرا لا نزاع فيه على تطور الصناعة ، بل اكثر من هذا لعب طابع البيئة الجغرافية دورا آخر أكثر بروزا في تاريخ الحضارة ٠ يقول ماركس :

« ليست مجرد خصوبة التربة وانما التمايز في الارض ، وتنوع منتجاتها الطبيعية، وتغيرات المواسم، هي التي تشكل الاساس الفيزيائي للتقسيم الاجتماعي للعمل ، والتي تحفز الانسان ـ بالتغيرات في البيئة الطبيعية ـ الى مضاعفة حاجاته ، وقدراته ، ووسائل عمله وأسلوبه ، ان ضرورة اخضاع قوة طبيعية ما لسيطرة المجتمع وتوفيرها أو تملكها أو اخضاعها على نطاق واسع بعمل يد الانسان هي التي تلعب أولا الدور الحاسم في الصناعة ، والامثلة على ذلك هي شبكات الري في مصر أو لامبوردي أو هولندا أو الهند وفارس حيث لم يكن الري عن طريق القنوات الصناعية يزود التربة بالمياه اللازمة فقط بل

يحمل اليها مخصبات معدنية في شكل غرين من التلال » (٤١)

وهكذا حصل الانسان من بيئته الطبيعية على المادة اللازمة لاعضائه الصناعية التي شن بمساعدتها صراعا ضد الطبيعة ٠ ان نوع البيئة الذي يحيط به يحدد طابع نشاطه الانتاجي ، **وسائل انتاجه ، لكن وسائل الانتاج تحدد بنفس الحتمية العلاقات المتبادلة بين الناس في عملية الانتاج** ، تماما كما تحدد أسلحة جيش ما كل تنظيمه وكل العلاقات المتبادلة بين الافراد الذين يؤلفونه ٠ لكن العلاقات بين الناس في عملية الانتاج الاجتماعية تحدد كل بنية المجتمع ٠ وبالتالي فان التأثير الذي تمارسه البيئة الطبيعية علىهذه العلاقات أمر لا نزاع فيه : **فطابع البيئة الطبيعية يحدد طابع البيئة الاجتماعية ٠ مثال توضيحي :**

« ان ضرورة التنبؤ بفيضان النيل وانخفاضه خلقت الفلك المصري ومعه سيطرة الكهنة كمديرين للزراعة » (٤٢)

لكن هذا ليس سوى جانب واحد من المسألة ، ولا بد كيما نتجنب الوصول الى استنتاجات خاطئة أن نأخذ في اعتبارنا في نفس الوقت جانبا آخر ٠

فعلاقات الانتاج نتيجة ، والقوى الانتاجية **سبب** ، غير أن النتيجة بدورها تتحول الى سبب ، وتصبح علاقات الانتاج مصدرا جديدا لتطور القوى الانتاجية ، ويؤدي هذا الى نتيجة مزدوجة ٠

---

(٤١) « رأس المال » ـ ص ٥٢٥ ـ ٥٢٦ ٠ « وبالتالي ففي حين أن الارض في المنطقة الاستوائية ذات ثروة طبيعية فان الارض في المنطقة المعتدلة اكثر مواتاة لتطور الانسان » («الجغرافيا الفيزيائية المقارنة في علاقتها بتاريخ الانسانية» بقلم ارنولد جويو ـ الطبعة الجديدة ـ باريس ١٨٨٨ ـ ص ١٠٦) ٠

(٤٢) «رأس المال» ـ المجلد الاول ـ ص ٥٢٥ ٠ وفي آسيا ـ كما في مصر ـ «تطورت المدنية في السهول ذات التربة الغرينية التي تسهل زراعتها ٠٠٠ كما مالت بالمثل الى التطور على ضفاف الانهار الكبيرة» (جويو ـ المصدر السابق ص ٢٧٧ وانظر متشنيكوف « المدنية والانهار الكبرى التاريخية » ـ باريس ـ ١٨٨٩) ٠

١) أن التفاعل بين علاقات الانتاج والقوى الانتاجية هو سبب **الحركة الاجتماعية** ، ولهذه الحركة منطقها وقوانينها المستقلة عن البيئة الطبيعية ·

وعلى سبيل المثال : ان الملكية الخاصة في مرحلة تطورها الاولى هي دائما نتيجة عمل المالك نفسه ، كما يمكن أن نرى في الريف الروسي · ولكن يأتي بالضرورة وقت تكتسب فيه الملكية الخاصة طابعاً مضادا لما كان لها من قبل : انها تفترض عمل شخص آخر ، وتصبح ملكية خاصة **رأسمالية** كما يمكن انيلاحظ ايضا يوميا في الريف الروسي · وهذه الظاهرة نتيجة للقوانين الداخلية في تطور الملكية الخاصة · وكل ما تستطيع **البيئة الطبيعية** أن تحدثه في هذه الحالة هو **الاسراع** بهذا التطور،**بتشجيع تطور القوى الانتاجية** ·

٢) لما كان للتطور الاجتماعي منطقه الخاص ، المستقل عن أي نوع من التأثير المباشر من جانب البيئة الطبيعية ، فقد يحدث أن يكون لنفس الشعب في مختلف فترات تاريخه ــ ورغم أنه يعيش في نفس البلد ويحتفظ بسماته الفيزيائية دون تغيير تقريبا ــ مؤسسات اجتماعية وسياسية لا تشبهبعضها البعض بل وقد تكون نقيضبعضها البعض · وقد حاول البعض أن يستخلص من ذلك أن البيئةالجغرافية لا تمارس أي تأثير على تاريخ البشرية · غير أن هذا الاستخلاص خاطيء تماما(٤٣)· ان من كانوا يقطنون انجلترا في عصر **يوليوس قيصر** قد تعرضوا لنفس تأثير البيئة الجغرافية الذي تعرض له الانجليز في عصر **كرومويل** ، غير أنه كانت لدى معاصري كرومويل قوى انتاجية تفوق كثيرا ما كان لدى السكان ايام قيصر ، ومارست البيئة الجغرافية عليهم تأثيرا مختلفا اذ أنهم أنفسهم كانوا يمارسون تأثيرا مختلفا تماما على البيئة الطبيعية · وكانت القوى الانتاجية في انجلترا في القرن السابع عشر حصيلة تاريخها ، غير أن البيئة الجغرافية لم تكف طيلة هذا التاريخ عن **ممارسة تأثير ما ــ وان يكن**

(٤٣) رفض **فولتير** بشكل سطحي تأثير البيئة الجغرافية على المجتمعات الانسانية كما عرضه **مونتسكيو** · وقد رأينا أن **هولباخ** ــ الذي وقع في احبولة التناقضات النابعة من منهجه الميتافيزيقي ــ كان يقبل هذا التأثير أحيانا وينكره أحيانا أخرى · وبشكل عام فان البلبلة التي احدثها الميتافيزيقيون من كل الألوان في هذه المسألة هي بلا شك من أوضح الامثلة على تهافت هذا المنهج ·

بطرق مختلفة دائما ـ على تطور البلاد الاقتصادي ٠

والعلاقة المتبادلة بين الانسان الاجتماعي والبيئة الجغرافية **تخضع للتغير الى حد كبير** ٠ فهي تتأثر بكل خطوة جديدة في تطور قوى الانسان الانتاجية ٠ وبالتالي فان تأثير البيئة الجغرافية على الانسان الاجتماعي يؤدي الى **نتائج مختلفة من مختلف مراحل تطور هذه القوى** ٠ غير انه مامن شيء **صدفي** في العلاقة المتبادلة بين الانسان وبيئته : فهذه العلاقات تشكل في تسلسلها **نموذجا يحكمه قانون**٠ وعلى المرء كيما يفهم هذه العملية ألا ينسى أن البيئة الطبيعية **تصبح عاملا هاما في تطور البشرية التاريخي لا نتيجة لتأثيرها على الطبيعة الانسانية وانما بسبب تأثيرها على تطور القوى الانتاجية ٠**

«ان درجة حرارة هذه الارض (الاشارة هنا الى درجة حرارة منطقة آسيا ـ ج٠ ب٠) خلال مختلف فصول السنة ، والتي لا تكشف عن أي تنوعات مفرطة ، تقترب في الاغلب من درجة حرارة الربيع ٠ لكن من المستحيل على الناس في مثل هذه البلاد أن يكونوا شجعانا أقوياء ، وأن يتحملوا العمل والارهاق ٠٠٠

« واذا كان الآسيويون خجولين ، غير شجعان ، وأقل قدرة على الحرب وألطف مزاجا من الاوروبيين فينبغي أيضا البحث عن السبب الرئيسي لذلك في طبيعة الفصول ، فالاولون لا يتعرضون لاية تغييرات كبيرة، انهم يتشابهون الى حد كبير، وينتقلون من الحرارة الى البرودة بطريقة غير محسوسة ٠ وفي مثل درجة الحرارة هذه لا تتعرض الروح للتأثيرات القوية، ولا الجسد للتغيرات العنيفة التي تطبع الانسان عادة بطابع اكثر خشونة وصلابة ونشاطا مما لو كان يعيش في درجة حرارة مستوية دائما ، لان التغير السريع من طرف الى آخر هو الذي يثير روح الانسان ، وينتزعها من حالة الرضا والخمول » ٠

كتبت هذه السطور منذ عهد بعيد جدا ، فقد كتبها ابوقراط (٤٤)، لكن هناك عددا كبيرا من الكتاب حتى في يومنا هذا لم يخطوا الى الامام في تقييمهم لتأثير البيئة الجغرافية على البشرية : ان البيئة هي التي تحدد العنصر والاخلاق والعلم والفلسفة والدين ، وكنتيجة

---

(٤٤) «عن الهواء والماء والاماكن» ـ ترجمة دي كوراي الى جانب النص الاصلي ـ باريس ـ ١٨٠٠ ـ ص ٧٦ و ٨٥ ٠

حتمية المؤسسات الاجتماعية والسياسية (٤٥) ·
وقد يبدو هذا أشبه بالحقيقة ، لكنه في الواقع في نفس سطحية كل المحاولات الاخرى لتفسير التطور الاجتماعي بواسطة مفهوم ما عن **الطبيعة الانسانية** ·

فتأثير المناخ والتربة على الانسان ـ كما اوضح باكل بشكل رائع ـ تأثير غير مباشر ·

« ··· لقد ··· أحدثا أهم النتائج بالنسبة لتنظيمات المجتمع العامة ، ونشأت عنهما كثير من هذه الفوارق الكبيرة البارزة بين الامم التي كثيرا ما تعزى الى فارق أساسي بين مختلف العناصر التي تنقسم اليها البشرية » (٤٦) ·

---

(٤٥) وكما أن لشرق آسيا طبيعته الفيزيائية المميزة فان له ايضا عنصره المميز ـ المغول ··· « ويبدو هذا العنصر في الاساس ذا مزاج سوداوي ، فقدراته الفكرية المحدودة تمارس على التفصيلات ، ولا ترتفع أبدا الى الافكار العامة أو التأملات العميقة في مجال العلوم الطبيعية أو الفلسفة · فالمغولي الماهر المبتكر الخارق في الفنون العملية التي تخلق رفاهية الحياة اليومية عاجز تماما عن تعميم تطبيقها · وعالم الافكار العظيمة والرؤى السامية مغلق أمامه هو المستغرق في الامور الارضية · وتنتهي كل فلسفته ودينه الى قواعد للاخلاق الاجتماعية ، ليست سوى تعبير عن مباديء التجربة المباشرة التي لا يمكن للمجتمع ان يوجد دونها » (آرنولد جويو ـ المصدر السابق ـ ص ٢٦٩) ·

(٤٦) «تاريخ المدنية في انجلترا» ليبزيغ (بروكهاوس) ١٨٦٥ ـ المجلد الاول ـ ص ٣٦ـ٣٧ · وبالمناسبة فان باكل لم يقل شيئا جديدا هنا ، كما في أي مكان آخر · فقبله بوقت طويل ـ وبصورة افضل مما فعل ـ استطاع هيغل المثالي المطلق أن يقيم تأثير الطبيعة على الانسان خلال القوى الانتاجية ، وبوجه خاص خلال التنظيم الاجتماعي (انظر على سبيل المثال «محاضرات في تاريخ الفلسفة» ـ نشرها جانز ص ٩٩ـ١٠٠) · فالقول بتأثير البيئة الاجتماعية على «الطبيعة الانسانية» أو على طبيعة العنصر ـ وهذا هو نفس الشيء ـ أمر لا أساس له الى حد أن اولئك الكتاب الذين اعترفوا بهذا التأثير قد اضطروا الى نبذ

وأبدى باكل تأييده لملاحظة قالها جون ستيوارت ميل وهي :

« وأكثر المحاولات ابتذالا للهروب من دراسة أثر التأثيرات الاجتماعية والاخلاقية على الذهن الانساني هي نسبة تنوع السلوك والشخصية الى اختلافات طبيعية كامنة » .

غير أن باكل هذا نفسه ـ وهو يتحدث عن تأثير الطبيعة على تطور البشرية التاريخي يرتكب نفس الاخطاء التي عابها على الاخرين بشدة وعن حق تماما .

« فالزلازل والاضطرابات البركانية اكثر حدوثا ودمارا في ايطاليا وشبه الجزيرة الاسبانية البرتغالية منها في أي بلد كبير آخر (في أوروبا ـ ج. ب.) وهناك بالتحديد تبلغ الخرافة ذروتها ، والطبقات الخرافية أكبر قوتها . وكانت تلك هي البلدان التي أرسى فيها الكهنة سلطتهم أولا ، والتي حدث فيها اكبر افساد للمسيحية ، واحتفظت الخرافة لاطول فترة بأقوى سيطرة لها » (٤٧) .

→

وجهة النظر هذه فيكلخطوة . وهذا على سبيل المثال ما اضافه جويو الى السطور التي اقتبسناها في الهامش السابق : «والبيئة الاساسية للعنصر المغولي هي هضبة آسيا الوسطى . وأسلوب حياة الرحل والشكل الابوي لهذه المجتمعات (التي شكلها المغول ـ ج. ب.) نتيجة ضرورية للطبيعة الجرداء العقيمة للمناطق التي يقيمون فيها » . وبالطريقة نفسها اعتبر ابوقراط أن افتقار المغول الى الشجاعة كان ـ جزئيا على الاقل ـ « نتيجة للقوانين التي يتبعونها » (المصدر السابق ص ٨٦) وهو يقول ان شكل الحكم لدى الشعوب الاسيوية هو الشكل الملكي ، لكن «الناس يكونون بالغي الجبن بالضرورة حين يحكمهم الملوك» (المصدر السابق ص ١١٧) . «ونجد براهين مقنعة على ما أقول في حقيقة أن كل الاغريق والبرابرة ـ في آسيا هذه نفسها ـ ممن تحكمهم قوانينهم هم ، دون خضوع لطغاة ، ومن ثم فانهم يعملون لانفسهم ـ هم أناس ذوو صفات حربية قوية» (المصدر السابق ـ ص ٨٨) . وليست هذه بعد كل الحقيقة لكننا رغم هذا نقترب منها .

(٤٧) المصدر السابق ص ١١٣ .

وهكذا ففي رأي باكل أن البيئة لا تؤثر فحسب على **حدة** مشاعر السكان الدينية بل كذلك على **الوضع الاجتماعي** للكهنة أي على كل البنية الاجتماعية للمجتمع · لكن هذا ليس كل شيء ·

« ومن الامور التي تلفت النظر أن كل الرسامين العظام ، وكل النحاتين العظام تقريبا ، في أوروبا الحديثة قد انتجتهم ايطاليا وشبه الجزيرة الاسبانية · وفيما يتعلق بالعلم فلا شك انه كان لدى ايطاليا عدد من الرجال ذوي القدرات البارزة لكن عددهم ضئيل للغاية اذ ما قورنوا بفنانيها وشعرائها » (٤٨) ·

وهكذا فان لسمات البلاد الفيزيائية الاهمية الحاسمة في تطور العلوم والفنون فيها · فهل قال واحد من اكثر انصار نظرية العناصر «المبتذلة» شيئا أكثر جسارة واضعف أساسا ؟

وما زال علينا بعد أن نكتب التاريخ العلمي لتطور البشرية الروحي، وعلينا في الوقت الحالي أن نقنع بافتراضات بارعة الى حد أو آخر · غير أن هناك أنواعا مختلفة من الافتراضات ، وافتراض باكل عن تأثير الطبيعة لا يصمد للاختبار ·

فالحق أن اليونان القديمة قد اشتهرت بمفكريها كما اشتهرت بفنانيها ، بيد أن الطبيعة في اليونان ليست أقل جلالا منها في ايطاليا وأسبانيا · وحتى اذا افترضنا أن تأثيرها على الخيال البشري كان أقوى في ايطاليا منه في وطن بيريكليز فيكفي أن نذكر أن «اليونان العظمى» كانت تضم جنوب ايطاليا والجزر المجاورة ، وهو ما لم يمنعها من «انتاج» كثير من المفكرين ·

وللفنون الجميلة في ايطاليا واسبانيا المعاصرتين ـ كما في كل مكان آخر ـ تاريخها · فقد ازدهر التصوير الايطالي خلال فترة بالغة القصر لا تزيد عن خمسين او ستين عاما (٤٩) · وفي اسبانيا

---

(٤٨) المصدر السابق ص ١١٤ ·

(٤٩) « وخلال هذين الحدين القصيرين ظهر فنانون بارزون من أمثال ليوناردو دافنشي ورافاييل ومايكل أنجلو وأندريا ديل شتارتو، وفوا بارتولوميو وجيورجيون وسباسيا نوديل بيومبو وكوريجيو · وكان هذان الحدان بالغي الضيق ، واذا أنت انطلقت

أيضا ازدهر التصوير لفترة قصيرة · ونحـن عاجزون عن أن نبين الاسباب التي جعلت التصوير الايطالي يزدهر خلال هذه الفترةبالدقة (من الربع الأخير للقرن الخامس عشر حتى الثلث الاول من القـرن السادس عشر) وليس في أي عصر آخر ، قبل خمسين عاما أو بعـد خمسين عاما مثلا، لكنا نعرف تماما أنه ليس للطبيعة في شبهالجزيرة الايطالية صلة بالامر ، فقد كانت في القرن الخامس عشر هي نفسها في القرن الثالث عشر او القرن السابع عشر · واذا كان الكم المتغير يتغير فليس السبب في هذا أن كما ثابتا يظل دون تغير ·

ونستطيع أن نعترض على ما يقوله باكل عن نفوذ الكهنة وقوتهم في ايطاليا بأن من الصعب أن نجد مثالا أكثر تناقضا في جوهره مع القضية التي يراد له أن يعززها · وفي المقام الاول لا يشبه دورالكهنة في ايطاليا الكاثوليكية بأي حال دور الكهان في روما **القديمة** ، رغم أن سمات البلاد الفيزيائية لم تمر بأية تغيرات ذات شأن فيمـا بين الفترتين · وفي المقام الثاني فان من الواضح ـ بحكم كون الكنيسـة الكاثوليكية هيئة دولية ـ أن البابا رأس «الطبقـة الخرافية» يدين بالقدر الاكبر من قوته في ايطاليا لاسبـاب لا يربطها شيء سواء بالسمات الفيزيائية للبلاد أو ببنيتها الاجتماعية هي (٥٠) · ولم يكن «الاب المقدس» ـ الذي كثيرا ما طرده سكان رومـا ـ قادرا على العودة الى المدينة الخالدة الا بفضل مساعدة الدول عبرجبال الالب· ورغم أن وضع روما المنفرد كموطن لرأس الكنيسة قد مارس تأثيرا قويا على دور الكهنة في كل ايطاليا فينبغي ألا نعتقد أن الكهنـة الايطاليين كانوا دائما أقوى من أقرانهم في البلدان الاوروبيةالاخرى، وعلى سبيل المثال في ألمانيا ، فسيكون هذا خط أبالغا (٥١) ·

منهما في أي الاتجاهين فستجد فنا غير كامل في أحدهما وفنا متدهورا في الاخر» (هيبوليت تين «فلسفة الفن» ـ الطبعة الخامسة ـ المجلد الاول ـ باريس ١٨٩٣ ـ ص ١٢٦) ·

(٥٠) وفيما يتعلق بالاسباب الاجتماعية التي انتجت هـذا التنظيم الدولي للكهنة أنظر الجزء الاول من الكتاب الرائع الذي وضعه كارل كاوتسكي « توماس مور وايتوبياه » ·

(٥١) كان القديس برنار هو الذي نصح البابا ايوجين الثالث بـأن يهجر روما ويستبدل بها العالم بأسره (urbem pro orbe mutatam)

ولقد مال دارسو تاريخ الاديان ـ حتى أيامنا هذه ـ الى التعلق بالسمات العنصرية في كل مرة يصطدمون فيها بأية خاصية يصعب تحديد أصولها للمذهب الديني لبعض الشعوب · ورغم هذا فقد كان عليهم أن يعترفوا ـ فهـذا أمر واضح ـ بالتشابه الاولي لاديـان المتوحشين والبـرابرة الذين يقطنون مناطق تختلف تمامـا في طبيعتها (٥٢) · وبالطريقـة نفسها أجبروا على الاعتراف بالتأثير الهائل لاسلوب حياة أي شعب ووسائل انتاجه على طبيعة مذاهبـه الدينية (٥٣)· ولهذا فأن العلم لا يمكن الا أن يكسب بالتخلي عن كل

(٥٢) « نستطيع أن نورد شواهد عديدة على الاختـلافات التي لا تحصى والتي تخلقها البيئة والسمات العنصرية · غير انه لا يمكن أن نستخلص من ذلك فارقا مبدئيا · فدين الانسان غير المتمدين هو نفسه في كل مكان ، سواء تطور في اشكال بدائية حمقاء او كشف عن تطور شاعري جميل · فنحن نجد في كل مكان عبادة الطبيعة والايمانبروحية المادة والسحر والوثنية وقرابين الطعام وتوقع الحياة بعد المـوت (ونحن نقتبس عن كاتب مسيحي ـ ج· ب·) واستمرار اشكال وعلاقات الحياة الفعلية ، وتقديس الموتى ودفنهم بما يتفق مع هـذا الايمان » · (« أديان الشعوب غير المتمدينة » بقلم ا· ريفيـل ـ باريس ١٨٨٣ ـ المجلد الثاني ـ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢) ·

(٥٣) « ··· وفي أدنى درجـات السلم يوجد دين آكلي الجـذور الاستراليين الذين يمارسون الصيد لكنهم لا يكشفون عن مهارة فيه ، ودين البوشمان الذين يعيشون أساسا على النهب · والدين رقيق لدى الخوي ـ خوين والهوتنتوت والكافير الذين يعملون اساسا في الرعي لكنه دموي قاس لدى بعض قبائل الزنوج المحاربة ، في حين أن عبادة الاله لدى اولئك الزنوج الذين يعملون أساسا في الصناعة والتجـارة دون أن يهملوا تربية الماشية وفلاحة الارض اكثر انسانية وتمدنا،فروح التجارة عادة ما تتجلـى في بعض حيـل الروح · وتكشف اساطير البولينيزيين على الفور عن شعب من فالحي الارض وصيادي السمك··» (تييل « مبادئ تاريخ الاديان » ـ ترجمه عن الهولندية موريس فيرن ـ باريس ١٨٨٠ ـ ص ١٧ـ١٨) « وباختصار فلا نزاع في أن دائـرة الاعياد التي وضعها كـل من قانون يهوه وسـفر التثنية قد حددته

انواع التدليلات «الافتراضية» الغامضة عنصفات «الروح الانساني»، وبمحاولة تحديد الدور الذي تلعبه هذه البيئة في تطور القوى الانتاجية ، وخلال هذه القوى في كل التطور **الاجتماعي** و **الروحي** للشعوب ـ وباختصار تطورها **التاريخي** ٠

ولكن فلنمض الى أبعد من هذا :

« وفي مرحلة معينة من التطور ، تتنازع قوى الانتاج المادية مع علاقات الانتاج القائمة، أو مع علاقات الملكية ـ وليس هذا سوى تعبير قانوني عن نفس الشيء ـ التي كانت تعمل في اطارها حتى ذلك الحين٠ ومن اشكال لتطور القوى الانتاجية تتحول هذه العلاقات الى عوائق أمامها ٠ وحينئذ يبدأ عصر الثورة الاجتماعية ٠ وتؤدي التغيرات في الاساس الاقتصادي عاجلا أو آجلا الى تحول التركيب العلوي الهائل بأسره ٠ وينبغي عند دراسة هذه التحولات التمييز دائما بين التحول المادي للظروف الاقتصادية للانتاج ـ الذي يمكن أن يحدد بدقة العلم الطبيعي ـ وبين الاشكال القانونية والسياسية والدينية والجمالية والفلسفية ـ وباختصار الايديولوجية ـ التي يعي بها الناس النزاع ويقاتلون حتى حله ٠ وكما أن رأينا عن فرد ما لا يقوم على ما يعتقده عن نفسه فاننا لا نستطيع أن نحكم على فترة التحول هذه بوعيها هي ، بالعكس ان هذا الوعي ينبغي بالاحرى أن يفسر ابتداء من تناقضات الحياة المادية ، من النزاع القائم بين قوى الانتاج الاجتماعية وعلاقات الانتاج » (٥٤) ٠

ان كل ما هو محدود يلغي نفسه ، وينتقل الى نقيضه ٠ وسيرى القاريء أن هذا نفسه ينطبق ـ عند ماركس ـ على كل من المؤسسات الاجتماعية والسياسية ، فكل مؤسسة اجتماعية هي في المقام الاول «شكل لتطور» القوى الانتاجية ، انها ـ اذا جاز القول ـ أروع فترة

→

الزراعة ـ التي كانت أساسا لكل من الحياة والدين » (ج٠ ويلهاوزن «التضحيات والاعياد عند بني اسرائيل » ـ « مجلة تاريخ الاديان » ـ المجلد الثاني ـ ص ٤٣) ٠ ونستطيع أن نورد الكثير والكثير من الاقتباسات المماثلة ، كل منها اكثر دلالة من الاخر ٠

(٥٤) ومع اجراء التعديلات اللازمة ـ المترجم ٠

من حياتها ، ويرتبط الناس بها غريزيا ، ويعلنونها شيئا «**مقدسا**» أو «**طبيعيا**» ، لكن الشيخوخة تقترب بالتدريج ، ويدب الوهن ، ويبدأ الناس يلاحظون أنه ليس كل شيء في مؤسسة ما بالروعة التي كانوا يعتقدونها فيما سبق ، وينغمسون في صراع ضدها ، ويعلنون أنها «وليد شيطاني»، أو «مضاد للطبيعة»، وفي النهاية **يلغونها**. ويحدث هذا لان قوى المجتمع الانتاجية لم تعد على ما كانت عليه ، لانها خطت خطوة جديدة الى الامام ، ونتيجة لها حدثت تغيرات في العلاقات الانسانية وفي عملية الانتاج الاجتماعية. وتتحول التغيرات الكمية التدريجية الى تمايزات كيفية، وتتسم فترات مثل هذه التغيرات بالوثبات ، بالانقطاع في التدرج . وهذا هو الجدل الذي نعرفه عن هيغل، بيد أنه رغم ذلك ليس هو نفسه ، فهو في فلسفة ماركس يتحول الى الضد تماما مما كان عليه عند هيغل . فلجدل الحياة الاجتماعية عند هيغل ـ ككل جدل للمحدود عموما ـ سبب صوفي في النهاية هو طبيعة المحدود ، الروح المطلق . أما عند ماركس فانه يتوقف على اسباب واقعية تماما : تطور وسائل الانتاج المتاحة للمجتمع . mutatis mutandi (٢) فان داروين قد اتخذ نفس الموقف في تفسير **أصل الانواع**» . وتماما كما لم تعد هناك ضرورة منذ ايام داروين الى اللجوء الى الاتجاهات نحو «**التقدم**» كشيء «**فطري**» في الكائنات (والتي كان لامارك وايرازم وداروين يعتبرون وجودها ممكنا) لتفسير تطور الانواع ، لم تعد بنا حاجة اليوم للجوء ـ في مجال العلم الاجتماعي ـ الى «اتجاهات» صوفية في «الروح الانساني» كي نفهم «التقدم» . **فأسلوب حياة الناس يكفينا كي نجد تفسيرا لمشاعرهم وأفكارهم** .

كان فختة يشكو بمرارة من أنه «أيسر أن تدفع معظم الناس الى أن يعتبروا أنفسهم قطعا من اللافافي القمر من أن يروا ذواتهم» وأيسر على أي سوقي في يومنا أن يعترف بأنه «قطعة من اللافافي القمر» من أن يقبل نظرية تقول ان كل افكاره وآرائه وعاداته تدين بأصلها الى العلاقات الاقتصادية في أيامه . انه سيلجأ الى **الحرية** الانسانية **والعقل** وعدد آخر لا يحصى من الاشياء التي لا تقل روعة وشأنا . فالسوقيون الطيبون لا يدور بخلدهم على الاطلاق حين يمتلئون سخطا على ماركس أن هذا الرجل «ضيق الافق» كان هو الذي حل التناقضات التي تخبط فيها العلم قرننا بأسره على الاقل .

فلندرس مثالا . ما هو الادب ؟ يجيب السوقي الطيب بالطبع

الادب تعبير عن المجتمع • وهذا تعريف رائع لكن به نقيصة : انه من الغموض بحيث لا يقول شيئا • فالى أي حد يعبر الادب عن المجتمع ؟ ولما كان المجتمع ذاته يتطور فكيف ينعكس التطور الاجتماعي فــي الادب؟وأية اشكال ادبية تتفق مع كل مرحلة من مراحل تطور البشرية التاريخي ؟ ان هذه الاسئلة الحتمية والمشروعة تماما تظل مع ذلك دون اجابة في التعريف سالف الذكر • وفضلا عن ذلك فلما كــان الادب تعبيرا عن المجتمع فان من الواضح أن على المرء قبل انيتحدث عن تطور الادب أن يتمكن من فهم **قوانين التطور الاجتماعي، والقوى الخبيئة التي يعد هذا التطور نتيجة لها** • وسيرى القــاريء أنه ليس للتعريف السالف من قيمة الا أنه يواجهنا بمشكلة كان «الفلاسفة» في عصر فولتير ـ وكذلك مؤرخو القرن التاسع عشر وفلاسفته ـ قــد اقتربوا منها بالفعل وهي : **علام يعتمد التطورالاجتماعي في النهاية؟**

فقد كان القدماء يعرفون جيدا مثلا أن **البلاغة** تتوقف الى حد كبير على عادات المجتمع وبنيته السياسية (انظر « محاورة « عــن الخطابة» المنسوبة الى تاكيتوس) • وكان كتاب القرن الماضي أيضا يعرفون ذلك جيدا • وكما أوضحنا في بحثنا السابق، كثيرا ما توجه هلفيسيوس الى ظروف المجتمــع لتفسير **منشأ الاتجاهات في الذوق الجمالي**• وفي عام١٨٠٠ ظهر كتاب بقلم مدام دي‌ستايل ـ هولستاين بعنوان: «عن الادب منظورا اليه في علاقاته بالمؤسسات الاجتماعية»، واثناء فترة عودة الملكية وفي ظل حكــم لوريس فيليب أعلن فيليمين سان ـ بيف وكثير غيره للجميع أن **الثورات الادبية** لا تظهر الا نتيجة **للتطور الاجتماعي** • وفي الجانب الاخر من الراين كان لدى الفلاسفة العظام الذين اعتبروا **الادب** و **الفنون الجميلة** ـ ككــل شيء آخر ـ في **عملية صيرورة** أفكار راسخة ـ رغم كل مثاليتهم ـ عن العلاقــة بين أي فن والبيئة الاجتماعية التي تولد الفنان (٥٥) • وأخيــرا

---

(٥٥) من المناسب أن نستشهد هنا مثلا بما يقوله هيغل عن الرسم الهولندي: « وينبع الرضا عن أسلوب الحياة القائم ـ الذي يجد تعبيرا عنه حتى في الاشياء المألوفة الصغيرة ـ ينبع عند الهولنديين مــن اضطرارهم الى أن يحققوا بجهود فائقة ما تتلقاه الشعوب الاخرى من الطبيعة مباشرة ومجانا ••• ومن الناحية الاخــرى فانهم شعب من الصيادين والبحارة وسكان المدن والفلاحين ، ومن ثم فقد عرفوا منذ

ولتجنب الافراط في الامثلة سنكتفي بالاشارة الى أن هيبوليت تين ـ الناقد ومؤرخ الادب البارز ـ قد طرح القاعدة العامة التالية كمبدأ أساسي لجمالياته العلمية : « **ان التغيرات الكبرى التي تجري في العلاقات بين الناس تنتج بالتدريج تغيرات تتمشى معها في افكار الناس** » . وقد يظن البعض ان هذه العبارة تقدم حلا شاملا للمسألة، وتشير بوضوح الى الطريق نحو نظرية علمية للادب والفنون الجميلة . غير أن من الغريب تماما أننا نرى أن مؤرخي الادب المعاصرين ليست لديهم صورة عن تطور البشرية الروحي أوضح مما كان الحال منذ مائة عام مضت . فكيف يمكن أن نفسر هذا العقم الفلسفي المذهل لدى أناس لا يفتقرون لا الى **الحماس** ولا الى **الثقافة** بوجه خاص ؟

وليس المرء بحاجة الى أن يمضي بعيدا لاكتشاف السبب ، غير أن عليه أولا لفهم هذا السبب أن يحدد أين تكمن مزايا الجماليات العلمية المعاصرة ونواقصها .

ويقول تين :

« انها تختلف عن الجماليات القديمة في أن لها طبيعة تاريخية وليست دوغماطيقية ، أي في انها تقرر قوانين ، ولا تصدر تعليمات ».

وهذا شيء رائع . ولكن كيف يمكن لمثل هذه الجماليات أن ترشدنا في دراسة الادب ومختلف الفنون ؟ كيف تعمل في دراسة **القوانين** ؟ كيف تنظر الى العمل الفني ؟

وهنا نستشهد بالكاتب نفسه كي نستبعد أي سوء فهم ، وندعه يتحدث بالتفصيل .

بعد أن يقرر الكاتب أن **العمل الفني تحدده الحالة العامة للاذهان والاخلاق السائدة** ، ويستشهد بأمثلة تاريخية ، يمضي ليقول :

« في مختلف الحالات التي درسناها لاحظتم في المقام الاول **وضعا**

طفولتهم الاولى قيمة ما هو ضروري ومفيد في اكبر الاشياء واصغرها، وتمكنوا من تحقيقه بجهودهم الحارة الدؤوبة » الخ .. (« دروس في علم الجمال » ـ هـ. ج. هوشو ـ المجلد الثاني ص ٢٢٢ . وانظر أيضا المجلد الاول ص ٢١٧) .

عاما ، أي الوجود الكلي لخير معين وشر معين ، ظرفا من العبودية أو الحرية ، حالة من البؤس أو الثراء ، شكلا محددا للمجتمع ، نوعا محددا من الاديان ، ففي اليونان مدن حرة حربية مليئة بالعبيد ، وفي العصور الوسطى القهر والغزوات والنهب الاقطاعي والمسيحيةالمجيدة، وفي القرن السابع عشر حياة البلاط ، وفي القرن التاسع عشر الديمقراطية الصناعية العلمية ، وباختصار مجموعة من الظروف على الناس أن ينحنوا لها ويطيعوها ...

« ويطور هذا الوضع لديهم احتياجات تتمشى معه ، واستعدادات متميزة ، ومشاعر معينة ...

«وعندئذ فان هذه المجموعة من المشاعر والاحتياجات والاستعدادات ـ حين تتجلى بكليتها وجلائها في نفس الروح تنتج طرازا سائدا ، أي نموذجا يعجب به المعاصرون ويحبونه : ففي اليونان كان هذا النموذج هو الشاب الوسيم العاري نقي العنصر في كل تمارين بدنه ، وفي العصور الوسطى الراهب الذاهل والفارس العاشق، وفي القرن السابع عشر رجل البلاط الكامل ، وفي أيامنا فاوست اوفيرتر الحزين الذي لا يقنع .

« ولكن لما كان هذا الطراز هو الاكثر تشويقا ، والاكثر اهمية ، والاكثر بروزا ، بالمقارنة بكل الطرازات الاخرى فانه هو الذي يعرضه الفنانون على الجمهور ، مركزينه مرة في صورة واحدة حين يكون فنهم فن محاكاة ـ كما في الرسم او النحت أو الروايــة أو الملحمة أو المسرح ـ ومقسمينه مرة أخرى الى عناصره حين يثير فنهم ـ كما في العمارة والموسيقى ـ العواطف دون ان يخلق صورا . ومن هنا فاننا نستطيع ان نعبر عن كل عملهم قائلين انهم اما يصورون هذا الطراز السائد او يتوجهون اليه: يتوجهون اليه كما في سيمفونيات بيتهوفن أو لوحات نوافذ الكاتدرائيات ، ويصورونه كما في تماثيل النيوبيدين القديمة وفي أغاممنون وآخيل عند راسين. وينتج عن ذلك أن الفن كله يتوقف عليه ، لان الفن لا يسعى الا لان يروق له او يعبر عنه .

« وضع عام يولد ميولا وملكات متميزة ، وطراز سائد تخلقه قوة هذه الميول والملكات ، وأصوات وأشكال وألوان وكلمات تضفي الحياة على هذا الطراز ، أو تتفق مع الميول والملكات التي يتألف منها ـ تلك هي الحلقات الاربع في السلسلة ، والاولى تجلب في اثرها الثانية التي تجر الثالثة ، وهذه تجلب الرابعة ، بحيث أن أدنى تغيير في أية حلقة في السلسلة يؤدي الى تغير مماثل في الحلقات التي تليها ،

ويتيح هبوطا أو صعودا ـ خلال العقل الخالص ـ من الواحدة الى الاخرى . وفي حدود تقديري لا تترك هذه الصيغة شيئا خارج حدودها » (٥٦) .

والواقع أن هذه «الصيغة» لا تغطي كثيرا من الاشياء الهامة . ونستطيع أن نبدي ملاحظات مبنية على الحجج التي تصاحبها . وهكذا يستطيع المرء أن يقول عن حق أن العصور الوسطى لم يكن «**طرازها السائد**» رهبانا ذاهلين وفرسانا عاشقين (٥٧) فحسب . كما يمكن أن نؤكد ـ بقدر كبير من الثقة ـ أن فاوست وفيرتر ليسا وحدهما اللذان يلهمان الفنانين «في أيامنا» . ولكن أيا كان الامر فان من الواضح أن «صيغة» تين تتقدم بنا كثيرا في الطريق نحو فهم تاريخ الفن ، وتقول لنا أكثر كثيرا من التعريف الغامض « الادب تعبير عن المجتمع» . وقد حقق تين باستخدام هذه الصيغة اسهاما كبيرا في دراسة تاريخ الفنون الجميلة والادب . لكن المرء يتساءل وهو يقرأ كتاباته مثل «فلسفة الفن» الذي اقتبسنا عنه لتونا ، وبحثه عن راسين ، وكتابه «تاريخ الادب الانجليزي» : أهذا كله يكفي؟ وهو بالطبع لا يكفي ! فالكاتب رغم كل موهبته ، وكل مزايا منهجه التي لا نزاع فيها لا يعطينا الا **تخطيطا عاما** يفتقر الى الكثير حتى اذا نظرنا اليه كتخطيط عام . فكتابه «تاريخ الادب الانجليزي» أقرب الى أن يكون سلسلة من التشخيصات البارعة منه الى أن يكون تاريخا . وما يقوله لنا تين عن اليونان القديمة وايطاليا في عصر النهضة وهولندا، يعرفنا بالسمات الرئيسية لفن كل من هذه البلدان ، لكنه لا يفسر لنا شيئا عن أصولها التاريخية ، أو يفسره الى حد ضئيل للغاية . وينبغي أن نلاحظ في هذه الحالة أن القصور ليس في الكاتب وانما في فهمه لتاريخ الادب .

فبقدر ما نؤكد أن تاريخ الفن يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ البيئة

(٥٦) « فلسفة الفن » الطبعة العاشرة ـ باريس ـ ١٨٩٠ ـ المجلد الاول ـ ص ١١٦ و ١١٩ .

(٥٧) وحتى اذا لم نشر هنا الى الفن الشعبي وشعر الفلاحين فاننا نستطيع ان نقول ان محاربي العصور الوسطى لم يكونوا دائما «فرسانا عاشقين» . وهكذا لم يكن الفارس في اغنية رولاند الشهيرة «يعشق» سوى سيفه دوراندال .

الاجتماعية ، وبقدر ما نعلن أن أي تغير كبير في علاقات الناس يولد تغيرا مماثلا في افكارهم ، نعترف بأن من الضروري أن نحدد أولا قوانين تطور البيئة الاجتماعية ، وأن نكتسب فهما واضحا لاسباب التغيرات الكبيرة **في علاقات الناس** حتى نستطيع عندئذ أن نقرر قوانين تطور الفن بشكل صحيح • وباختصار فان «**الجماليات العلمية**» ينبغي أن تقوم على **فهم علمي لتاريخ المجتمعات** • فهل فعل تين ذلك بأية صورة مرضية ؟ كلا لم يفعل • انه ـ وهو **المادي** في حقل فلسفة الفن ـ **المثالي** في فهمه للتاريخ ، فهو يقول :

« وكما أن علم الفلك هو في النهاية مشكلة ميكانيكا ، وعلم الفسيولوجيا مشكلة كيمياء ، فان التاريخ هو في النهاية مشكلة سيكولوجيا » (٥٨) •

وهو ينظر الى البيئة الاجتماعية التي يرجع اليها دائما كنتاج للروح الانساني • وبالتالي فاننا نجد لديه نفس التناقض الذيوجدناه عند ماديي القرن الثامن عشر الفرنسيين:أفكار الانسان تدين بأصلها الى ظروف الانسان ، وظروف الانسان تدين بأصلها في النهاية الى افكار الانسان • وعند هذه النقطة نسأل القاريء : أيمكن للمرء أن يستخدم المنهج **التاريخي** في الجماليات اذا كان لديه مثل هذا الفهم المشوش المتناقض عن التاريخ عموما ؟ كلا بالطبع • فقد يتمتع المرء بقدرات هائلة ورغم ذلك يعجز عن أداء مهمة أخذها على عاتقه ، اذا ما قنع بجماليات ليست سوى **شبه تاريخية** •

لقد أراد فلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيون أن يقدموا تفسيرا لتاريخ الفنون والادب بالرجوع الى صفات الطبيعةالانسانية• **فالبشرية** تمر بنفس أطوار الحياة التي يمر بها الفرد : الطفولة والشباب والنضج وهلم جرا • والملحمة تتوافق مع الطفولة، والخطابة والدراما مع الشباب ، والفلسفة مع النضج وهكذا (٥٩) • وقد

(٥٨) «تاريخ الادب الانجليزي» ـ الطبعة الثامنة ـ المقدمة ـ ص ٤٥ •

(٥٩) كثيرا ما استخدمت مدام دي ستيل هذا التشبيه : « وحين يدرس المرء عصور الادب الاغريقي الثلاثة المختلفة يتبين بوضوح بالغ المسيرة الطبيعية للروح الانسانية ، فقد اشتهر الاغريق بالدرجةالاولى

أشرنا في أحد ابحاثنا السابقة الى أن مثل هذا التشبيه لا أساس له. ويمكن أن نضيف كذلك هنا أن جماليات تين «التاريخية» لم تمنعه بأي حال من استخدام «الطبيعة الانسانية»» مفتاحا لكل الابواب التي لم تنفتح أمام التحليل لدى المحاولة الاولى. غير أن الاحالة الى الطبيعة الانسانية قد اتخذت عند تين شكلا آخر . فهو لم يتحدث عن الاطوار في تطور الفرد الانساني، وبدلا من ذلك تحدث كثيرا ـ وكثيرا للغاية للأسف ـ عن **العنصر** ، وهو يقول «ان ما يسمى بالعنصر ليس سوى الاستعدادات الفطرية الوراثيــــة التي يجلبها الانسان معـــه الى العالم» (٦٠) . وليس من شيء أيسر ـ كيما ننفض كل الصعوبات ـ من أن ننسب ظاهـــــرة على شيء من التعقيد الى فعل مثل هـــذه الاستعدادات الفطرية الموروثة . لكن الجماليـات التأريخية لا يمكن الا أن تعاني من ذلك كثيرا .

وقد كان هنري سومرمين مقتنعا كل الاقتناع بالفارق العميق بين العنصر الآري والعناصر «ذات الاصول الاخرى» في كل ما يتعلق بالتطور الاجتماعي ، ورغم هـــذا فقد أبدى رغبة جديرة بالملاحظة وهي :

« ونأمل ان يبذل الفكر المعاصر قبل وقت طويل جهـــدا للتحرر من عادة الاستخفاف التي يبدو أنه قد أصيب بها بتبني نظريات العنصر . فكثير من هذه النظريات لا يبدو أن لها من ميزة سوى السهولة التـــي تمكننا بها من التوصل الى استخلاصـــــات لا تتناسب أبدا مع العمل الذهني الذي كلفته صانعها ... » (٦١) .

بشعرائهم في الفترة السحيقة من تاريخهم ، وهوميروس هو الذي يمثل العصر الاول للادب الاغريقي ، وخلال عصر بيركليز يرى المرء التقـدم السريع في الفن الدرامي والخطابة والاخلاق وبدايات الفلسفة ، وفـي ايام الاسكندر اصبحت الدراســـة العميقة للعلوم الفلسفية الشاغـــل الرئيسي لرجال الاداب البارزين » الخ ... (المصدر السابق ـ المجلد الاول ـ ص ٧ـ٨) . وكل هذا صحيح ، لكن «المسيرة الطبيعية للروح الانسانية» لا تفسر بأي حال **اسباب** مثل هذا التطور .

(٦٠) المصدر السابق ـ ص ٢٣ .

(٦١) هنري سومرمين « محاضرات في التاريخ الاول للمؤسسات » ـ الطبعة السادسة ص ٩٦ـ٩٧ .

ولا نملك الا أن نأمل أن تتحقق هذه الرغبة سريعا ، لكن من سوء الحظ أن الامر ليس بالبساطة التي قد يبدو بهـــا لدى الوهلة الاولى . فكما يقول مين «ان كثيرا من اختلافات النوع المزعومة بين فروع العنصر الآري ـ وربما أغلب هذه الاختلافات ـ ليست في الواقع سوى اختلافات في درجة التطور ... » وهذا أمر لا يحتمل الشك . لكن من الواضح أن على المرء ـ حتى لا يعود بحاجة الى أن يجد في نظرية العنصر المفتاح الرئيسي ـ أن يبلـــغ الفهم الصحيح لسمات مختلف مراحل التطور. وهذا أمر مستحيل دون فهم للتاريخ خال من التناقضات . وهو فهم لم يكن متوفرا لتين ، ولكن أهو متوفر لكثير من المؤرخين والنقاد ؟

ان امامنا الان كتاب «geschichte der deutschen national literatur» (٦٢)بقلم الدكتور هيرمان كلوج، وهو كتاب يبدو أنه يتمتع بجمهور واسع في المانيا ، لكنه لا يتمتع بقيمة عملية بارزة . وما يستحق انتبـاهنا فيه هو الفترات التي يقسم اليها الكاتب تاريخ الادب الالماني . ونحن نجد في هذا الكتاب سبع مراحـــل (ص ٧ ـ ٨ من الطبعة الرابعة عشرة) :

١) من أقدم العصور حتى عصر شارلمان (عام ٨٠٠ ميلادية)، وكانت هذه في الاساس فترة الاغاني الشعبية الوثنية ، فترة شهدت ظهور أساطير الفروسية القديمة .

٢) من شارلمان حتى اوائل القرن الثاني عشـــر (من ٨٠٠ ـ ١١٠٠م) وهي فتــــرة أخلت فيها الوثنية المحلية القديمة المكـــان للمسيحية ، وذلك بعد صراع عنيف، وأصبح الادب في الاساس تحت تأثير الكهنة .

٣) الذروة الاولى للادب الالماني (١١٠٠ ـ ١٣٠٠) . وكان الشعر في أغلبه من نظم الفرسان .

٤) تطور الشعر على يد طبقة سكان المدن والحرفيين (١٣٠٠ ـ ١٥٠٠) .

٥) الادب الالماني اثناء عصر الاصـــلاح الديني (١٥٠٠ ـ ١٦٢٤) .

٦) الشعر تحت سيطرة الاساتذة الباحثين ، عصـــر التقليد (١٦٢٤ ـ ١٧٤٨) .

---

(٦٢) « تاريخ الادب القومي الالماني » ـ المترجم .

٧) الذروة الثانية للادب الالماني التي بدأت في ١٧٤٨ ٠

ويستطيع القارىء الالماني ـ وهو أكثر مقدرة منا ـ أن يحكم بنفسه على تفصيلات هذا التقسيم ٠ لكنه يبدو لنا **انتقائيا تماما** ، أي أنه لا يستند الى مبدأ واحد ـ وهذا شرط أساسي لاي تبويب وتقسيم علميين ـ وانما الى عدة مباديء لا يمكن مقارنتها فيما بينها ٠ ففي الفترتين الاوليتين يزعم أن الادب قد تطور تحت تأثير **الافكار الدينية** وحدها ٠ ثم تأتي الفترة الثالثة والرابعة وكانت تحدد تطوره فيهما **البنية الاجتماعية** ، وظروف الطبقات التي «تنظمه» ٠ ومن عام ١٥٠٠ عادت الافكار الدينية كعامل رئيسي في تطور الادب ، فقد بدأ عصر الاصلاح الديني ٠ غير أن هيمنة الافكار الدينية هذه لم تستمر الا مائة وخمسين عاما ، ففي عام ١٦٢٤ أصبح الباحثون هم مبدعي الادب الالماني الخ ٠٠ وأقل ما نستطيع أن نقوله هنا هو أن هذا التقسيم الى فترات لا يفضل التقسيم الذي استخدمه كوندورسيه في كتابه «مجمل لوحة تاريخية لتقدم الذهن الانساني»٠ والسبب واحد٠ فكلوج ـ شأنه شأن كوندورسيه ـ لا يعرف علام يتوقف التطور الاجتماعي ونتيجته ـ تطور البشرية الروحي ٠ وهكذا فقد كنا على حق حين قلنا ان قرننا لم يشهد سوى تقدم متواضع للغاية في هذا الميدان ٠

ولكن فلنعد الى هيبوليت تين ٠ فعنده أن «الوضع العام» الذي يظهر العمل الفني تحت تأثيره يعني الوجود العام لخير معين وشر معين ، لظرف من الحرية أو العبودية ، لحالة من البؤس او الثراء ، لشكل محدد للمجتمع ، لنوع محدد من الاديان ٠ لكن ظرف الحرية أو العبودية ، وحالة البؤس أو الثراء ، وأخيرا شكل المجتمع ، كلها سمات تشير الى المركز الفعلي للناس في «الانتاج الاجتماعي لوجودهم» ٠ والدين هو الشكل الخيالي الذي تنعكس فيه ظروف الناس الفعلية في أذهانهم ٠ ان هذه الاخيرة سبب والاول نتيجة ، واذا ما اعتنق المرء المثالية فانه يستطيع بالطبع أن يؤكد العكس ، وهو أن الناس يدينون بظروفهم الفعلية للافكار الدينية ، وفي هذه الحالة فان ما لا نقبله الا كنتيجة يصبح سببا ٠ وعلى أي حال فانني آمل أننا سنتفق على انه لا يمكن المعادلة بين الاسباب والنتائج في تشخيص «الوضع العام» في أي عصر معين ، لان من شأن هذا أن يقود الى تشويش كامل : فسنخلط دائما بين ظروف الناس **الفعلية** والحالة العامة لاخلاقهم وروحهم ، أو بعبارة أخرى سيضيع فهم

تعبير «الوضع العام» • وهذا بالدقة ما حدث لتين ولعدد كبير من مؤرخي الفن (٦٣) •

أما الفهم المادي للتاريخ فانه يخلصنا في النهاية من كل هذه التناقضات • صحيح أنه لا يزودنا بأية صيغة سحرية ، بيد أن من الحماقة أن نطالب أحدا بأن يمكننا في لحظة من حل كل مشكلات تاريخ البشرية الروحي ، لكنه يقودنا للخروج من الحلقة المفرغة ،

(٦٣) وهذا على سبيل المثال ما يقوله شارل بلان عن الرسم الهولندي : « وباختصار هناك ثلاثة اسباب رئيسية: الاستقلال الوطني والديمقراطية والبروتستانتية هي التي تركت طابعها على المدرسة الهولندية • فما أن تحررت من الربقة الاسبانية حتى اصبح للمقاطعات السبع رسمها الذي طرح عنه بدوره الاسلوب الاجنبي ••• وما أن اعترف بالشكل الجمهوري حتى حررهم من الفن الزخرفي الخالص الذي كان مطلوبا في البلاط وعند الامراء ، مما نسميه رسم البهرجة ••• واخيرا فان حياة الاسرة التي غذتها البروتستانتية ••• ولدت عددا لا يحصى من اللوحات الشعبية الساحرة اضفت على لوحات باتافيان شهرة طيلة العصور ، وذلك لانه كان من الضروري أن تزين جدران مساكنهم الخاصة التي أصبحت معارض للتحف » (« تاريخ الرسامين من كل المدارس » ـ باريس ١٨٦١ ـ المجلد الاول ـ ص ١٩ـ٢٠) • وقد قال هيغل شيئا شبيها للغاية : « ومن حيث الدين كان الهولنديون ـ وهذا أمر بالغ الاهمية ـ من البروتستانت ، والبروتستانتية هي وحدها القادرة على أن تعزو نثر الحياة وتضفي عليه ـ مأخوذا بذاته ، وبصرف النظر عن العلاقات الدينية ـ الدلالة الكاملة ، وتتيح له أن يتطور بحرية لا تحد » (« علم الجمال » ـ المجلد الثاني ـ ص ٢٢٢)• ومن السهل ان **نستشهد بهيغل** نفسه لنبين أن من الاكثر منطقية الا نعتبر أن البروتستانتية هي التي سمت «بنثر الحياة» بل بالعكس أن «نثر الحياة **البورجوازية**» ـ بعد ان وصل الى درجة محددة من التطور والقوة ـ هو الذي ولد البروتستانتية في عملية صراعه ضد «نثر» النظام الاقطاعي ، أو «شعره» اذا أردت • واذا كان الامر كذلك فان على المرء ألا يرى في البروتستانتية سببا كافيا لتطورالرسم الهولندي، بل ان عليه أن يمضي الى أبعد من ذلك ، الى شيء «أرضى» و «أرقى» ولد كلا من بروتستانتية الهولنديين وحكومتهم («الديمقراطية» التي يتحدث عنها شارل بلان) وكذلك فنهم الخ •••

بالاشارة الى طريق الدراسة العلمية الصحيح الذي علينا أن نتبعه ·
وانا لعلى ثقة من أن كثيرا من قرائنا سيشعرون بالدهشة المخلصة حين نقول لهم ان مشكلة التاريخ كانت عند ماركس **مشكلة سيكولوجية** بمعنى ما أيضا · بيد أن هذا أمر لا نزاع فيه · فقد كتب ماركس منذ عام ١٨٤٥ يقول :

« ان النقيصة الاساسية في كل مادية قامت حتى اليوم ـ بما في ذلك مادية فيورباخ ـ هي انها لا تتصور الشيء ، الواقع ، المحسوس ، الا في شكل **موضوع** أو **تأمل** anschawung ، وليس **كنشاط حسي انساني ، كممارسة** ، ليس **بشكل ذاتي**· ومن هنا حدث أن تطور هذا الجانب النشط على يد المثالية ـ في تمايز عن المادية ـ وانما بشكل مجرد فحسب ، لان المثالية بالطبع لا تعرف النشاط الحسي الواقعي من حيث هو كذلك » (٦٤) ·

ما هو معنى هذه الكلمات التي تحوي ـ الى حد ما ـ برنامج المادية المعاصرة ؟ تعني أنه اذا لم ترد المادية أن تظل **أحادية الجانب** ـ كما كانت حتى الان ـ اذا لم ترد أن تتنكر لمبدئها بالعودة على الدوام الى الاراء **المثالية** ، اذا لم ترد أن تعترف بذلك بأن المثالية أقوى في مجال محدد ، فلا بد أن تقدم تفسيرا لكل جوانب الحياة الانسانية ·ويعني **الجانب الذاتي** من هذه الحياة **الجانب السيكولوجي** ذاته ، «**الروح الانساني**» ، **مشاعر الناس وافكارهم** ، وتعني دراسة هذا الجانب من الزاوية المادية ـ بقدر ما نتحدث عن **نوع** محدد ـ تفسير **تاريخ الافكار** من خلال الظروف المادية لوجود الناس ، من خلال **التاريخ الاقتصادي** · ولقد كان على ماركس أن يتحدث عن حل «**المشكلة السيكولوجية**» من باب أولى لانه كان يرى بوضوح الحلقة المفرغة التي لم تستطع المثالية ـ التي كانت تدرس المشكلة ـ الخروج منها ·

وهكذا قال ماركس نفس ما قاله تين تقريبا وانما **بعبارات مختلفة شيئا ما** · فلنر كيف ينبغي تعديل «صيغة» تين بما يتفق مع هذه العبارات المختلفة ·

---

(٦٤) انظر ملحق «لودفيج فيورباخ» بقلم ف· انجلز (ـ القضية الاولى من « قضايا عن فيورباخ » ـ المترجم) ·

درجة من تطور القوى الانتاجية ، علاقات الناس في عملية الانتاج كشيء تحدده درجة التطور هذه ، شكل المجتمع الذي يعبر عن هذه العلاقات ، حالة محددة للروح والمعنويات تتمشى مع هذا الشكل للمجتمع ، دين وفلسفة وأدب تتمشى مع القدرات واتجاهات الاذواق والميول التي تولدها هذه الحالة ٠

ونحن لا نريد أن نقول ان هذه «الصيغة» تشمل كل شيء ـ كلا على الاطلاق ! ـ لكننا نستطيع أن نقول ان لها ميزة لا شك فيها هي انها تعبير افضل عن العلاقة السببية بين مختلف «**حدود السلسلة**» ٠ أما عن «الضيق» و «أحادية الجانب» اللذين عادة ما يؤخذان على الفهم المادي للتاريخ فلن يجد لهما القاريء أي أثر ٠

لقد اعتبر المثاليون الالمان العظام في زمنهم ـ وهم الاعداء الالداء لاية انتقائية ـ ان كل جوانب حياة شعب ما يحددها **مبدأ واحد** ٠ وكان هذا المبدأ عند هيغل هو **خصوصية روح الشعب** «الطابع الشامل لدينه ونظامه السياسي واخلاقه ونظامه القانوني ومعنوياته وعلمه وفنه وكذلك قدراته التقنية» ٠ ويعتبر ماديو اليوم أن روح الشعب هذا تجريد ، نتاج للفكر ، لا يفسر شيئا على الاطلاق، وقد اطاح ماركس بالفهم المثالي للتاريخ ، لكن هذا لا يعني أنه عاد الى وجهة نظر **الفعل المتبادل** البسيط ، وهي أقل قدرة على التفسير من وجهة نظر روح الشعب ٠ وفلسفته عن التاريخ واحدية بدورها ، وانما بمعنى هو النقيض تماما لواحدية هيغل ، وطبيعتها الواحدية بالتحديد هي التي تجعل الاذهان الانتقائية لا ترى فيها الا الضيق وأحادية الجانب ٠

وربما يكون القاريء قد لاحظ أننا ونحن نعدل صيغة تين وفقا للفهم الماركسي للتاريخ قد استبعدنا ما أسماه الكاتب الفرنسي «**الطراز السائد**» ٠ وقد فعلنا ذلك عمدا ٠ فبنية المجتمع المتمدين من التعقيد بحيث أننا لا نستطيع حتى أن نتحدث ـ بالمعنى الدقيق ـ عن حالة الروح والمعنويات التي تتفق مع مجتمع معطى ٠ فحالة الروح والمعنويات عند سكان المدينة كثيرا ما تكون متميزة تماما عنها عند الفلاحين ، في حين أن حالة الروح والمعنويات عند النبلاء لا تشبه الا قليلا حالة الروح والمعنويات لدى البروليتاريا ٠ وهذا هو السبب في أن «طرازا سائدا» في نظر طبقة بعينها ليس بأي حال سائدا في نظر طبقة أخرى: أيمكن لرجل بلاط في زمن الملك ـ الشمس أن يكون مثلا أعلى للفلاح الفرنسي في نفس الحين ؟ ولا شك أن تين كان يمكن أن

يعترض على ذلك بأن المجتمع الاريستقراطي ـ وليس الفلاحين ـ كان هو الذي ترك طابعه على الادب الفرنسي في القرن الثامن عشر · وسيكون على حق تماما · فمؤرخو الادب والفن الفرنسيون في ذلك القرن يستطيعون أن يعتبروا حالة روح الفلاحين ومعنوياتهم كما مهملا · ولكن فلنأخذ عصرا آخر ، وليكن مثلا عصر عودة الملكية · فهل كان نفس الطراز «سائدا» في اذهان الارستقراطية والبورجوازية في تلك الفترة ؟ كلا بالطبع · فبحكم تناقضها مع انصار النظام القديم لم تنبذ البورجوازية المثل العليا للارستقراطية فحسب بل مجدت كذلك روح ومعنويات الامبراطورية، عصر نابليون الذي كانت قد تخلت عنه كلية منذ بضعة أعوام فقط (٦٥)· وحتى قبل عام١٧٨٩ تجلت معارضة البورجوازية لروح الارستقراطية ومعنوياتها في مجال الفنون الجميلة بكتابة الدراما البورجوازية ·

« ماذا تعني لي ثورات أثينا وروما وأنا المواطن المسالم في دولة ملكية في القرن الثامن عشر ؟ أي اهتمام حقيقي يمكن أن يثيره في موت طاغية من بيلوبونيز أو تضحية أميرة شابة في أوليوس ؟ ليس لي شأن بهذا كله ، وهو لا يحوي أي مغزى يمكن أن يحركني » ·

هكذا يقول بومارشيه في «بحث عن الفن الدرامي الجاد» ·
وان ما يقوله من الصحة الى حد أن المرء ليتساءل في دهشة : كيف أمكن لانصار التراجيديا شبه الكلاسيكية ألا يروه ؟ ماذا «رأوا

---

(٦٥) « ولا شك أن موظفي الحكومة والحرفيين والبدالين يعتبرون أن من واجبهم أن يتخذوا هيئة رزينة ، وينموا شواربهم حتى يبينوا ليبراليتهم ، انهم يريدون بسلوكهم وبعض تفصيلات زيهم أن يبينوا أنهم بقايا جيشنا البطل · ويمضي المساعدون في بيوت الموضة الى أبعد من تربية شواربهم ، فهم لكيما يكملوا تحول صورتهم يضعون في احذيتهم مهاميز يصدر عنها رنين عسكري طيلة سيرهم على ارصفة الشوارع وبلاطها » · (ا· بيرليه « عن تأثير الاخلاق على الكوميديا » ـ الطبعة الثانية ١٨٤٨ ـ ص ٥١ـ٥٢) ولدينا هنا مثال لتأثير الصراع الطبقي في مجال قد يبدو لدى الوهلة الاولى مجالا لا يخضع الا للنزوة · وانه ليكون من الشيق للغاية أن ندرس ـ في مؤلف خاص ـ تاريخ الموضة من زاوية سيكولوجية الطبقات ·

في هذا كله» ؟ أي مغزى وجدوا فيه ؟ بيد أن التفسير بسيط للغاية · فالواقع أن التراجيديا شبه الكلاسيكية لم تصور «طغاة بيلوبونيز» ولا «أميرات اوليوس» الا **للحفاظ على المظاهر** ، وانهـا لم تكن ـ اذا استخدمنا تعبير تين ـ الا تصويرا مهذبا **للعالم الارستقراطي** الـذي كانت تثير الاعجاب به · أما العالم البازغ ، عالم البورجوازية ، فلم يكن يقدر هذه التراجيديا الا بحكم التقاليد ، أو كان يقف ضدهـا صراحة لانها لم تكن سوى سـلاح في أيدي «**العالم الارستقراطي**» ذاته · لقد رأى الناطقون باسم البورجوازية في قواعد الجماليـات القديمة اهانة لكرامة «**المواطن**» ·

يصيح بومارشيه بسخرية في «رسالة عن نقد حـلاق اشبيلية» : «أفيجب على المرء أن يصور رجال الطبقة الوسطى كأناس تعسـاء يعانون ؟ كلا ، كلا ، انما يجب فحسب أن نسخر منهم ، فالرعايا الذين يثيرون السخرية والملوك التعساء ـ هذا هو المسـرح الوحيد القائم والممكن ، وأنا نفسي قد راعيت ذلك » ·

وقد كان **المواطنون** المعاصرون لبومارشيه ـ على الاقـل في أغلب الحالات ـ سلالة **البورجوازية** الفرنسيةالتي كانت تقلد **النبلاء** بقدر بالغ من الحماس ، ومن ثم تعرضت لسخريـة موليير ودانكور وريجنار وكثيرين غيرهم · وهكذا نرى على الاقل عصرين مختلفين اختلافا أساسيا في تاريخ روح البورجوازيـة الفرنسية واخلاقها : الاول عصر محاكاة النبلاء والاخر عصر التناقض معهـم · وكل من هذين العصرين **يتمشى مع مرحلة معينة من تطـور البورجوازية · وبالتالي فان الميول والاتجاهات في أذواق أية طبقة تتوقف علىدرجة تطورها ، وبدرجة اكبر على موقفها من الطبقة الاعلى ـ وهو موقف** يحدده **تطورها** ·

ويعني هذا أن الصراع الطبقي يلعب دورا هاما في تاريـخ الايديولوجيات · والحق أن هذا الدور من الاهميـة حتى ليستحيل فهم تاريخ اتجاهات الاذواق والافكار في أي مجتمـع ـ باستثناء المجتمعات البدائية التي لا توجد فيها طبقات ـ دون التعـرف على الصراع الطبقي الدائر فيه ·

«ولا يكمن جوهر كل عملية تطور الفلسفة الحديثة في مجرىالجدلية

المحاثية للمبادىء النظرية بل بالاحــــرى في الصراع والاتجاه الى المصالحة بين العقيدة الدينية التقليدية التي تضرب بجذورها عميقة في الروح والمشاعـــــر من ناحية والمعرفة في مجـــال العلوم الطبيعية والانسانيات التي حققتها الدراسات الحديثة من الناحية الاخرى»(٦٦)٠

ولو كان أوبرفيج أكثر انتباها لادرك ان المبادىء النظرية ـ في أية لحظة معطاة ـ كانت ذاتهـــا محصلة الصراع والاتجـــاه الى المصالحة الذي تحدث عنهما ٠ ولمضى الى أبعد من ذلك وطرح أمـام نفسه الاسئلة التالية :

١) أفلم تكن المعتقدات الدينية التقليدية النتاج الطبيعي لمراحل معينة من التطور الاجتماعي ؟ ٠ ٢) أفلم تنبعث الاكتشافات فـــي حقل العلوم الطبيعية والانسانيات من المراحل السابقة لهذا التطور ؟ ٣) وأخيرا أفلم يكن نفس التطور ـ الاكثر سرعة في مكان أو زمان ما في حين أنه في مكان وزمان آخرين اكثر بطئا في معدله وخاضعـــا لتعديلات العديد من الظروف المحلية ـ أفلم يكن نفس التطور هوالذي قاد الى كل من الصراع بين المعتقدات والافكار الجديدة التي يصـل اليها الفكر الحديث ، والهدنة بين القوتين اللتين تخوضان هـــــذا الصراع ، وهما قوتان تترجم مبادئهما النظرية شروط هذه الهدنـة الى «لغة الفلسفة المقدسة» ؟

ويعني النظر الى تاريخ الفلسفة من هذه الزاوية النظر اليـه من وجهة النظر المادية ٠ ورغم أن اوبرفيج كان ماديا الا أنه لم تكن لديه على ما يبدو أية فكـــــرة عن المادية **الجدلية** رغم كل ثقافته ٠ وليس ما قدمه لنا سوى ما عرضه مؤرخو الفلسفة من قبل ـ تتابـع بسيط للمذاهب الفلسفية : ان مذهبا معينا قد ولد آخر ، وهذا بدوره ولد مذهبا ثالثا وهلم جرا ٠ غير أن أي تتابع للمذاهب الفلسفية ليس سوى مجرد **واقعة** ، مجرد شيء **معطى** ، اذا استخدمنا التعبيـرات السائدة اليوم ، شيء يحتـــاج الى تفسير لكنه لا يمكن أن يفســـر «بالجدلية المحاثية للمبادىء النظرية» ٠ فقد كان ابناء القرن الثامن

---

(٦٦) أوبرفيج «grundriss der geschicte des philosophie»
(أسس تاريخ الفلسفة ـ المترجم) قام بنشره ماكس هاكنز ـ برلين ١٨٨٠ ـ المجلد الثالث ص ١٧٤ ٠

عشر يفسرون كل شيء بنشاط «المشرعين» (٦٧) · بيد أننا نعرف الان ان هذا الاخير يرجع الى التطور الاجتماعي · أفلن نستطيع أبدا أن نقيم الصلة بين تاريخ الافكار وتاريخ المجتمع، تاريخ عالم الافكار وعالم الواقع ؟

يقول فخته «**يتوقف نوع الفلسفة الذي يختاره أي رجل لنفسه على أي نوع من الرجال هو**» · أفلا نستطيع أن نقول نفس الشيء عن أي مجتمع ، أو بتعبير أدق، عن أي طبقة اجتماعية معطاة؟ أليس من حقنا أن نقول بنفس الثقة: تتوقف فلسفة مجتمع ما او طبقة اجتماعية ما على أي نوع من المجتمع أو الطبقات الاجتماعية هي ؟

وعلينا ألا ننسى أبدا بالطبع انه اذا كانت الافكار السائدة لدى أية طبقة في زمن معين يحددها في **محتواها** المركز الاجتماعي لهذه الطبقة ، فان **شكل** هذه الافكار يرتبط ارتباطا وثيقا بالافكار السائدة خلال العصر السابق لدى نفس الطبقة او طبقة أعلى · «**ففي كل المجالات الايديولوجية تشكل التقاليد قوة محافظة كبرى**» (فريدريك انجلز) ·

فلنأخذ الاشتراكية مثلا :

« الاشتراكية الحديثة في جوهرها نتاج مباشر للوعي من ناحية بالمتناحرات الطبقية القائمة في مجتمع اليوم بين الملاك وغير الملاك ، بين الرأسماليين والعمال بالاجر ومن ناحية أخرى بالفوضى القائمةفي الانتاج · لكن الاشتراكية الحديثة ـ في شكلها النظري ـ تظهر في البداية وكأنها امتداد اكثر منطقية للمبادىء التي ارساها الفلاسفة الفرنسيون العظام في القرن الثامن عشر ، وقد كان على الاشتراكية الحديثة في البداية ـ كأية نظرية جديدة ـ أن ترتبط بالرصيد الفكري الجاهز تحت يدها مهما كانت جذورها عميقة في الوقائع الاقتصادية

(٦٧) «ولكن لماذا تمر الاداب بأوقات من السكون ، لا تعود فيها الاذهان منتجة ، وتبدو فيها الامم وقد استنفدتها الخصوبة الزائدة ؟ ذلك ان القنوط كثيرا ما ينشأ عن الاخطاء المتخيلة ، وضعف ذوي الشأن ··· » (« لوحة ثورات الادب القديم والحديث » الاب دي كورنان ـ باريس ١٧٨٦ ـ ص ٢٥) ·

المادية » (٦٨) ٠

لكن التأثير الشكلي ـ والحاسم مع ذلك ـ لمجموعة قائمة من الافكار لا يبدو فقط في اتجاه ايجابي ، أي لا يبدو فقط بالطريقة التي كان الاشتراكيون الفرنسيون في النصف الاول من قرننا يشيرون بها الى ذات المباديء التي يشير اليها رجال التنوير في القرن الماضي ، بل يتخذ هذا التأثير أيضا طبيعة سلبية ٠ فاذا كان فوريييه قد انغمس في صراع دائم ضد ما أسماه ساخرا قابلية الكمال القابلة للكمال فذلك لان كمال الانسان كان يلعب دورا هاما في نظريات رجال التنوير ٠ واذا كان اغلب الاشتراكيين الطوباويين الفرنسيين على وفاق مع اله رحيم فقد انبعث هذا من **التعارض** مع البورجوازية التي شهد شبابها قدرا كبيرا من نزعة الشك في هذا الصدد ٠ واذا كان الاشتراكيون الطوباويون ينشدون اهازيج المديح **للامبالاة السياسية** فقد كان مصدر ذلك معارضة المذهب القائل ان «**كل شيء يتوقف على التشريع**» ٠ وباختصار فقد كان الجانب الشكلي لمذهب الاشتراكية الفرنسية محددا ـ سواء ايجابا أو سلبا ـ بنظريات رجال التنوير ، وهي نظريات ينبغي ألا تغيب عن أبصارنا اذا اردنا أن نفهم الطوباويين فهما سليما ٠

ماذا كانت الصلة بين الظرف الاقتصادي للبورجوازية الفرنسية في فترة عودة الملكية وبين مظهر المحاربين الذي كان ابناء البورجوازية الصغيرة في ذلك الحين ، هؤلاء الفرسان الصغار ، يحبون أن يتخذوه ؟ **ما من صلة مباشرة**٠ فلحاهم ومهاميزهم لم تغير هذا الظرف بأي حال تغييرا ايجابيا او سلبيا ٠ غير أن هذه الموضة الغريبةقد ولدها كما عرفنا من قبل ـ **بشكل غير مباشر** ـ وضع البورجوازية في مواجهة الارستقراطية ٠ **فكثير من الظواهر ـ في مجال الايديولوجيات ـ لا يمكن تفسيرها بتأثير الحركة الاقتصادية الا بشكل غير مباشر** ٠ وكثيرا ما ينسى هذا لا خصوم نظرية ماركس التاريخية وحدهم بل أنصارها أيضا ٠

ونظرا الى أن تطور الايديولوجيات يتحدد ـ في الجوهر ـ بالتطور الاقتصادي فان هاتين العمليتين تتوافقان دائما فيما بينهما٠

---

(٦٨) ف٠ انجلز «ثورة الهر ايوجين دوهيرنج في العلوم» ليبزيغ ١٨٧٧ ـ المجلد الاول ٠

«**فالرأي العام**» يتكيف مع **الاقتصاد** · لكن هذا لا يعني اننا في دراستنا لتاريخ البشرية نملك أن نتخذ أي الجانبين ـ الرأي العام والاقتصاد ـ نقطة انطلاق لنا على قدم المساواة ، ففي حين أن التطور الاقتصادي يمكن أن يفسر تفسيرا كافيا ـ في سماته العامة ـ بفعل منطقه الداخلي فان طريق التطور الروحي لا يجد التفسير الا في الاقتصاد · ويكفي مثل واحد لتوضيح فكرتنا ·

في أيام **بيكون وديكارت** أبدت الفلسفة اهتماما كبيرا بتطور القوى الانتاجية · **يقول ديكارت** :

« ··· وبدلا من تلك الفلسفة التأملية التي تدرس في المدارس يمكن أن نجد فلسفة عملية نستطيع بفضلها ـ واذا توفرت معرفة قوى وعمليات النار والماء والهواء والنجوم والسماوات وكل الاجسام الاخرى التي تحيط بنا بنفس الوضوح الذي نعرف به مختلف فنون حرفيينا ـ أن نستخدمها بنفس الطريقة الاستخدامات الخاصة بها ، وبذا نجعل أنفسنا سادة للطبيعة وملاكا لها » (٦٩) ·

وتحمل كل فلسفة ديكارت علامات هذا الاهتمام الكبير · وهكذا بدا أن الهدف الذي تستهدفه دراسات الفلاسفة المعاصرين قد تحدد بوضوح · لكن قرنا من الزمان مضى ، واصبحت المادية ـ التي نستطيع أن نضيف انها كانت النتيجة المنطقية لمذهب ديكارت ـ واسعة الانتشار في فرنسا،وتحت رايتها سار اكثر اجزاء البورجوازية تقدما ، وشب جدال عنيف ، ولكن ··· اختفت عن الابصار القوى الانتاجية : فنادرا ما كان الفلاسفة الماديون يتحدثون عنها ، فقد أصبحت لديهم الان ميول مختلفة ، وبدت الفلسفة تطرح مهاما مختلفة تماما · فماذا كان السبب ؟ أكان ذلك لان القوى الانتاجية الفرنسية كانت **قد** حققت بالفعل **تطورها الكافي** ؟ هل **اغفل** الماديون الفرنسيون سيطرة الانسان على الطبيعة التي كان بيكون وديكارت يحلمان بها ؟ لم يكن الامر كذلك ! غير ان علاقات الانتاج في فرنسا في أيام ديكارت ـ اذا ما نحن اقتصرنا هنا على فرنسا وحدها ـ كانت ما تزال تشجع تطور القوى الانتاجية ، في حين اصبحت بعد قرن **عقبة** أمامها · وكان لا بد من تحطيمها ، ولهذا الغرض كان لا بد

---

(٦٩) ديكارت «محاضرات عن المنهج »ـ الفصل السادس ·

من تحطيم الافكار التي قدستها • وتركزت كل طاقات الماديين ــ طليعة المنظرين البورجوازيين ــ على هذه النقطة ، واتخذ مذهبهم بأسره طابعا نضاليا • واصبح النضال ضد «**الخرافة**» باسم «**العلم**» ، وضد «**الطغيان**» باسم «**القانون الطبيعي**» اكثر مهام الفلاسفة أهمية وعملية (بالمعنى الديكارتي)،وانحسرت الدراسة المباشرة للطبيعة بهدف زيادة القوى الانتاجية الى الخلف • وحين تحقق الهدف ، وحطمت علاقات الانتاج البائدة ، اتخذ الفكر الفلسفي اتجاها جديدا ، وفقدت المادية أهميتها لفترة طويلة • وهكذا كان تطور الفلسفة في فرنسا يسير في أثر التغيرات في اقتصادها •

« وعلى خلاف سائر المعماريين ــ لا يبني العلم فحسب قلاعا في الهواء ، بل لقد يبني طوابق قابلة للسكنى من المبنى قبل أن يرسي حجر الاساس » (٧٠) •

وقد يبدو مثل هذا المنهج غير منطقي ، لكنه يجد تبريره في **منطق الحياة الاجتماعية** •

وحين كان «فلاسفة» القرن الثامن عشر يتذكرون ان الانسان نتاج لبيئته الاجتماعية ، كانوا ينكرون أي تأثير على هذه البيئة من جانب «الرأي العام» الذي يعلنون في أماكن أخرى ــ انه **يحكم العالم**• وكان منطقهم يتعثر في كل خطوة امام هذا الجانب او ذاك من جانبي النقيضة التي حلتها المادية الجدلية في يسر • وبالطبع فالرأي الانساني ــ لدى الماديين الجدليين ــ يحكم العالم من حيث أنه ــ كما يقول انجلز فان «••• كل القوى المحركة لاعمال أي فرد لا بد أن تمر بمخه ، وتحول نفسها الى دوافع لارادته ••• » (٧١) لكن هذا لا يتناقض مع قولنا ان «الرأي العام» يضرب بجذوره في البيئة الاجتماعية ، وفي النهاية في العلاقات الاقتصادية ، كما لا يتناقض مع مبدء أي «رأي عام» في الشيخوخة حالما يشيخ أسلوب الانتاج الذي ولده • فالاقتصاد هو الذي يشكل «الرأي العام» الذي يحكم العالم •

وقد لقي هلفيسيوس ــ الذي حاول تحليل «الروح» من زاوية

---

(٧٠) كارل ماركس « نقد الاقتصاد السياسي » ــ ص ٣٥ •
(٧١) « لودفيج فيورباخ ••• » ــ ص ٥٧ •

مادية ـ الفشل نتيجــــة العيب الاساسي في منهجه • فقد كـــان هلفيسيوس مضطرا حتى يظل أمينا لمبدئه القائل «ليس الانسان سوى حساسية» ان يفترض ان اشهر عمالقة الروح ، وامجد ابطال«نكران الذات من اجل الصالح العام ، كانـــوا يسترشدون ـ شأنهم شأن أزرى المداهنين واحقـــر الانانيين ـ بالرغبة في المتـــع الحسية • واعترض ديدرو على هذه المفارقة ، لكنه لم يستطـــــع أن يفلت من النتيجة التي وصل اليها هلفيسيوس ، ولم يجد المــــلاذ الا في **مملكة المثالية** • ومهما كانت اهمية محاولة هلفيسيوس فانه رغم هذا قـــد حط من شأن الفهم المادي «للروح» في نظر الجمهور العـــام بل حتى كثير من الاساتذة » • وعادة ما يقال في هـــذا الشأن ان الماديين لا يزيدون عن أن يرددوا ما قاله هلفيسيوس • غيـــر أنه يكفي أن نفهم «روح» المادية الجدلية حتى نرى ان هـــذه الاخيرة محصنة ضـــد الاخطاء التي ارتكبها سلفها **الميتافيزيقي** •

فالمادية الجدلية تنظر الى الظواهـــــر في حركتها • غير أن القول ـ من وجهة النظر التطورية ـ ان النـــــاس يكيفون افكارهم ومشاعرهم الاخلاقية **بوعي** مع ظروفهم الاقتصادية هو في حماقـــة قولنا ان الحيوانات والنباتات تكيف اعضاءها بوعي مـــــع ظروف وجودها • فلدينا في الحالتين عملية **غير واعية** ينبغي أن نقدم لهـــا تفسيرا ماديا •

وعن «المشاعر الاخلاقية» قال الرجل الذي استطاع أن يقـــدم تفسيرا «لاصل الانواع» :

« وينبغي أن أقرر أولا أنني لا اريد أن ازعم أن أي حيوان اجتماعي بالمعنى الضيق للكلمة ، اذا كانت ملكاته الفكرية من النشاط والتطور على ما هي عليه عند الانســـــــان ، سيكتسب بالدقة نفس أحاسيسنا الاخلاقية • فبنفس الطريقة التي نجد فيهـــا لدى مختلف الحيوانات بعض الاحساس بالجمال ـ وان كانت تعجب بأشياء بالغة التباين ـ قد يكونلديها حس بالصواب والخطأ وان كان يقودهـــا الى خطوط سلوك بالغة الاختلاف ، فلو أن الناس ـ ولنأخذ مثالا متطرفا ـ قد ربوا فـــي ظل ظروف خلية النحـــل بالتحديد فلا نكاد نشـــك في أن اناثنا غير المتزوجات سيرين ـ شأن شغيلة النحل ـ أن من واجبهن المقدس قتـــل اشقائهن ، وستسعى الامهات لقتل بناتهن الولودات، ولن يفكر أحد في التدخل • ورغم هذا فان النحلة أو أي حيوان اجتماعي آخر سيكتسب

في نظري ـ في افتراضنا هذا ـ شعورا بالصواب والخطأ، أو ضميرا· فسيكون لدى كل فرد احساسا داخليا بامتلاك غرائز أقوى او اكثر دواما وغرائز أقل قوة أو دواما ، بحيث سيكون هناك دائما صراع داخلي حول أي دافع ينبغي اتباعه ، ويحدث شعور بالارتياح أو عدم الارتياح او حتى التعاسة اذ يقارن سلوكه الحالي بانطباعاته الماضية خلال مرورها الذي لا يتوقف في الذهن · وفي هذه الحالة فان مرشدا داخليا سيقول للحيوان انه كان من الافضل أن يتبع هذا الدافع وليس ذاك ، وأن احدهما كان صوابا والاخر خاطئا ··· » (٧٢) ·

وقد جلبت هذه السطور لكاتبها الكثير من لعنات الجمهور «المحترم» · وهكذا كتب من يدعي سيد جويك في صحيفة «أكاديمي» اللندنية يقول « واني لعلى يقين من أن نحلة راقية ستبحث عن حل أكثر رقة لمسألة السكان ··· » · ونحن على استعداد لان نعترف بذلك للنحلة،لكن بعض كتب الاقتصاد التي تحظى **بتقدير** «**المحترمين**» تشهد للبورجوازية البريطانية ـ وليس البريطانية وحدها ـ بأنها عجزت عن ان تجد حلا «**اكثر رقة**» لهذه المسألة · وفي يونيو ١٨٤٨ ومايو ١٨٧١ (٧٣) لم تكن البورجوازية الفرنسية على الاطلاق في **رقة** النحلة الراقية · لقد قتلت البورجوازية وأمرت بقتل «اشقائها» العمال بوحشية لا مثيل لها **ودون أدنى تأنيب ضمير** ـ ولهذا أهمية اكبر لنا فيموضوعنا الان·ولا شك انها قالتلنفسها انها **مجبرة**على اتباع هذا «**الطريق**» بالتحديد وليس طريقا اخر » · فلماذا كان الامر كذلك ؟ ذلك أن اخلاق البورجوازية قد أملاها عليها مركزها الاجتماعي ، وصراعها ضد البروليتاريين ، بنفس الطريقة التي تملي بها ظروف الوجود «خط السلوك» على الحيوانات ·

وهذه البورجوازية الفرنسية نفسها تعتبر العبودية القديمة أمرا **غير اخلاقي** ، وربما كانت تدين مذابح العبيد المتمردين في روما كعمل غير جدير بشعب متمدين بل حتى بنحل يتمتع بالعقل · ان البورجوازي «كما يجب» «اخلاقي» تماما يكرس نفسه للصالح العام، وهو في فهمه للاخلاق والصالح العام لن يتخطى أبدا الحدود التي

---

(٧٢) «انحدار الانسان» ـ لندن ١٨٨٣ ـ ص ٩٩ـ١٠٠ ·

(٧٣) الاشارة الى قمع عصيان عمال باريس في يونيو ١٨٤٨ وكوميونة باريس في مايو ١٨٧١ ـ المترجم ·

ترسمها له ـ **وبغض النظر عن ارادته ووعيه ـ الظروف المادية لوجوده** • وهو لا يختلف **في هذا الصدد** في شيء عن افراد الطبقات الاخرى • فهو اذ يعكس في افكاره ومشاعره الظروف المادية لهذا الوجود انما يشاطر النصيب المشترك لكل «الفنانين» •

«وفوق الاشكال المختلفة للملكية ، فوق ظروف الوجود الاجتماعية ، يظهر تركيب علوي كامل من العواطف والاوهام وأساليب التفكير والاراء عن الحياة متميزة ومشكلة بطريقة خاصة ، وتخلقها الطبقة بأسرها ، وتشكلها من أسسها المادية ، ومن العلاقات الاجتماعية المتجاوبة معها، وقد يتخيل الفرد المفرد ـ الذي يستمدها من التقاليد والتربية ـ أنهما تشكل الدوافع ونقطة البدء الحقيقية لنشاطه ••• » (٧٤) •

وقد حاول جان جوريس اخيرا «ان يصالح جذريا بين المادية الاقتصادية والمثالية في تطبيقهما على التطور التاريخي » (٧٥) • ولقد جاء هذا الخطيب المبارز متأخرا بعض الشيء ، لان الفهم الماركسي للتاريخ لا يترك مكانا «للمصالحة» في هذا الميدان • فماركس لم يلق أبدا عينا لا تبصر الى المشاعر الاخلاقية ، التي تلعب دورا في التاريخ ، وانما هو فحسب فسر **أصل هذه المشاعر** • وحتى يستطيع جوريس أن يحقق فهما افضل لما يروق له أن يسميه « صيغة ماركس » (وقد كان ماركس يسخر دائما من حملة الصيغ) سنقتبس له فقرة اخرى من الكتاب الذي استشهدنا به لتونا •

والاشارة هنا الى الحزب «الاشتراكي الديمقراطي» الذي ظهر في فرنسا عام ١٨٤٩ •

« ويتجسد الطابع الخاص للاشتراكية الديمقراطية في أن المؤسسات الديمقراطية الجمهورية لا تطلب كوسيلة للقضاء على الطرفين المتضادين ، رأس المال والعمل المأجور ، وانما لاضعاف تناحرهما وتحويله الى انسجام • ومهما اختلفت الوسائل المقترحة لبلوغ هذه الغاية ، ومهما زينت بأفكار أكثر أو أقل ثورية ، فسيظل المضمون واحدا • وهذا المضمون هو تحويل المجتمع بطريقة ديمقراطية،لكنه تحول

(٧٤) كارل ماركس « ١٨ برومير لويس بونابرت » ـ ص ٢٦ •

(٧٥) انظر بحثه عن الفهم المثالي للتاريخ (« نيو زايت » ـ العام الثاني عشر ـ المجلد ٢ ـ ص ٥٤٥ وما بعدها) •

في حدود البورجوازية الصغيرة ، ولكن يجب ألا يكون المرء فكرة ضيقة الافق عن انالبورجوازية الصغيرة تريد-مبدئيا- ان تفرض مصالحها الطبقية الانانية ، بالاحرى انها تؤمن بأن الظروف **الخاصة** لتحررها هي الظروف **العامة** التي يمكن في اطارها فحسب انقاذ المجتمع الحديث وتجنب الصراع الطبقي • كما يجب بنفس الدرجة ألا يتصور المرء أن الممثلين الديمقراطيين هم جميعا في الواقع من البدالين أو انصار البدالين المتحمسين • فهم يكونون بحكم تربيتهم ومركزهم الفردي بعيدين عن بعضهم بعد السماء عن الارض ، وما يجعلهم ممثلين للبورجوازية الصغيرة هو أنهم في فكرهم لا يتخطون الحدود التي لا تتخطاها هذه الاخيرة في الحياة ، وأنهم بالتالي مسوقون - نظريا - الى نفس المشكلات والحلولالتي تدفع المصالح المادية والمركزالاجتماعي هذه الاخيرة اليها عمليا ، وتلك بشكل عام هي العلاقة بين **ممثلي** طبقة ما في مجال **السياسة** والادب وبين الطبقة التي يمثلونها » (المصدر السابق ص ٢٩) •

ويبدو تفوق المنهج الجدلي لمادية ماركس اوضح ما يكون حيثما تكون المسألة هي تقديم حل لمشكلات ذات طبيعة «اخلاقية» ، وهو ما لم تستطع ان تتخطاه مادية القرن الثامن عشر • غير ان الحل الصحيح للمشكلة يتطلب - في المقام الاول - ان نطرح عنا **التحيزات الميتافيزيقية** •

وعبثا يؤكد جوريس قوله : « لا اريد ان اضع الفهم المادي في احد جوانب الحاجز والمثالي في الجانب الاخر» ، فهو يعود الى نفس مذهب «الحواجز» : وهو يضع الروح في جانب والمادة في الجانب الاخر ، لدينا هنا الضرورة المادية وهناك المشاعر الاخلاقية ، ثم يمضي بعد ذلك ليعظ بهما معا محاولا أن يثبت انهما لا بد أن يتداخلا، تماما كما انه «في حياة الانسانالعضوية ستتداخل الية المخ والارادة الواعية » (٧٦) •

---

(٧٦) سيجد القاريء الذي يشوقه أن يعرف كيف **تتخلل** الضرورة الاقتصادية «فكرة العدالة والقانون» متعة كبيرة في قراءة مقال بول لافارج «ابحاث عن منشأ فكرة الحق والعدالة» المنشور في العدد السادس من «المجلة الفلسفية» - ١٨٨٥ • ونحن لا نفهم بوضوح كامل

←

لكن جوريس ليس مجرد رجل أيا كان · فقد كان يمتلك المعرفة الواسعة والارادة الطيبة والقدرات البارزة · وأنت تقرأه باستمتاع (ولم تتح لنا أبدا متعة سماعه) حتى حين يكون على خطأ · لكن من سوء الحظ أن نفس الامر لا يمكن أن يقال عن كثير من خصوم ماركس الذين يتنافسون في الهجوم عليه ·

فالدكتور بول بارث مؤلف كتاب «فلسفة التاريخ عند هيغل والهيغليين حتى ماركس وهارتمان» ليبزبغ ١٨٩٠) · وقد بلغ فهمه لماركس من الضآلة ما مكنه من النجاح في دحضه · وقد اثبت أن مؤلف «رأس المال» يتناقض مع نفسه في كل خطوة · فلنلق نظرة اقرب على منهج تدليله ·

« وفيما يتعلق بنهاية العصور الوسطى فان ماركس نفسه قد قدم المادة لدحضه حين أعلن (رأس المال ـ المجلد الاول ـ ص ٧٣٧ ـ ٧٥٠) أن من الاسباب الرئيسية «للتراكم» البدائي لرأس المال نزع اللوردات الاقطاعيين لملكية الفلاحين الانجليز بعد أن حولوا أراضيهم القابلة للزراعة ـ بسبب ارتفاع اثمان الصوف ـ الى مراع بها عدد قليل من الرعاة ـ «المزارع المسيجة» ، وحولوا هؤلاء الفلاحين الى بروليتاريين احرار يضعون أنفسهم تحت تصرف الصناعات النامية· فرغم أنه طبقا لماركس حدثت هذه الثورة الزراعية نتيجة لظهور صناعة الصوف فان القوى الاقطاعية كما صورها هو نفسه ، كبار ملاك الارض المتطلعين الى الارباح كانوا أقوى اسبابها (« رأس المال » ـ المجلد الاول ـ ص ٧٤٧) أي أن القوة السياسية اصبحت حلقة في سلسلة الاضطرابات

ماذا يقصد بتخلل الفكرة سالفة الذكر للضرورة الاقتصادية · فاذا كان جوريس يفهم من ذلك أن علينا ان نعيد تنظيم العلاقات الاقتصادية في المجتمع البورجوازيبما يتفق مع مشاعرنا الاخلاقية فسنرد قائلين: أ) ان هذا أمر جلي بذاته، لكن من الصعب ان نجد في التاريخ أي حزب جعل مهمته انتصار ما يتناقض ـ في رأيه ـ مع « فكرته عن الحق والعدالة » · ب) انه لا يدرك بوضوح معاني الكلمات التي يستخدمها: فهو يتحدث عن الاخلاق التي ـ على حد تعبير تين ـ **تصدر تعليمات في حين يحاول الماركسيون فيما يمكن أن يسمى مذهبهم الاخلاقي أن يرسوا القوانين** · وفي هذه الظروف يكون سوء الفهم أمرا محتوما ·

الاقتصادية » (٧٧) ٠

لقد كان فلاسفة القرن الثامن عشر واثقين ـ كما أتيح لنا أن نقول في اكثر من مناسبة – من أن «**كل شيء يتوقف على التشريع**» ، ولكن حين تذكرنا في السنوات الاولى من هـذا القرن أن المشرع ـ الذي كان من المعتقد أنه قادر على«كل شيء» ـ هو بدوره نتاج للبيئة الاجتماعية ، حين فهمنا أن «تشريع» أي بلد يضرب بجذوره في بنيته الاجتماعية ، بدأ يظهر الاتجاه الى الوقوع في الطرف الاخر : وهكذا فان دور المشرع الذي كان **يبالغ في شأنه** فيما مضى أصبح الان **يقلل من شأنه** في كثير من الاحوال ٠ وهكذا مثلا يقول جان بابتيست ساي في مقدمة « بحث في الاقتصاد السياسي » :

« ولفترة طويلة خلطت **السياسة** بالمعنى الدقيق للكلمة ، علم **تنظيم** المجتمعات ، **بالاقتصاد** السياسي الذي يشرح كيف توزع الثروة التي تواجه احتياجات المجتمع وتستخدم ٠ غير أن الثروة **مستقلة** في الاساس عن **التنظيم** السياسي ٠ ففي ظل أي شكل للحكومة يمكن أن تزدهر الدولة اذا أديرت ادارة جيدة ٠ وقد رأينا أمما تثرى في ظل ملوك **مطلقين** : ورأيناها تفلس في ظل **جمعيات وطنية** ٠ واذا كانت الحرية السياسية اكثر مواتاة لتطور الثروة فهي تكون كذلك بشكل غير مباشر ، بنفس الطريقة التي تكون بها اكثر مواتاة للتعليم » ٠

ومضى الاشتراكيون الطوباويون الى أبعد حتى من ذلك فأعلنوا من فوق اسطح المنازل أن مصلح التنظيم الاجتماعي لا يربطه شيء بالسياسة (٧٨) ٠ والامر المشترك بين هذين الطرفين هو أن كـلا

---

(٧٧) المصدر السابق ـ ص ٤٩ـ٥٠ ٠

(٧٨) « فلدينا في عالمنا المتمدين كل اشكال الحكومة الممكنة ، ولكن هل البلدان الغربية التي تميل بدرجة اكبر او اقل نحو شكل الدولة **الديمقراطي** أقل تأثيرا بالفقر الروحي والاخلاقي والمادي من البلدان الشرقية التي يوجد بها شكل حكم **اوتوقراطي** بدرجة او أخرى ؟ أو هل تمس محنة الطبقات الفقيرة من الشعب قلب الملك البروسي بأقل مما تمس قلب مجلس النواب الفرنسي ـ او ملك الفرنسيين ؟ ان الوقائع

منهما ينبعث عن عجز عن الفهم الصحيح للصلة بين تنظيم البلاد الاجتماعي وتنظيمها السياسي · وقد اكتشف ماركس هذه الصلة ، بحيث كان من السهل عليه أن يوضح كيف ولماذا يكون كل صراع طبقي في نفس الوقت صراعا سياسيا ·

ولم ير الدكتور بارت العبقري سوى أمرا واحدا في هذا كله وهو أنه ـ طبقا لماركس ـ فان الفعل السياسي ـ فعل «التشريع» ـ لا يمكن أن يكون له تأثير على العلاقات الاقتصادية ، وانه في رأي ماركس هذا نفسه فان أي فعل من هذا القبيل ليس سوى مظهر ، بحيث أن أي فلاح انجليزي حرم من أرضه بالقوة على يد مالك الارض الكبير «في نهاية العصور الوسطى» ، أي جرد من مركزه **الاقتصادي** السابق ، يهدم كل نظرية الاشتراكي الشهير التاريخية كأنها بيت من ورق · وما كان في وسع خريج البكالوريا من سالامانكا في رواية فولتير (٧٩) أن يكشف عن قدر أكبر من حدة الذهن ·

واذن فان ماركس يناقض نفسه في وصفه «اخلاء الضياع» في انجلترا · أما بارت فانه كمنطقي رائع يستخدم هذا الاخلاء ليثبت أن للقانون «**وجودا خاصا**» ، ولكن لما كان **هدف** الفعل **القانوني** منجانب كبار ملاك الارض الانجليز لا يتفق فيالكثير معمصالحهم **الاقتصادية** فان دكتورنا الموقر يعبر عن تأكيد متحرر حقا من كل أحادية جانب : «وهكذا فان للقانون وجوده الخاص، وان لم يكن وجودا مستقلا»·· وجود خاص وان لم يكن مستقلا ، مرحى ! انها عبارة متعددة الجوانب ، كما أنها ـ وهذا هو الاهم ـ تحمي دكتورنا من كل أنواع «التناقضات» · فلو أنك أخذت تثبت له أن **القانون** يعتمد على **الاقتصاد** فسيجيب : ذلك لانه ليس مستقلا ، واذا قلت له ان الاقتصاد يحدده القانون فسيصيح ان هذا بالدقة ما يريد ان يقول بنظريته عن الوجود الخاص للقانون ·

ويقول دكتورنا العبقري الشيء نفسه عن الاخلاق والدين وكل

→

تثبت لنا العكس بقوة ، والتفكير **يقنعنا** بالعكس الى حد أننا اكثر من لا مبالين بكل التطلعات الليبرالية السياسية التي غدت ببساطة منفرة لنا » (هيس في «مرآة المجتمع» ـ ١٨٤٦) ·

(٧٩) شخصية في رواية فولتير الفلسفية « الملحد والحكيم » ـ المترجم ·

الايديولوجيات الاخرى ، فهي كلها دون استثناء تقف على أقدامها هي وان لم تكن مستقلة • وكما ترى فان هذه هي القصة القديمة الجديدة أبدا للصراع بين الانتقائية والواحدية ، نفس القصة عن «الحواجز» : هنا لدينا **المادة** ، وهناك **الروح** ـ جواهران لكل منهما وجوده الخاص وان لم يكن وجودا مستقلا •

ولكن فلنترك الانتقائيين ، ونعود الى نظرية ماركس ، فلدينا عدة ملاحظات عنها ينبغي أن نشير اليها •

كانت لدى القبائل المتوحشة علاقات ـ سلمية او غير سلمية ـ فيما بينها ، ومع الشعوب المتوحشة والدول المتمدينة اذا أتيحت لها الفرصة• وبالطبع تمارس هذه العلاقات تأثيرا على البنيةالاقتصادية لاي مجتمع •

« فمختلف الجماعات تجد في بيئتها وسائل انتاج مختلفة ، ووسائل معيشة مختلفة ، ومن هنا فان اساليب انتاجها ومعيشتها ومنتجاتها مختلفة • وهذا الاختلاف الذي يتطور عفويا، هو الذي يستدعي ـ حين تتصل الجماعات المختلفة ـ تبادل المنتجات ، وما يتبع ذلك من تحول تدريجي للمنتجات الى سلع » (٨٠) •

ويؤدي تطور الانتاج السلعي الى تحلل الجماعة البدائية • وتنشأ داخل العشيرة مصالح جديدة تولد في النهاية تنظيما سياسيا جديدا ، ويبدأ الصراع الطبقي ـ بكل نتائجه الحتمية ـ في مجال تطور البشرية السياسي والاخلاقي والفكري ، وتصبح علاقاتها الدولية اكثر تعقدا ، وتتولد ظواهر تبدو لدى الوهلة الاولى وكأنها تتناقض مع نظرية ماركس التاريخية •

ففي روسيا أحدث بطرس الاكبر ثورة مارست تأثيرا هائلا على تطور تلك البلاد الاقتصادي• غير ان ما دفع هذا العبقري الى اتخاذ اجراءات ثورية لم تكن احتياجات اقتصادية وانما احتياجات ذات طابع سياسي ، متطلبات **الدولة** • وبالطريقة نفسها كانت هزيمة

(٨٠) « رأس المال » ـ المجلد الاول ـ ص ٣٥٣ •

روسيا في حرب القرم (٨١) هي التي اجبرت حكومة الاسكندر الثاني على أن تبذل كل ما تستطيع من اجل تطـــور روسيا الرأسمالي · ويحفل التاريخ بمثل هذه الامثلة ، التي تبـــدو وكأنها تشهد لصالح الوجود المستقل للقانون الدولي والمدني وغيرهما من أنواع القوانين· ولكن فلنلق نظرة اقرب على هذه المسألة ·

أين تكمن قوة دول اوروبا الغربية ألتي أيقظت عبقرية الموسكوفي العظيم ؟ **انها تكمن في تطور قواها الانتاجية** · وقد فهم بطرس ذلك جيدا ، لانه بذل كل جهد لتطوير هذه القوى في بلاده · من أين جاءت الوسائل التي استخدمها ؟ كيف نشأت السلطة الاسيوية المطلقة التي استخدمها بهذه الطاقة الرهيبـــة ؟ تدين السلطة بأصلها **لاقتصاد** روسيا ، وكانت هذه الوسائل مقيدة بعلاقات الانتاج في روسيا فـي ذلك الحين · ولم يتمكن بطرس ولا كان في استطاعته ـ رغم سلطته الرهيبة وارادته الحديدية ـ تحويل بطرسبرغ الى امستردام أخرى ، أو تحويل روسيا الى قوة بحرية وكان هذا طموحه الذي لا يهين· لقد ولدت اصلاحات بطرس الاكبر ظاهرة اصيلة في روسيا · لقد حاول أن يزرع الصناعات الاوروبية في روسيا ، التي لم يكن لديها عمال ، ولهذا فقد استخدم فيها عمل **أقنان الدولة**·ووجدت في روسيا **صناعة القنانة** ـ وهو شكل لم يعرف في أوروبا الغربية ـ حتى عام ١٨٦١ ، أي الغاء القنانة ·

وثمة مثال لا يقل عن ذلك بروزا هو قنانة الفلاحين في بروسيا الشرقيـــة وبراندينبرغ وبوميرانيا وسيليسيا منذ منتصف القـــرن السادس عشر · **لقد كان** تطور الرأسمالية في البلدان الغربية **يقوض** على الدوام أشكال الاستغلال الاقطاعية لفالحي الارض · ولم يحافظ هذا التطور الرأسمالي على هذه الاشكال لفتـــرة طويلة نسبيا من الزمان الا في هذا الجزء من اوروبا ·

وتبدو العبودية في المستعمرات الاوروبية أيضا ـ لدى الوهلة الاولى ـ مثالا للمفارقة في التطـــور الرأسمالي · ولا يمكن تفسير

---

(٨١) اوضحت هزيمة روسيا القيصرية في حـرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦) عفونة النظام القائم على القنانة وعجزه ، مما دفع الحكومة بعد ذلك الى الغاء القنانة ، واجراء عدد من الاصلاحات في العقديـــن السادس والسابع من القرن الماضي ، أدت الى الاسراع بتطور روسيا البورجوازية ـ المترجم ·

هذه الظاهرة ـ كالظواهر الاخرى سالفة الذكر ـ بمنطق الحياة الاقتصادية في البلدان التي نجدها فيها ، وانما ينبغي البحث عن تفسيرها في **العلاقات الاقتصادية الدولية** ٠

وهكذا فقد عدنا بدورنا الى **زاوية الفعل المتبادل** ، ومن الغباء أن ننسى أن وجهة النظر هذه ليست مشروعة فحسب بل أساسية تماما ٠ غير أن من الحماقة بالمثل أن ننسى أن وجهة النظر هذه لا تفسر **بذاتها** شيئا ، وأن علينا دائما ونحن نستخدمها أن نبحث عن «الحد الثالث» ، الحد «الارقى» ، **الذي كانته الفكرة عند هيغل ، والذي هو عندنا الظرف الاقتصادي للشعوب والبلدان التي ينبغي ان نحدد ونفهم فعلها المتبادل** ٠

ففي اي بلد متمدين يمارس الادب والفنون الجميلة قدرا او آخر من التأثير على أدب البلدان المتمدينة الاخرى وفنونها الجميلة٠ **وهذا التأثير المتبادل نتيجة للتشابه بين البنية الاجتماعية في مثل هذه البلدان** ٠

فالطبقة التي تناضل ضد عدو تنتزع لنفسها مكانا محددا في أدب بلادها، واذا تحركت نفس الطبقة في بلد آخر فانها تتمثل الافكار والاشكال التي خلقتها قرينتها الاكثر تقدما ٠ **غير أنها تعدلها ، أو تمضي الى أبعد منها ، او تتعثر خلفها، ويتوقف هذا على الفارق بين ظرفها هي وظرف تلك الطبقة التي كانت نموذجا لها** ٠

ولقد رأينا من قبل أن **للبيئة الجغرافية** تأثيرا هائلا على تطور الشعوب التاريخي ٠ ونحن نعرف الان أنه ربما كان **للعلاقات الدولية** تأثير أكبر على هذا التطور٠ ويفسر التأثير المشترك للبيئة الجغرافية والعلاقات الدولية الفارق الواسع الذي نجده في مصائر الشعوب التاريخية **رغم أن القوانين الاساسية للتطور الاجتماعي هي نفسها في كل مكان** ٠ وهكذا نرى أن الفهم الماركسي للتاريخ أبعد من أن يكون «محدودا» و «احادي الجانب» بل هو يفتح امامنا حقلا واسعا للبحث ٠ ونحن نحتاج الى قدر كبير من العمل الشاق والصبر وحب الحقيقة حتى نزرع على نحو سليم ولو جزءا صغيرا من هذا الحقل، لكن هذا الحقل ينتمي الينا ، لقد وضعنا يدنا عليه ، وبدأ العمل على أيدي اساتذة لا مثيل لهم ، ولم يعد علينا الا أن نواصل هذا العمل ٠ **وينبغي علينا أن نفعل ذلك٠ اذا لم نرد أن نحول فكرة ماركس الرائعة ـ في اذهاننا ـ الى شيء «مقبض» «موحش» «كئيب»** ٠

قال هيغل عن حق تمـــاما « حين يظل التفكير واقفا عند **عموميـــة** الافكار ، كما كان الحال بالضرورة مع الفلسفات الاولى (وعلى سبيل المثال في الوجود عند الايليين والصيرورة عند هيراقليطس الخ ٠٠٠) فانه يعاب عن حق **بالشكلية** ٠ ولكن يمكن أن يحدث حتى في فلسفـــة متطورة ألا تدرك سوى القضايا والتحديدات المجردة ، وعلى سبيـــل المثال أن الكل واحد في المطلق،وأن هناك هوية بين الذاتي والموضوعي، وتظل نفس القضايا تردد فحسب فيما يتعلق بالخاص » (٨٢) ٠

ويمكن عن حق أن تؤخذ علينا **الشكلية** اذا مـــا نحن اقتصرنا بالنسبة لاي مجتمع معطى على ترديد أن **تشريح هذا المجتمع يضرب بجذوره في اقتصاده** ٠ هذا أمـــر لا نزاع فيه ، لكنه غير كـــاف ٠ فالفكرة العلمية ينبغي أن تستخدم استخداما علميـــا ، وينبغي أن ندرك كل هذه الوظائف الحيوية لهذا الكائن الذي يتحدد تركيبـــه التشريحي بالاقتصاد ، ينبغي أن ندرك كيف يتحرك ويتغذى ، وكيف **تصبح المشاعر والمفهومـــات** التي نشأت فيه **بفضل هـــذا التركيب التشريحي على ما هي عليه** ، وكيف تتغير مع التغيرات التي تحـــدث في هذا التركيب وهلم جرا ٠ وبهذا الشرط فحسب نستطيع أن نحقق تقدما، وبمراعاة هذا الشرط فحسب يصبح هذا التقدم حقيقة أكيدة٠

وكثيرا ما يرى الناس في الفهم المادي للتـــاريخ مذهبا يعلن خضوع الانسان لربقة ضرورة عمياء لا ترحم ٠ ومـــا من شيء اكثر زيفا من هذه الفكرة ! فالفهم المادي للتـــاريخ هو الذي يبين للناس الطريق الذي سيقودهم **من مملكة الضرورة الى مملكة الحرية** ٠

والسوقي ــ هذا الانتقائي بلا منازع ــ يثبت في مجال الاخلاق أنه «**مثالي**» ، وكلما ازداد عنادا في تشبثه «**بمثاله**» زاد شعور ذهنه بالعجز أمام **نثر الحياة الاجتماعية المقبض**٠ ان هذا الذهن لن ينتصر أبدا على الضرورة الاقتصادية ، وهذا المثل سيظل دائما مثلا ، ولن يصبح أبدا حقيقة،لان **له وجوده الخاص وان لم يكن وجودا مستقلا**»، لانه عاجز عن الخروج من خلف «**الحاجز**»٠ان لدينا في ناحية الروح، المثل ، الكرامة الانسانية ، الاخاء ، وما الى ذلك ، وفي ناحية أخرى المادة ، الضرورة الاقتصادية ، الاستغلال ، المنافســـة ، الازمات ، الافلاسات، الخداع الشامل المتبادل٠ والمصالحة مستحيلة بين هاتين

---

(٨٢) « الانسكلوبيديا » ــ المجلد الاول ــ الفقرة ١٢ ٠

الملكتين · ولا يستطيع الماديون المعاصرون أن **ينظروا الى مثل هذه «المثالية الاخلاقية» الا بازدراء** · ان لديهم فكرة أسمى عن قوة العقل الانساني ، صحيح أن هذا الاخير يتقدم في تطوره بفضل الضرورة الاقتصادية ، لكن **هذا بالدقة هو السبب** في أن ما هو معقول حقــا ينبغي ألا يبقى دائما في وضع «المثل» · فما هو معقول **يصبح واقعيا**، وتحقيق هذه الغاية يقع على عاتق قوة الضرورة الاقتصادية التي لا تقاوم ·

كان «فلاسفة» القرن الثامن عشر يرددون الى حد يثير الملـل أن العالم يحكمه الرأي العام ، ولهذا فان شيئــا لا يمكن أن يقف في مواجهة العقل الذي «ينتصر دائما في النهاية» · ورغم هذا فكثيرا ما عبر هؤلاء الفلاسفة أنفسهم عن **قدر كبير من الشـك في قوة العقل** ، ومثل هذا الشك ينبعث منطقيـــا من جانب آخر من نظريـــة هؤلاء «الفلاسفة»· فلما كان كل شيء يتوقف على «**المشرع**» فان هذا الاخير اما أن يسمح للعقل بالانتصار أو يخمـــــد شعلته · ومن هنا ينبغي انتظار كل شيء من «المشرع»· وفي اغلب الحالاتلا يبدي المشرعون والملوك الذين يتحكمون في مصـــــائر شعوبهم الا قدرا ضئيلا من الاهتمام بانتصار العقل ، وهكذا أصبحت آفاق هذا الاخير محدودة للغاية ! ولم يعد أمام الفيلسوف الا أن يعتمـــد على **الصدفة** ، التي ستضع السلطة عاجلا أو آجلا في يد «**أمير من اصدقاء العقل**»· وقد عرفنا من قبل أن هلفيسيوس قد اعتمد فعلا علىصدفة موفقة فحسب· فلنر ما يقوله فيلسوف آخر من نفس العصر حول هذه المسألة ·

«وأوضح المبادىء هي في الاغلب اكثرها اثارة للنزاع ، ان عليهـا ان تكافح الجهل والسذاجة والعنـــاد والعادات والغرور في الناس ، وباختصار مصالح الكبار وغباء الناس الذي يبقيهم متعلقين بنظامهم القديم · والاخطاء تدافع عن ارضها شبرا شبرا ، ولا يمكن للمرء أن ينتزع منها أدنى انتصار الا بالنضال والدأب· وما ينبغي لنا أن نعتقد، لهذا السبب أن الحقيقة عديمة الجدوى : فما أن تبذر بذورها حتـــى تعيش ، وستغل ثمارها مع الزمن ، وهي كالبذور التي ترقد مدفونة في الارض طويلا قبـــل أن تنبت ، تنتظر الظـــروف التي ستتيح لها أن تتطور··· وحين يحكم الامم ملوك مستنيرين تؤتى الحقيقة الثمارالتي نتوقعها منها ، وحين ينهك الامم في النهاية البؤس والكـوارث التي لا تحصى والتي ولدتها اخطاؤها فان هذا بالضرورة يجعلها تلجأ الـــى

الحقيقة ، التي تستطيع وحدها حمايتها من التعاسات التي جعلها الخداع والتحيز تعانيها طويلا » (٨٣) ٠

ولدينا هنا نفس الايمان «**بالملوك المستنيرين**» ونفس الشك في قوة «العقل» ! فلتقارن بهذه الامال العقيمة المستحية ايمان ماركس الذي لا يتزعزع حين يقول انه لم ولن يوجد ملك قادر على أن يمنع فعلا تطور قوى شعبه الانتاجية وبالتالي **تحرره من ربقة المؤسسات البائدة** ، ثم قل لي بعد ذلك أيهما اكثر ثقة في قوة العقل وانتصاره النهائي ؟ ان لدينا من ناحية «**ربما**» حذرة ، ومن ناحية أخرى **ثقة** لا تهتز كالثقة التي تعطينا اياها قوانين الرياضة ٠

ولم يكن في وسع الماديين الا أن يؤمنوا نصف ايمان بالههم ـ «العقل» ـ لان هذا الاله في نظريتهم كان يصطدم دائما بقوانين العالم المادي الحديدية ، **بالضرورة** العمياء ٠ يقول هولباخ « يبلغ الانسان نهايته دون أن يكون حرا لحظة واحدة ،من مولده وحتى مماته» (٨٤) ٠ وقد كان على المادي أن يؤكد هذا القول لانه ـ وفقا لبريستلي ـ فان «مذهب الضرورة ٠٠٠ هو النتيجة المباشرة لمذهب مادية الانسان ، لان الميكانيكية هي النتيجة التي لا شك فيها للمادية » (٨٥) ٠ ولكن الى أن عرف أن هذه **الضرورة** يمكن أن تولد **حرية** الانسان لم يكن في وسع المرء الا أن يكون جبريا ٠ يقول **هلفيسيوس** «كل الاحداث مترابطة فيما بينها ، فاجتثاث غابة في الشمال يغير اتجاه الريح ، وحالة المحاصيل ، والفنون في بلد ما ، واخلاقها وحكومتها » ٠ ويتحدث **هولباخ** عن الاثار التي لا تحصى والتي يمكن أن تحدثها حركة ذرة واحدة في ذهن حاكم مطلق على مصير بلد ما ٠ ولم تمض حتمية «الفلاسفة» الى ابعد من ذلك في فهم دور الضرورة في التاريخ ، وهذا هو السبب في أن التطور التاريخي أيضا كان ـ في نظرهم ـ خاضعا **للصدفة** ، هذه العملة الصغيرة من نقود **الضرورة** ٠ وظلت الحرية شيئا معارضا للضرورة ، في حين كانت المادية ـ كما اوضح

(٨٣) «ابحاث عن التحيزات وتأثير الاراء على الاخلاق وعلى سعادة البشر الخ ٠٠٠ » ـ لييج ١٧٩٧ ص ٣٧ ٠ وينسب هذا الكتاب الى هولباخ أو الى المادي دومارسيه الذي يحمل الغلاف اسمه ٠

(٨٤) «الادراك السليم» ـ المجلد الاول ـ ص ١٢٠ ٠

(٨٥) بريستلي «مناقشة حرة لمذاهب المادية الخ ٠٠ » ـ ص ٢٤١ ٠

ماركس ــ عاجزة عن فهم النشاط **الانساني**٠وقد رأى المثاليون الالمان بوضوح بالغ هذا الجانب الضعيف في المادية الميتافيزيقية لكنهم لم يتمكنوا من ربط الحرية والضرورة معا الا بمعونة الروح المطلق أي بمعونة خيال ، ويتخبط الماديون المعاصرون من طراز موليشوت في أحبولة تناقضات ماديي القرن الثامن عشر ٠ وكان ماركس وحده هو الذي استطاع ــ في نظرته «**للممارسة الانسانية**» أن يوفق بين «العقل» و «الضرورة» دون أن يتخلى لحظة واحدة عن نظرية «**مادية الانسان**»٠

« ان البشرية لا تطرح أمامها من المهام سوى ما تستطيع أن تحله ، لان الدراسةالاوثق ستبين دائما أن المهمة نفسها لا تنشأ الا حين توجد بالفعل الشروط المادية لحلها ، أو تكون على الاقل في عملية تكوينها » (٨٦) ٠

ان **الماديين الميتافيزيقيين** قد رأوا الضرورة **تخضع الناس لها (« غابة تجتث » الخ ٠٠٠)** أما **المادية الجدلية** فتبين كيف **ستحررهم** الضرورة ٠

« وأسلوب الانتاج البورجوازي هو الشكل التناحري الاخير لعملية الانتاج الاجتماعية ــ تناحري لا بمعنى التناحر الفردي وانما بمعنى التناحر الذي ينبعث من ظروف وجود الفرد الاجتماعية ــ لكن القوى الانتاجية التي تتطور داخل المجتمع البورجوازي تخلق أيضا الظروف المادية لحل هذا التناحر ٠ ومن ثم فان ما قبل تاريخ المجتمع الانساني ينتهي مع هذا التكوين الاجتماعي » (٨٧) ٠

ورغم انهم يزعمون ان نظرية ماركس نظرية جبرية فانها هي النظرية التي وضعت حدا ــ للمرة الاولى في تاريخ العلم الاقتصادي ــ **لوثنية الاقتصاديين** التي يفسرون وفقا لها المقولات الاقتصادية ــ القيمة التبادلية والنقود ورأس المال ــ بطبيعة الاشياء المادية وليس بطبيعة العلاقات بين الناس في عملية الانتاج (٨٨) ٠

(٨٦) « نقد الاقتصاد السياسي » ــ المقدمة ــ ص ٦ ٠
(٨٧) المصدر السابق ــ ص ٦ ٠
(٨٨) ويمكن ان يتضح الى اي حد تضلل الوثنية الكامنة في السلع، أو المظهر الموضوعي للخصائص الاجتماعية للعمل ، بعض الاقتصاديين

ولا نستطيع أن نعرض هنا ما فعله ماركس للاقتصادالسياسي، لكننا نلاحظ فحسب انه قد استخدم نفس المنهج في هذا العلم ،وأنه في معالجته للاقتصاد السياسي قد تبنى نفس وجهة النظرالتي تبناها في تفسيره للتاريخ ـ وجهة نظر علاقات الناس في عملية الانتاج ، ومن هنا نستطيع أن نحكم على المستوى الفكري لاولئك الناس ـ وهم كثيرون في روسيا اليوم ـ الذين«**يعترفون**» بنظرية ماركس الاقتصادية لكنهم «**يرفضون**» افكاره التاريخية ٠

وكل من فهم ما يعنيه **المنهج الجدلي** لمادية ماركس يمكن أن يحكم أيضا على الدلالة العلمية للمناقشات التي تثور من حين الى آخر حول أي منهج استخدمه ماركس في «رأس المال» ـ المنهج **الاستقرائي** أم **الاستنباطي** ٠

فمنهج ماركس استقرائي واستنباطي **في نفس الوقت** ، وهو فضلا عن ذلك اكثر المناهج التي استخدمت على الاطلاق ثورية ٠

بين ما تتضح فيه بالعراك الغبي الممل حول الدور الذي تلعبه الطبيعة في تكوين القيم التبادلية٠ فلما كانت القيمة التبادلية أسلوبا اجتماعيا محددا للتعبير عن كمية العمل التي بذلت في شيء ما فليس للطبيعة شأن بها بقدر ما ليس لها شأن بتحديد مسار التبادل ٠

« وأسلوب الانتاج الذي يتخذ فيه الناتج شكل السلعة ، أو ينتج مباشرة للتبادل،هو اكثر اشكال الانتاج البورجوازي عمومية وجنينية٠ ومن هنا فانه يظهر في فترة مبكرة من التاريخ ، وان لم يكن بنفس الاسلوب السائد والمميز الذي هو عليه اليوم ٠ ومن هنا يسهل نسبيا تبين طابعه الوثني ٠ ولكن حين نصل الى اشكال اكثر تحديدا يختفي حتى هذا المظهر من البساطة ٠ فمن أين تنبعث أوهام المذهب النقدي ؟ من ان الذهب والفضة بالنسبة له ـ حين يستخدمان كنقود ـ لا يمثلان علاقة بين المنتجين وانما يعتبران موضوعان طبيعيان لهما خصائص اجتماعية غريبة ٠ وأما الاقتصاد الحديث ـ الذي ينظر بمثل هذا الازدراء للمذهب النقدي أفلا تتجلى خرافتهكضوء النهار حيثما يتناول رأس المال ؟ ومنذ كم من الزمن طرح الاقتصاد عنه وهم الفسيوغراطيني الذي يرى الريع شيئا تنتجه التربة وليس المجتمع ؟ » (« رأس المال ـ المجلد الاول ـ ص ٥٢ـ٥٣)٠

يقول ماركس : « فالجدل في شكله الصوفي قد أصبح الموضة في ألمانيا ، لانه يبدو وكأنه يمجد الوضع القائم للامور ، وهو في شكله العقلاني فضيحة ورجس للبورجوازية وأساتذتها المذهبيين لانه في شموله واعترافه الايجابي بالوضع القائم للامور ، يتضمن في نفس الوقت ايضا ادراك نفي هذه الحالة ، وانهيارها الحتمي ، لانه يعتبر كل شكل اجتماعي متطور تاريخيا في حركة دافقة ، وبذلك يضع في حسبانه طبيعته الانتقالية وبنفس الدرجة وجوده المؤقت ، لانه لا يدع شيئا يفرض عليه ، ولانه في جوهره نقدي وثوري » (٨٩) ·

لقد فزع هولباخ ـ وهو من اكثر ممثلي الفلسفة الفرنسية في القرن الماضي ثورية ـ من الاندفاع نحو الاسواق ، الذي لا يمكن أن توجد البورجوازية الحديثة دونه ، ولو استطاع لاوقف التطور التاريخي في هذا الاتجاه · ورحب ماركس بهذا الاندفاع نحو الاسواق ، هذا التطلع الى الارباح ، كقوة تدمر وضع الامور القائم ، وشرط اولي لتحرر البشرية ·

« لا تستطيع البورجوازية أن توجد دون أن تضفي دائما طابعا ثوريا على أدوات الانتاج ، ومن ثم على علاقات الانتاج ، ومعها كل العلاقات الاجتماعية · وعلى العكس من ذلك كانت المحافظة على أساليب الانتاج القديمة في شكل لا يتغير هي الشرط الاول لوجود كل الطبقات الصناعية السابقة ، فالثورة الدائمة في الانتاج ، والاضطراب الذي لا يتوقف في كل الظروف الاجتماعية ، والحيرة والقلق الدائمين، كل ذلك يميز العصر البورجوازي عن كل العصور السابقة · ان كل العلاقات الثابتة المتحجرة ـ بما تجره وراءها من تحيزات وآراء قديمة موقرة ـ تكتسح ، وكل العلاقات التي تتشكل حديثا تصبح عتيقة قبل ان يصلب عودها · وكل ما هو صلب يذوب في الهواء ، وما هو مقدس يعامل بازدراء ، ويجبر الانسان في النهاية على أن يواجه بحواس متيقظة ظروف حياته الواقعية ، وعلاقاته بنوعه ·

« وتحت مطاردة الحاجة الى سوق متسع على الدوام لمنتجاتها تندفع البورجوازية في كل أنحاء المعمورة ، فلا بد أن تقيم اعشاشها

(٨٩) « رأس المال » ـ المجلد الاول ـ الطبعة الثالثة ـ مقدمة الطبعة الثانية ـ ص ٢٩ ·

في كل مكان ، وأن تستقر في كل مكان، وأن تقيم الصلات في كل مكان·
« وقد أضفت البورجوازية ــ خلال استغلالها للسوق العالمي ــ طابعا كوسموبوليتيا على الانتاج والاستهلاك في كل بلد ، وسحبت من تحت قدم الصناعة ــ ويا لحزن الرجعيين الكبير ــ الارض القومية التي وقفت عليها ، ودمرت او تدمر كل يوم كل الصناعات القومية قديمة العهد ، وتزيحها عن مكانها صناعات جديدة ، يصبح ادخالها مسألة حياة أو موت لكل الامم المتمدينة ، صناعات لم تعد تستخدم المواد الاولية المحلية فحسب وانما موادا أولية تجلب من أنأى البقاع ، صناعات لا تستهلك منتجاتها في الداخل فقط بل في كل انحاء الارض· وبدلا من الحاجات القديمة التي تشبعها منتجات البلاد نجد حاجات جديدة تتطلب لاشباعها منتجات أراض واجواء نائية· بدلا من الانعزال المحلي والقومي والاكتفاء الذاتي نجد اتصالا في كل اتجاه ، وتبعية متبادلة بين الامم ، وما يحدث في الانتاج المادي يحدث في الانتاج الفكري ، وتصبح الابداعات الفكرية للامم المفردة ملكية مشتركة ·
« وتصبح أحادية الجانب وضيق الافق القوميان اكثر فأكثر استحالة، وينشأ عن الاداب القومية والمحلية المعقدة أدب عالمي ··· » (٩٠) ·

لقد كان الماديون الفرنسيون في تمردهم على **الملكية الاقطاعية** ينشدون أهازيج المديح **للملكية البورجوازية** التي اعتبروها الروح العميقة للمجتمع الانساني · انهم لم يروا سوى جانب واحد من المسألة ، معتبرين الملكية البورجوازية ثمرة أعمال المالك نفسه · ويوضح ماركس ماذا يقود اليه المنطق الداخلي للملكية البورجوازية:

« ان الثمن المتوسط للعمل بالاجر هو الاجر الادنى أي ذلك المقدار من وسائل المعيشة اللازم للابقاء على العامل في مجرد وجوده كعامل· ومن هنا فان ما يتملكه العامل بالاجر عن طريق عمله لا يكفي الا لاطالة وتكاثر وجود مجرد ··· ولكن الملكية الخاصة في مجتمعكم القائم قد قضى عليها بالفعل بالنسبة لتسعة اعشار السكان ، وليس وجودها

(٩٠) « بيان الحزب الشيوعي » ــ الفصل الاول ·

للقلة راجعا الا بفضل عدم وجودها لهؤلاء التسعة اعشار » (٩١) ٠

وأيا كانت ثورية الماديين الفرنسيين فما كانوا يتوجهون الا الى **البورجوازية المستنيرة** والنبلاء «**المتفلسفين**» الذين انتقلوا الى معسكر البورجوازية ، لقد كان بهم خوف شديد من «الرعاع» من «الشعب» ، من «**الغوغاء الجاهلة**» ٠ لكن البورجوازية لم تكن ولا كانت تستطيع أن تكون **سوى نصف ثورية** ٠ أما ماركس فيتوجه الى **البروليتاريا** ، **وهي طبقة ثورية بالمعنى الكامل للكلمة** ٠

« ان كل الطبقات التي كانت لها اليد العليا في الماضي قد سعت الى تعزيز وضعها المكتسب فعلا باخضاع المجتمع في مجموعه لظروف تملكها ٠ أما البروليتاريون فلا يستطيعون أن يصبحوا سادة لقوى المجتمع الانتاجية الا بالغاء أسلوب تملكهم السابق ، وبالتالي كل اسلوب تملك سابق آخر٠ فليس لديهم ما يؤمنوه ويعززوه، ان رسالتهم هي تحطيم كل الضمانات والتأمينات السابقة للملكية الفردية » (٩٢) ٠

وكان الماديون في صراعهم ضد النظام الاجتماعي القائم عندئذ يتجهون على الدوام الى «**أقوياء هذا العالم**» الى «**الملوك المستنيرين**»، لقد حاولوا أن يبينوا لهؤلاء الاخيرين أن نظرياتهم ليست خطرة في جوهرها ٠ أما ماركس والماركسيون فيتخذون موقفا آخر من «**اقوياء هذا العالم**» ٠

« ويأنف الشيوعيون من اخفاء آرائهم واهدافهم،انهم يعلنون صراحة أن غاياتهم لا يمكن أن تتحقق الا بالتطويح العنيف بكل الظروف الاجتماعية القائمة ٠ فلترتعد الطبقات الحاكمة أمام الثورة الشيوعية: فليس لدى البروليتاريين ما يخسرونه سوى اغلالهم ، وأمامهم عالم

---

(٩١) « بيان الحزب الشيوعي » الفصل الثاني ٠ وقد صاغ ماركس في «رأس المال» ، قانون الاجور الذي يتحدث عنه هنا ـ بدقة اكبر حيث أوضح أنه في الواقع العملي اكثر لا مواتاة للبروليتاري ٠ غير أن ما يقوله «البيان» يكفي لتحطيم الوهم الذي ورثه القرن التاسع عشر عن سلفه ، أو بالاحرى **أسلافه** ٠

(٩٢) « البيان الشيوعي » ـ **الفصل الاول** ٠

بأسره يكسبونه » (٩٣) ٠

ومن الواضح تماما أن مذهبا كهذا لا يمكن أن يحظى باستقبال قلبي من جانب «اقوياء هذا العالم» ٠ لقد اصبحت بورجوازية اليوم طبقة رجعية : انها تسعى جاهدة «**لتدير عجلة التاريخ الى الخلف**» ٠ وايديولوجيوها عاجزون حتى عن أن **يفهموا** الاهمية العلمية الهائلة لاكتشافات ماركس ٠ غير ان البروليتاريا هي التي تستخدم نظريته التاريخية كأفضل مرشد في نضالها من اجل التحرر ٠

وهذه النظرية ـ التي تفزع البورجوازية بجبريتها المزعومة ـ تبث طاقة لا نهائية في البروليتاريا ٠ وقد كان من بين ما قاله الدكتور بريستلي وهو يدافع عن «مذهب الضرورة» امام هجمات برايس :

« ودون أن اتحدث عن نفسي ـ ولست بالتأكيد اكثر الحيوانات خمولا وبلادة ـ فأين سيجد حماسا ذهنيا اكبر ،وجهدا اقوى واكثر اطرادا ، ومتابعة أشق واثبت لاهم الموضوعات الا بين من يعرف انهم من انصار نظرية الضرورة ؟ » (٩٤) ٠

وقد كان بريستلي يتحدث عن « انصار نظرية الضرورة المسيحيين » الانجليز من معاصريه، الذين كان يستطيع أن ينسب لهم عن حق هذا النوع من الحماس ٠ ولكن فلنتحدث قليلا ـ مع السادة بسمرك اوكابريفي او كريسبي او **كاسيمير** بيرييه وسيحدثونك بالاعاجيب عن نشاط وجهود «انصار الضرورة» و « الجبريين » في أيامنا ـ **العمال الاشتراكيين الديمقراطيين** ٠

---

(٩٣) المصدر السابق ـ **الفصل** الرابع ٠

(٩٤) الدكتور بريستلي ـ المصدر السابق ـ ص ٣٩١ ٠

فهرس

Mouyn

الثمن ١٠ ل. ل.
او ما يعادلها

دراسات فلسفية دراسات فلسفية